

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



فناجح الأدب العربي

الجزء الأول

في العصر الجاهلي

تأليف

السباعي بيومي

وكيل كلية دارالعلوم - جامعة فؤاد الأول
وأستاذ تاريخ الأدب

[حق الطبع للمؤلف]

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

طبعة السعادة بوزار محافظة مصر

١٩٤٨

الأدب العربي

ما هو ؟ وما تاريخه ؟ وكيف كان تدوينهما ؟

— ماهو وما تاريخه —

إنه لحرى بنا قبل التعرض للتعريف بالأدب ، أن نعرض لكلمة الأدب نعالجها مفردة غير منسوبة لشيء ، معالجة تسيرها منذ الطفولة إلى أن اكتمل معناها وصار إلى الحد لدى نعرفه لها الآن والذي عنده وقعت نسبتها إلى اللغة ، حتى إذا ما تعرضنا لمعنى الأدب نكشف عنه ونبين الغرض منه ، كان قولنا واقعا على أساس ، وألفينا ذلك المعنى سهل المأخذ على آذنا وطيد الاستقرار في أذهاننا .

ولعل أول معنى عرف لكلمة الأدب هو وقوعها مصدرا لأدب يأدب اللازم من باب ضرب بمعنى صنع طعاما يحتفل به ويدعو إليه ، والاسم من ذلك المأدبة ، علي أن هذا الفعل استخدم من الباب نفسه — ويغلب أن يكون ذلك في الوقت عينه — بمعنى دعا إلى مأدبته ، ومن ذلك قول طرفه بن العبد ويستشهد به على المعين

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

يقول نحن في المشتاة أى الجذب ندعو الدعوة العامة وهى الجفلى فلا ترى الآدب فينا أى صانع المأدبة أو الداعى إليها ينتقر فى دعوته فيختص بها فريقا دون غيره ، والنقرى ضد الجفلى .

مكثت الكلمة على هذا المعنى بشعبتيه السابقتين العصر الجاهلى كاه تقريبا ، حتى إذا ما كان قبيل الإسلام تخطت متعدية ومن باب ضرب أيضا ، إلى معنى آخر هو التهذيب والرياضة ف قيل أدبه يأدبه بمعنى هذبه وثقفه كما قيل أدبه بالتشديد على سبيل المبالغة والتكثير بمعنى علمه وبمعنى عاقبه على إساءة ، لأن العقاب مما يحقق معنى الأدب على هذا الوجه ، وهو كل رياضة محمودة يخرج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل ، ومن ذلك قول عتبة بن ربيعة لابنته هند وهو يصف لها أبا سفيان بن حرب بعلا على غير تسمية ،

« يؤدب أهله ولا يؤدبونه » وقولها له في الجواب عن ذلك « إني لأخلاق هذا لواقفة ، وإني له لمواقفة ، وإني لأخذته بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلفتي » ولما أن جاء الاسلام بتعاليمه الداعية إلى مكارم الأخلاق ، انتشر هذا المعنى وشاع ، وأكثر الناس استعماله أيما إكثار وبخاصة بعد أن قال النبي صلى الله عليه وسلم « أدبني ربى فأحسن تأديبي » . ثم توسعوا في كلمة الأدب فأطلقوها على كل ماله أثر في التهذيب وحضوا لذلك على التأدب بالمأثور ، ولا سيما الشعر ، لما فيه من الدعوة إلى المكارم والتسابق إلى المحامد ، كما قال عمر بن الخطاب لابنه رضى الله عنهما « يا بني انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك » وكما قال معاوية « اجعلوا الشعر أكثر همكم وأكثر آدابكم ، فإن فيه مآثر أسلافكم ومواضع إرشادكم » وكما قال عبد الملك بن مروان لمعلم ولده « أدبهم برواية شعر الأعشى ، فإنه قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره » ولقد ازدادوا توسعا في معنى تلك الكلمة حتى جعلوا الأدب يشمل ناحية الرذيلة كما يشمل الفضيلة ، لأن في تناوله الأولى بالترغيب عنها والتبغيز فيها حضا ، غير مباشر علي الترغيب في الثانية والتجنب إليها . ثم بالغوا في هذا التوسع حتى شمل الأدب المأثور جميعا ، وبهذا انتقلت كلمة الأدب إلى معنى الظرف في الخلق وحسن التناول للقول ، كما انتقلت كلمه التأديب إلى العمل في سبيل ذلك ، وطاوعتها كلمة التأدب حتى قيل أدبت فلانا فتأدب ، ومن ثم نشأ الفعل أدب يأدب من باب كرم فعل السجاياء والطباع ، وأطلقت كلمه الأديب علي من حسن أدبه وبدا ظرفه كما قال سالم بن وابصة من قصيدة يحض فيها علي مكارم الأخلاق .

إذا شئت أن تدعي كريما مكرما أديبا ظريفا عاقلا ما جدا حرا

إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكُن أنت محتالا لزله عذرا

ومن هنا بدأت كلمة الأدب تنحرف عن معناها اللغوي إلى هذا المعنى الاصطلاحي . ولما أخذ القوم في مزاوله بعض العلوم من دينية ولسانية آخر العهد الأموي ، انحازت هذه الكلمة إلى حذق علوم اللغة لها من الأثر في تقويم اللسان واستكمال أداة البيان ، ثم كان تقدم العلوم وارتقاء المعارف أيام الدولة العباسية ، بما حدث من تقسيم وتفصيل ، واستجد من ترجمة ونقل ، فجعل التأديب مهنة تصدى لها المؤدبون ، وتصدر هم فيها الأئمة من الرواة والعلماء ، وقصر الأدب على مأثور اللغة من شعروثر ، وعكف الناس على

دراسته بهذا المعنى حتى وضعت له كتب خاصة عرفت بكتب الأدب ، كما عرف غيرها بكتب الدين مثلا ، وجارت كلمة الأدب في ذلك كلمة الأديب ، فوسم بها كل من حذق الأدب علي هذه الوجه ، وعرف من سائر العلوم ما هو للأدب وسيلة أو للأدب به علاقة وله منه فائدة ، إذ لا يحمل بالأديب أن يكون من غير الأدب عاطلا ، فان الأدب ثقافة خاصة لها حاجة وبها افتقار ، إلى أن تركز على ثقافة عامة بدونها يقل بهاء الأدب وتذهب حلاه ، ولكنهم مع هذا لم يتجاوزوا كثيرا مآثور اللغة في روايته ونسبته على أيدي الرواة ، وفي شرحه والإفادة منه على أيدي الأدباء ، فبقيت كتب الأدب ما بين كتب رواية تخلص للمآثور محردا ، وكتب دراية تبحث في معناه إجمالا أو تفصيلا ، على ما قد يشوب هذه الأخيرة من أبحاث لغوية أو نحوية وصرفية ، تخرجها عن الناحية الأدبية الصرفة ، وتجعلها بالانتساب إلى الناحية العلمية أخرى .

بهذا استمرت الابحاث جامدة عند معنى الأدب دون تاريخه الذي لا يتحقق بغير التحليل والاستنباط ، وتتبع أطوار المآثور بأنواعه ضعة وارتفاعا ، وتلمس العلل لذلك والأسباب ، والانكباب على دراسة البيئات من عامة وخاصة لمعرفة ما أنتجته في ذلك التاريخ من آثار ، اذ تاريخ الأدب وهو حياته يعتريه ما يعتري حياة الأمم في كل مظهر التاريخ السياسى العام ، نعم إن المتقدمين في ذلك العهد العباسي وبعده ، قد عالجوا أبحاثا هي من تاريخ الأدب في الصميم ، كالموازنة بين موضوع في عهدين أو بين شاعر وآخر جملة أو في قصيدين ، وكالكلام فيما طرأ على اللغة بالاختلاط ، إلا أن ذلك لم يتناول في مجموعه كل ما لحياة الأدب من تاريخ ، كما لم ينسجم مرتبا في سلك النظام الذى ينبغى أن تكون عليه تلك الابحاث . ولم يزل تاريخ الأدب على تلك الحال من النقص في بعض وجوهه ، وانتثاره على غير شخصية قائمة في بطون السكتب ، إلى ان هب المستشرقون يضعون أسسه ويرفعون قواعده ، وتوافروا على أبحاثه يثبتون أصولها ويفرعون الكثير من فروعها ، حتى أوصلوه إلى صورة متميزة قائمة ، فاذا هو كما نراه الآن علم ذو نظام وترتيب وتقسيم وتبويب ، وكان لهم في ذلك طريقان ، إما دراسته موضوعا موضوعا ينتقلون بكل موضوع من عصر إلى عصر حتى يستتم أطواره ويستكمل ألوانه وهذا على غنائه قليل ، وإما دراسته عصرا عصرا يتناولون في كل عصر

موضوعات الأدب واحداً واحداً كما هي الحال في التاريخ السياسي العام وهذا هو المتبع والكثير .

فعل المستشرقون ذلك ، وحينما أنشئت دار العلوم على نظارة على مبارك باشا للمعارف المصرية إذ ذاك ، كي تنهض باللغة العربية في بلد انتهت إليه زعامة الناطقين بالضاد ، كان لزاماً أن يكون الأدب وتاريخه من أول ما يعنى بدراسته في هذا المعهد الجديد ، - وفعلوا كان - وعهد بذلك أول الأمر إلى طائفة من الأدباء لعمل أكثرهم غناء كما هو بلا شك أبصاهم أثراً ، المرحوم الشيخ حمزة فتح الله صاحب « المواهب الفتحية » باكورة ما ألف بالعربية في هذا الباب . لكن الشيخ طيب الله ثراه ، نظر إلى الأدب كأنه فن لا يستند إلى علم ، أو كأن دراسته بعيدة عن تاريخه كافية في تكوين الأديب ، فنهج في مواهبه نهجاً هو إلى دراسة الأدب أقرب منه إلى دراسة تاريخه ، فانه لم يكد ينتهى في كتابه من تصديره ببضعة أبحاث عامة في اللغة على الطراز القديم ، حتى انتقل إلى المأثور يؤدب به الطلاب تأديباً جعل دعائه الأربع ، القصائد فالحمات في الشعر ثم الرسائل والخطب في النثر ، فشرح عشر قصائد أجرى بعدها عشر موازنات ، ثم ساق من بعدها عشر رسائل أتبعها بثلثها من الخطب ، دون أن يتقيد في ذلك بعصر معين أو يجري على سنن خاص ، إذ كان مهيبه كما سبق الامام بطائفة من المأثور تشرح وتدرس كما يتطلب المعنى ويقتضى الاستطراد ، على أنه لا يبعد أن يكون رحمه الله قد سيق إلى ما فعل لا مدفوعاً بتلك النظرة بل بما تملكه من حب القديم يجري على سننه ويهتدى بهديه ، وبخاصة إذ وجد طريقه معبدة أمامه ، في حين كان الجديد لا يزال مغلق السبل غير واضح الأعلام ، ولهذا لم تسكد دراسة الأدب وتاريخه تسند إلى المرحوم حسن أفندى توفيق ، أحد أبناء دار العلوم الذين زاولوا التعلم والتعليم حقبة في ألمانيا مهد الاستشراق عامة وفي العربية خاصة ، حتى أبرز لنا صورة لتاريخ الأدب ، هي على صغرها يصح أن تكون بحق النموذج الأول فيه ، ويجب على كل دارس له من بعده مهما أبدع وفصل ، أن يكون موقفه منه موقف الحريرى في مقاماته من البديع حيث يقول على سبيل التمثيل

فلو قبل مبكها بكيت صباية بسعدى شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا بكها فقلت الفضل للمتقدم

كيف دون الأدب وتاريخه

عرف الأدب بمعناه الاصطلاحي البدائي في صدر الاسلام كما تقدم ، ولما جاء العهد الأموي فاقت عناية الخلفاء به كل عناية ، وشغلت من نفوسهم المحل الثاني ، يعد المهام السياسية إن لم يكن الأول معها ، ذلك بأنها عون عليها وبأنهم رأوا تثبيت ملكهم في إحياء العصبية ، فكان في هذا إحياء الأدب القديم مع الجديد ، وإعادة مذاكرته ومدارسته بعد أن ألهى عنه صدر الأسلام حتى كاد ينسى ، وقد توج هذه العناية بالنجاح الباهر والمحصول الوافر ، أن كان الخلفاء أنفسهم من كبار الملمين باللغة والأدب ، العارفين لمحاسن الكلام ودقائقه ، الراغبين في ألا تخلو مجالسهم من حوار فيه وتقاش ، فإن هذه الأشياء مجتمعة - ومعها غيرها منهم - حملت أرباب الكلام على العناية بالقول والاحتفال بتجويده قبل إهدائه إليهم ، كما حملت رواة الأدب على أن يلمعوا بالكثير الذي يحسنون عرضه ويجيدون نقله ، فتولد بذلك ضرب رشيق من الحوار الأدبي تم نضجه واستوى ، على يد شيخ تلك الحلبة عبد الملك ابن مروان ، حيث هدأت يده عواصف الفتن ، واستقرت سياسته أمور الدولة ، ففاض عهده بهذا اللون من الحوار الأدبي ، الذي شغل فراغا كان يشغله من قبل الحوار السياسي في عهد معاوية ، واستمر مطردا في عهد أولاد عبد الملك بعده - وكلهم أديب بارع وبجائة عالم - فأتى الآثار الأدبية التي ملأت كتب الأدب وعادت على اللغة بوافر الغلات .

١ - بهذا الصنيع وأمثاله من الخلفاء الأمويين ، ومن قديمهم من الأمراء والولاة وسائر الناس شعراء وأدباء ، انتشرت الرواية وكثر الرواة ، كعاصر الشعبي خاصة عبد الملك ، وحمام الرواية جليس ابنه هشام . ولكن ما روى في العصر الأموي كله بقي غير مقيد في كتاب ، حتى إذا ما جاء العصر العباسي ، ودخل في الاسلام كثير من الأعاجم الذين تعلموا لغة العرب ، وجدت الحاجة إلى التوسع في قواعد النحو والصرف للتحرز من الأخطاء ، كما وجدت أيضا إلى الاكثار من الرواية للشواهد والمرانة ، فدفع الحرص على هذين الأمرين معا إلى تدوين المأثور ،

وهنا حبب بعد مواطن العباسيين عن البوادي إلى طائفة من فصحاء الأعراب ،
التردد على حواضر العراق لمد الرواة والمتعلمين بالمأثور ، لقاء ما ينالون جزاء ذلك
من رزق ومال .

فكان من أشهر هؤلاء الأعراب الفصحاء بالبصرة ، أبو اليساء الرياحي ،
وأبو مالك بن كركرة ، وأبو الجاموس بن يزيد ، وأبو عدنان بن عبد الأعلى ،
وشبيل بن عرعة الضبعي . وكان من أشهرهم بالكوفة ، أبو خيرة بن يزيد ،
وأبو محم الشيباني .

ولقد تعدى سيلهم المصريين المذكورين إلى بغداد ، فكان منهم فيها أبو زياد
وأبو ضمضم الكلبيان ، وأبو شبل العقيلي ، والفقي الأسدي ، بل تجاوزوا بغداد
إلى خراسان كابي العميشل مؤدب الطاهريين في مرو .

لم نعرف لهؤلاء الأعراب المرتحلين - ولا لغيرهم ممن لم يرتحلوا عن البادية وإنما
كان الرواة يرحلون إليهم - شيئاً من الكتب عن أدبهم ، ولكن الرواة دونوا
هذا الأدب في العصر العباسي الاول ، فكان مرجع الناس من نخاة وأدباء

ومن أشهر هؤلاء الرواة المدونين ، أبو عمرو بن العلاء الذي أخذ عنه كل علماء
عصره ، وكانت دفاتره إلى السقف فتناولها وأحرقها كما قال صاحب فوات الوفيات .
وأبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب نقائض جرير والفرزدق ، والشعر والشعراء .
والاصمعي عبيد الله بن قريب صاحب الأصمعيات ورجز العجاج وعشرة كتب غيرها
في الانسان والحيوان والنبات والجماد . وأبو زيد الانصاري صاحب النوادر في اللغة
وكتاب المطر واللبن . والقاسم بن سلام صاحب غريب الحديث وغريب المصنف ،
وفضائل القرآن والمواعظ والامثال ، وغير هؤلاء .

وهناك طائفة من الرواة غلبت عليهم رواية الشعر ، أشهرهم حماد الراوية جامع
المعلقات ، والضي صاحب المفضليات وخلف صاحب كتاب العرب وما قيل فيها
من الشعر ، والشيباني جامع أشعار القبائل ، وكل هؤلاء من رجال الطبقة الاولى
في العصر العباسي الاول . وقبل أن ينتهي هذا العصر نشأت طبقة ثانية ، كان من
دأب رجالها أن يجمعوا بين الروايات ويفاضلون بينها ، منهم محمد بن سلام صاحب
طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين ، وأبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي

صاحب جمهرة أشعار العرب ، وكلاهما صدر كتابه بمقدمة بأسقة الطول ، تكلم فيها عن الشعر واللغة كلاماً انتقادياً له في عالم الأدب مكان واعتبار ، وقد حادت هذه الطبقة الثانية في كلامها عن الاكثار من اللغة ، كما حادت الطبقة الأولى عن الاكثار من النحو ، حيدة جعلت الأدب يتميز منهما ليتحقق له ما تحقق من الشخصية والمكان .

٢ — ولما حصل العصر العباسي الثاني أخذ الأدب يستقل عن النحو واللغة إلا لماماً ، وأخذ يعنى بالمأثور وبالكلام عليه شرحاً وتعليقاً ، كما يعنى بالأخبار التي تتعلق بالأدباء أنفسهم . وحدث أن جلا الأدباء في أوله عن المصريين — البصرة والكوفة — للأحداث التي نزلت بهما من الزنج والقرامطة ، إلى بغداد التي استبحر فيها العمران ، وكانت الكتب المترجمة عن الأدب الفارسي وغيره قد أنارت للناس سبل التأليف ، فتغيرت بذلك كله وجهة الأدب ؛ وظهر هذا التغير في أمور .

منها في المأثور تجاوز الرواية إلى التدبر في المروى بما يحل معناه تحليلاً ينتهى بحكمة أو عظة ، ومنها في الخبر جمع أشتات الأخبار على اختلافها مع ترتيبها أبواباً في كل باب طائفة ، ومنها في غير ذلك الميل إلى تدوين الحكم وأخبار الحكماء ومنافع العدل ، وسير العادلين ، والحث على الاقتداء بهم ، ولعل الدافع إلى هذا الميل كان ظهور فساد الحكم في هذا العصر عصر الخدم الأتراك وتوالى ظلمهم ، حتى على الخلفاء ، فاصطبغت كتب الأدب بهذه الألوان وغيرها مما توخاه الأدباء في التصنيف ، فالجاحظ — وهو إمامهم ، وفتح الفتح في هذا اللون من التأليف — له كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء ، وكتاب أخلاق الملوك وكتاب تنبيه الملوك ، وكتاب سحر البيان ، وكتاب التاج ، وكتاب طبقات المغنين وكتاب العرافة والزجر عند العرب ، وكتاب الفراسة عند الفرس ، إلى غير ذلك من الكتب الممتعة التي تجاوزت الثمانين ، سوى الرسائل الكثيرة المتنوعة في شتى الموضوعات الطريفة . وابن قتيبة — وهو المقفى للجاحظ في هذا الباب — له من هذا اللون كتاب عيون الأخبار في عشرة أجزاء ، وكتاب أدب الكاتب ، وكتاب الشعر والشعراء ، وكتاب المعارف ، وكتاب الإمامة والسياسة في التاريخ العام ،

وكتاب الشراب والأشربة . وكتاب التسوية بين العرب والعجم . وكتاب تفضيل العرب وهكذا .

وقدامة بن جعفر — ذو الفتح المبين في النقد المنطقي — له في ذلك كتابا : نقد النثر ، ونقد الشعر . إلى غير هؤلاء من أدباء هذا العصر المؤلفين وانهم لكثير .

٣ — ولما حل العصر العباسي الثالث جاء على الأدب وتاريخه خيراً وبركة ، وظهر ذلك جلياً في ناحيتين هامتين من الأدب ، هما النقد والقصة .

فأما النقد : فقد انتشرت روحه وتعددت موضوعاته ، بعد أن فتحه في العصر الثاني قدامة بكتاييه المذكورين . فكان في أدبائه من انتقد الرواية والأخبار ، كابن الفرج في كتابه الأغاني أضحم كتب الألب ، وأحفلها بمواده ، وأجمعها لتراجم الشعراء والمغنيين . وكان منهم من انتقد الشعراء كحسين بن بشر الآمدي . المتوفى سنة ٣٧١ في كتابه — الموازنة بين أبي تمام البحتري — حيث لم يترك لكليهما شيئاً مما يقوله متعصب له أو عليه إلا أورده في أسلوب جدلي ممتع ونقاش حصيف . وكالصاحب بن عباد ، المتوفى سنة ٣٨٥ في كتابه — مساوى المتنبي — وقد كان شديد التحامل عليه فيه لعدم مدحه إياه حين طلب إليه ذلك على أن يشاطرة ماله . وكعبد العزيز الجرجاني ، المتوفى سنة ٣٩٢ في كتابه — الوساطة بين المتنبي وخصومه — حيث تصدى لدحض ما ذكره الصاحب وغيره من سائر الخصوم ، فانتصف للمتنبي انتصافاً مؤيداً بالحجة والبرهان . كما كان فيهم من انتقد الكلام انتقاداً مبيناً على قوانين البلاغة ، التي وضع بعض قواعدها في العصر الأول ، ونمت في الثاني ، واطرد نموها في الثالث ؛ كأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ في كتابه — الصناعتين الكتابة والشعر — فقد ملأه نقداً مؤسساً على ضوابط الفصاحة والبلاغة في الأساليب والمعاني . بل كان فيهم من طبق ذلك كله على كبار الكتاب ، ونوابغ الشعراء . كالثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ في كتابه — يتيمة الدهر — وفي كثير من كتبه الأخرى ، المعروف منها نحو الأربعين ، كالأعجاز والإيجاز ، وخاص الخاص ، وثر النظم ، وحل العقد ، وشمس الأدب في استعمال العرب ، والكناية ، والتعريض ، والنهائية

في الكناية ، وأجناس التجنيس ، وسحر البلاغة ، وغرر البلاغة ، إلى غير ذلك .
وأما القصة - التي أحيائها في العصر الأول ابن المقفع بترجمته كتاب كلیلة ودمنة ،
ونماها بعده في نفس العصر من اقتفوا أثره في ترجمة هذا الكتاب ، كعبد الله بن
هلال الأهوازي الذي ترجمه ليحيى بن خالد في خلافة المهدي ، أو في نظمه كابان بن
عبد الحميد اللاحقي الذي نظم له هذا أيضاً ، ثم زادها تنمية من جاءوا من
محبى القصص في العصر الثاني ، كالجاحظ في كتابه البخلاء وغيره - فقد كان
العصر العباسي الثالث ناهضاً بها مرقياً لها ، إذ فيه بدأت ترجمة ألف ليلة وليلة
لمترجمه الأول المجهول ، الذي تبعه في الزيادة عليه بالوضع فيه قصاصون آخرون
كثيرون . وفيه وضعت القصة الحماسية كقصصة البراق الفارس الربيعي المعروف
المأخوذة من كتاب الجهرة لعمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ في حروب ربيعة ،
وكذا القصة الغزلية العذرية كقصصة جميل العذري مع صاحبه بثينة .

٤ — ولما جاء العصر الرابع اطررد رقى النقد والقصة .

فأما النقد : فكان من أصحه وأمتعته في هذا العصر ، ماوقع لعبد القاهر الجرجاني
في كتابيه الخالدين - دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة - وكان من طريفه وأمتعته
ما جاء للموصلی في كتابه - المثل السائر في أدب الكاتب الشاعر - الذي أجاد فيه
نقد الألفاظ والمعاني ، عاتباً على أهل عصره تنسكبيهم طريق الأدب الحق ، وراسماً لهم
المهيب الذي ينبغي أن يكون .

وأما القصة : فقد جاء منها فيه ، كتاب - أسرار العرب والعجم - لأبي عبد الله محمد
ابن عبدوس الجهشيارى ، الذي جمع فيه ألف سمر ، كل سمر قائم بذاته لا يعلق به
غيره في أربعمائة وثمانين ليلة . وقصة عنتر الحماسية التي وضعها للعزیز الفاطمی
الشيخ يوسف بن إسماعيل . وكذا القصة الغزلية الاباحية كقصصة عمر بن أبی ربيعة
مع عشيقاته الكثيرات .

على أن القصص الغرامية نمت في هذا العصر نمواً كبيراً ، وتنوعت تنوعاً أكبر .
فقد ألفت أيامه قصص في مغرمات النساء ، لتقابل القصص الموضوعية لمغرمى الرجال .

بل ألفت قصص للغرام بين الانس والجن ، كان المحب فيها الرجل أو المرأة ، من هؤلاء تارة ومن هؤلاء أخرى .

وقد عالج العرب في هذا العصر نوعاً من القصص غير ما أسلفنا ، رموا فيه إلى عرض نظرية علمية ، أو فكرة فلسفية ، هو القصص العلمي أو الفلسفى .

فمن الأول : كتاب - الانسان والحيوان - لآخوان الصفا من علماء القرن الرابع ، وهو مناظرات بين الانسان والحيوان ، تقرر مسائل علمية كثيرة .

ومن الثاني : رسالة - حي بن يقظان - للفيلسوف محمد بن عبد الملك بن الطيفل المتوفى سنة ٥٨١ وفيه شرح بأسلوب قصصى ، إنسان الفطرة أو ابن الطبيعة ، ووفق إلى نظريات فلسفية ذات قيمة فى تطورات هذا الانسان .

ولكن هذين الكتابين وإن ضما إلى سمو الفكرة جودة العبارة ليسا جديرين أن يحمل اسم القصص ، لتغلب العلم والفلسفه عليه .

هذا على أن بعض شخصيات الأدباء الفلاسفة من العرب ، أمكنهم أن يغلبوا الصبغة القصصية على الصبغتين العلمية والفلسفية فى بعض قصصهم ، كأبى العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ فى قصته الخالدة - رسالة الغفران - تلك الرسالة التى لمكاتها فى عالم القصة ، نسج علي منوالها دانتي شاعر الطليان فى قصته « الرواية الالهية » بعده بثلاثة قرون ، والشاعر الانجليزى ملتن فى روايته « الفردوس المفقود » بعده بستة قرون .

وأخيرا لا يفوتنا أن نذكر للعرب لوناً آخر من القصة ، تغلبت فيه الناحية اللغوية الصناعية على النزعة القصصية ، هو المقامات التى كان بطلها فى العصر الثالث بديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٧ ، وفى العصر الرابع الحريرى المتوفى سنة ٥١٦

وبعد فما تقدم فى تدوين الأدب ، تعرف النواحي التى مست منه تاريخ الأدب فى تالكم العصور ، على أنه كما قلنا آنفاً لم يستكمل ناحية التاريخ الأدبى إلا فى عصرنا الحديث ، ولكن على شئ من النقص البادى فى كتاب - المواهب الفتحية - للشيخ حمزة فتح الله ،

وعلى شيء من الكمال المقبول في كتاب - تاريخ أدب اللغة العربية - للاستاذ حسن توفيق ، الذي عبد الطريق بحق فسلكه من بعده السالكون أمثال العلامة جورجى زيدان في كتابه - تاريخ أدب اللغة العربية - والأستاذين أحمد الاسكندري ومصطفى عنانى ، في كتابهما - الوسيط - ومن بعد هذين سار الكثير من المؤلفين كصادق الرافعى ، وحسن الزيات ، ومحمدهاشم ، ومحمود مصطفى ، وكاتب هذه السطور « السباعى ييوى »

على أنا لا زلنا فى تاريخ أدبنا بادئين ، ولا زالت الطريق فى تدوينه ذات حاجة إلى تأصيل أصول وتفريع فروع ، تقتضى من العاملين التضامن فى الجهود والدأب فى النشاط، حتى نصل به القمة بعون الله مسدد خطا السالكين ، وبه التوفيق .

العرب

موطنها - أصلها وأقسامها ومشهورات قبائلها - أيامها الكبرى -

أثر الايام في اللغة والادب

أولا - موطنها

موطن العرب الذي منه درجوا فانتشروا في الأرض بعد الاسلام ، هو تلك الجزيرة المنسوبة اليهم في الجنوب الغربي من آسيا ، وهي جزيرة متسعة الأرجاء مترامية الأطراف ، يتصل بها من الغرب بحر القلزم المعروف بالبحر الأحمر ، ومن الشرق بحر فارس وعمان ، ومن الجنوب بحر الهند ، وتضرب شمالا إلى الشام والعراق فيدخل فيها جزء من كلتا باديتيهما ، وقدعد بعضهم منها أرض الجزيرة بين دجلة والفرات لسكنى العرب إياها قديما .

وهي تنقسم أربعة أقسام : الحجاز واليمن ومع كل تهامته ، ثم العروص ونجد . ويكاد يكون ذلك التقسيم طبيعيا ، فان الحجاز وهو سلسلة جبالها العظيمة يمتد في الغرب منها على مقربة من البحر الأحمر من الجنوب إلى الشمال ، بين أرض منخفضة غربية هي الهائم ، وأخرى مرتفعة شرقية هي النجد ، وفي نحو الثلث من تلك السلسلة جنوبا تتفرع جبال تثليث قليلا إلى الشمال الشرقي ، فما إلى الشمال منها ، الحجاز وتهامته ، وما إلى الجنوب ، اليمن وتهامته ، غير أن اليمن تمتد على ساحل بحر الهند جنوبا إلى بحر عمان شرقا . ثم ما إلى الشرق من الحجاز ، تمتد نجد إلى بحر فارس وبادية العراق شرقا ، وإلى بادية الشام شمالا . أما الأرض المعترضة بين اليمن جنوبا ، ونجد غربا وشمالا ، وبحر فارس شرقا ، فهي العروص ، لاعتراضها بين كل هذه الاقسام ما عدا الحجاز الذي ينفصل عنها بجزء من نجد يمتد من جنوب جبال سلمى إلى شرق جبال تثليث .

وهذى كلمة عن كل قسم تنتظم حاله الطبيعية ، وما كان عليه سياسياً
قبل الاسلام .

١- الحجاز

إقليم طيب الهواء ليس به - كسائر بلاد العرب - نهر يجرى ، ولكن فيه العيون
المتفجرة من الجبال ، المعتضة بالسيول والامطار ، الممتدة من واد إلى واد ، وعليها
قراهم ونباتهم من حبوب وخضر وفواكه ورياحين . ومن حيوانه الخيل الجيدة
والابل والضأن والمعز ، ومن وحوشه بقر الوحش وحمره والغزلان والظباء والذئاب
والضباع والثعالب والفهود والثمر والاسود . أما طيوره فمنها الدجاج والحمام والرخم
والنعام والحدأ والبوم والغربان .

وللحجاز حاضرتان ، المدينة المنورة به ، ومكة المكرمة بتهامته .

فمكة بالميم والباء - ومن أسمائها أم القرى والبلد الامين وبها جميعا نطق
القرآن الكريم ، وتسمى كذلك صلاح وقد ورد هذا كثيرا في الإشعار ولا سيما في
القديم - واقعة في بطن واد تحف به من جميع جهاته الجبال ، فأبو قبيس من الجنوب
والشرق ، وحراء من الشرق والشمال وبه الغار الذي كان يتعبد فيه رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، وقيعان من الشمال والغرب ، وثور من الغرب والجنوب . وأول ما
كانت سكنى مكة كانت لعاد ، ثم خلفهم عليها العالقة ، ولما عظم أمر قحطان نزلها ابنه
جرهم وإليه تنسب جرهم الثانية لا جرهم عاد ، فلم يزل أمر مكة بيدها حتى رفع إبراهيم
القواعد من البيت وإسماعيل ، وفي جرهم أصهر إسماعيل وبقي هناك فملكوه عليهم
وانتقل الامر من بعده الى ابنه نابت ، ولكن جرهم أخذته ثانية ، ومنها انتقل إلى
خزاعة من الازد من قحطان أيضا فلم تنزل فيهم مفاتيح البيت يقومون بسداته حتى
أعاده إلى ذرية إسماعيل قصي بن كلاب ، ثم أنشأ قصي دار الندوة بمكة فكانت
محل تشاور قريش وكان إليه أمرهم حتى مات فانتقلت الرياسة إلى ابنه عبد مناف ،
ولكن بقيت سدانة البيت مع ابنه عبد الدار ، قيل لانه هو الذي انطلق بمفاتيحه
ففتحها لقريش حين أخذها أبوه من خزاعة . ومن عبد مناف انتقلت الرياسة إلى

هاشم بن عبد مناف ، فالى عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فتح مكة بعد الاسلام فاتمته اليه رياسة القديم والحديث . ومما يذكر هنا إقراره صلى الله عليه وسلم بنى عبد الدار على سداثة البيت كما كانت لهم من قبل .

هذا وقد أكسب مكة وضع البيت بها منذ عهد إبراهيم لدى العرب عامسة ، حرمة دونها كل حرمة ، وتقديسا ما أوغله فى القلوب من تقديس ، فكان الملوك من حمير وكندة ولحم وغسان يحجون اليها ويدينون لقريش بها ، ويكفى من تعظيمهم إياها أن جعلوا حولها شقة حراما يحرم صيدها وقطع نباتها . ومما ضاعف فى عظمتها وفى حرمة البيت بها ، ما فعل الله بأصحاب الفيل حين جاء أبرهة يقودهم يريد هدم الكعبة ، وصرف العرب عنها إلى حج القليس باليمن — وهى كنيسة ابتناها بصنعاء وبالغ فى تجميلها — إذ أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول . ثم زادت تلك العظمة قدسا وجلالا بمجيء الإسلام معظما أمر هذا البيت ، وجاعلا الحج اليه فريضة على كل مسلم ومسلمة استطاعا اليه سبيلا .

والمدينة هى الحاضرة الثانية ، وقد غلب عليها هذا الاسم واسمها القديم يثرب وبهها نطق القرآن الكريم ، وقد سماها الله تعالى الدار فى قوله (والذين تبوءوا الدار والايمان) وسماها النبي صلى الله عليه وسلم طيبة وطابة من حسن الرائحة أو تمام النقاء ، وهى تقع فى مستو من الأرض ، شماله جبل أحد ، وجنوبه جبل عير ، وشرقه البقيع ، وغربه العقيق . وهى قديمة العمارية كمكة ، قيل أول من نزلها يثرب ابن عييل من العالقة وبه سميت ، ثم خلف العالقة عليها قوم من بنى اسرائيل نزحوا اليها على عهد موسى بن عمران ، ومازالوا بها حتى كان سيل العرم باليمن وتفرق من أهله كثير ، كان منهم الأوس والخزرج الذين امتلكوها على بنى اسرائيل ، فلم تزل ييدهم حتى هاجر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكما شرف الله مكة ببقاء الحج الى البيت بعد الاسلام ، شرف المدينة بشواء جثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ومعه كثير من جلة الصحابة والانصار .

هذا وبالحجاز غير حاضريه من المدن والقرى والأودية كثير .
منها الطائف فى بطن من جبل غزوان شرق مكة ، وهى شديدة البرودة كثيرة الفاكهة ،

وأهلها من ثقيف وقيل ثقيف من بقايا ثمود وبهذا كان يعبر الثقفيون ، وكان الحجاج من الذين يدفعون ذلك ، وهى إحدى القريتين المذكورتين فى قوله تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) فالقريتان مكة والطائف والرجلان الوليد بن المغيرة من مكة وعروة بن مسعود من الطائف . وبين مكة والطائف واد كثير النخل هو عكاظ ، وبه كانت تقوم سوق العرب الكلامية كما سيأتى بعد

ومنها جدة فرضة مكة على ساحل بحر القلزم ميناء عظيمة كانت تنتهى إليها المراكب من مصر واليمن ، وهى ميقات من قطع البحر من جهة عيذاب ، التى خلفتها القصير .

ومنها خير إلى الشمال الشرقى من المدينة ، وهى مدينة قديمة ذات حصون كانت لبني عنيزة من اليهود قبل الاسلام - والخير فى لغتهم الحصن - ولبنى قريظة والنضير بعده ، وهى معروفة برداء الهواء وكثرة الوباء وبحماها يضرب المثل قال الشاعر

وقفت بها أبكى وأشعر سخنة كما اعتاد محموما بخير صالب

وكانت كثيرة النخل يحمل ثمرها إلى الجهات القصوى وفى ذلك يقول الشاعر :

فانك واستبضاعك الشعر نحونا كمستبضع تمرأ إلى أرض خيرا

وعلى مقربة من خير إلى الشمال الغربى وادى القرى ، وبه الحجر نزل ثمود فى القديم . وبين خير والمدينة قرية فذك .

وفرضة المدينة «الجار» ومقامها تقوم «ينبع» الآن . وعلى مقربة منها إلى الجنوب الشرقى ماء بدر الذى تنسب إليه الغزوة الكبرى بعد الاسلام .

٢ - اليمن

اليمن إقليم متسع النواحي كثير الخيرات تسمى أرضه الخضراء لكثرة مزارعها ونخيلها وأشجارها ، يخرج من الحبوب والفاكهة ما تخرج المنطقتان المعتدلة والحارة ، وحيوانه حيوان الحجاز يزيد فى أهليه البقر والبغال والحمر وفى بربه الزراف والقردة ، فضلا على ما بأرضه من المعادن الكثيرة المتنوعة .

وهو ينقسم بضعة أقسام . فاليمين الأصلية على امتداد الحجاز جنوبا جبالا وتهاثم ، وإلى شمالها الشرقي نجران ، كما إلى جنوبها الغربي حضرموت الممتدة طويلا على ساحل بحر الهند ، وعلى هذا الساحل يمتد الشجر فمهرة فظفار ثم عمان المتصلة بساحلي عمان وفارس . وفيما بين هذه الأقسام كلها غربا وجنوبا وشرقا وبين العروض شمالا ، توجد صحراء الأحقاف المعروفة بالربع الخالي ، وبها كان أصل منازل عاد ولا يعرف عنها الآن سوى القليل .

وقد شهدت اليمن حضارة قديمة تضارع في جلالها وعظمتها أقدم الحضارات ، وأول ما عرف فيها الملك للعرب كان لعاد وهذه هي الطبقة العادية ، وخلفها القحطانيون وعظم ملكهم في الحميريين والتابعة من بعدهم ومنهم بلقيس ، ولم يزل ملكهم في سلطان وعتاد حتى جاء السيل فتفرق كثير من شعوبهم في سائر أنحاء الجزيرة وضعف أمر من بقي منهم باليمن ، ومن ثم تمكنت الحبشة من امتلاكها ثم الفرس من بعدها وبها كانوا إلى الاسلام .

واليمن (شأن كل بلاد كثيرة الخيرات قديمة العمران) ملأى بالمدن التاريخية ذات الحصون المنيعة والقصور المنيفة والآثار التي تشهد على رقي عادي له في التاريخ مقام كبير ، وقد بدأت المكشوفات الحديثة تخبر عما هو هنالك دفين .

فحاضرتها صنعاء في جنوب اليمن الأصلية ، وهي من أحسن البلاد سكنا وأطيبها هواء تكاد تحاكي دمشق في كثرة مياهها وأشجارها ، وبظاهرها قصر غمدان الكثير ذكره في الأشعار .

ومن مدنها مأرب إلى الجنوب الشرقي من صنعاء ، وكانت من أجمل بلاد اليمن حسن تربة ولطف هواء ، وهي الموصوفة في القرآن بالبلدة الطيبة وتسمى أيضا سبأ نسبة إلى بانيها ، وبنو سبأ هذا هم الذين أخبر القرآن أن كان لسكنهم فيها آية جنتان عن يمين وشمال ، فأعرضوا فأرسل الله عليهم سيل العرم وبدهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل .

ومنها عدن وهي فرضتها على ساحل البحر المحيط ، وكانت أعظم المراسي ومحط التجار من عامة الأقطار « الحجاز والحبشة والسند والهند وجزائر المحيط والصين »

٣ - العروض

والعروض على ما تقدم من موقعها تنقسم قسمين ، داخلي هو اليمامة وساحلي هو البحرين . فاليمامة أكثر بلاد العرب نخيلاً ، ومنها في القديم زرقاء اليمامة المضروب بها المثل في حدة البصر ، وفي الحديث مسيلة الكذاب وقصبتها اليمامة . والبحرين كثيرة النخل كذلك وفيها غيره الحب والفاكهة ، ومن مدنها الداخلية هجر المضروب بها المثل في تصدير التمر ومن الساحلية القطيف .

وكانت اليمامة في القديم لجديس وطسم ، والبحرين لعاد ، وجاء من بعدهم في الاثنتين القحطانيون ومن كان بعدهم على اليمن إلى أن جاء الاسلام ، إلا أن اليمامة وحدها آخر عهد الفرس كانت لبني حنيفة وآخرهم هوزة بن علي الذي كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم كما كتب إلى الملوك

٤ - نجد

أما نجد فكالحجاز نباتا وحيوانا إلا ، أنها أحسن أرض في جزيرة العرب هواء وأطيبها شمياً ، ولذلك انبري الشعراء قديماً وحديثاً يلهجون بذكراها ويترنمون بريا عطرها وشذاها ، قال الشاعر :

أقول لصاحبي والعيس تهوى بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد وريا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحى نجداً وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا بانصاف لمن ولا سرار

وهي تنقسم قسمين : نجد السافلة وهي ماوليت العراق وبها صحراء الدهناء ونجد العالية وهي ماوى الحجاز وفيها أجأ وسلمى جبلا طيء الوارد ذكرهما في كثير من الأشعار ، ومنها أرض العالية التي كان يحميها كليب التغلبي ومن أجلها قتل فنشبت

حرب البسوس من بعده أعواماً طويلة بين بكر وتغلب ابني وائل .
هذا ولا تعلم لنجد سكنى في القديم قبل ولد عدنان ومن خالطهم من القحطانيين
بعد السيل .

مدن البوادي

ومن المدن العربية ببادية الشام تيماء بالغرب منها ، وكانت حاضرة طيء وبها الأبلق
الفرد حصن السموءل بن عاديا ، ثم دومة الجندل بالوسط وكانت لبني كلب وفيها كان
التحكيم بين علي ومعاوية .

ومنها ببادية العراق الحيرة مقام الملوك اللخمين وفيها قصر الخورنق والسدير
المعروفان ، ثم الأنبار وكان الأكسرة يدخرون بها الحبوب كيلا تسوس .
ومنها بالجزيرة ديار بكر وديار ربيعة وديار مضر ، والثلاث نسبة إلى من سكنها
من أبناء هؤلاء ، على أنهم سكنوا معها غيرها هناك كالموصل ونصيبين كما نرح إلى
الجزيرة غيرهم من القبائل الأخرى كالطائيين .

هذا ومما كان يدور على ألسنة الشعراء كثيراً ذكر الدارات والبرق كدارة جلجل
وبرقة شهمد ، يقصدون بالأولى كل أرض مستديرة بين جبال تكون ذات سهولة
وبياض ، وبالثانية ما كان فيها غلظ وبريق من حجارة ورمال تختلطان بالطين . وقد
ذكر صاحب القاموس أن البرق تنيف على المائة وعددها منسوبة إلى ما أضيفت إليه
مرتباً على الحروف ، كما ذكر أن الدارات تنيف على المائة والعشر وذكرها بعد أن قال
رحمه الله ، إنها لم تجتمع لغيره مع بحثهم وتنقيحهم ، فجاءه الله خيراً .

ثانياً — أصلها وأقسامها ومشهورات قبائلها

العرب ذلكم الجيل من الناس الذين كان لسانهم العربية وكانت سكنائهم تلك
الجزيرة المنسوبة إليهم ، ميان في ذلك الحضر سكان المدن ، والبدو الرحل الذين
اختصوا باسم الأعراب ، فأطلق اسم العرب لذلك على الحضر أو كاد .

والعرب أمة سامية ترجع في أصل نسبها إلى سام بن نوح عليه السلام ، وقد اعتاد المؤرخون تقسيمها قسمين ، عربا بائدة ، وهم الذين بادت ذرايرهم وانقرضت تفاصيل أخبارهم قبل مجيء الاسلام بقرون ، وأخرى باقية وهم الذين جاء الاسلام والجزيرة العربية تعج بأبنائهم وتضيق عن أخبارهم .

١ — فالعرب البائدة — وقد يقال لهم العاربة أو العرباء — يرجعون عن قرب إلى إرم بن سام ، والمشهور من قبائلهم : عاد بن عوص بن إرم ، وثمود بن جاثر بن إرم ، وعبد ضخم وجديس ابنا إرم ، وطسم وعمليق ابنا لاوذ بن إرم .

١ — فعاد كانت منازلهم الأولى بالأحقاف ، وهم الذين بعث الله إليهم نبيه هوداً عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالريح العقيم سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، كما أخبر القرآن ، وكانوا قد بلغوا من القوة واتخاذ المصانع للخلود مبلغاً عظيماً ، ولذلك يقال للشئ يكون قديماً وعظيماً : عادي ، نسبة إليهم .

٢ — وثمود كانت منازلهم الحجر بوادي القرى وقد بعث الله إليهم نبيه صالحاً عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جامئين ، كما جاء القرآن بذلك أيضاً ، ولم يكونوا أقل من عاد قوة وعتاداً ، فقد جابوا الصخر بالواد وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً فارهين .

٣ — وعبد ضخم كانوا يسكنون الطائف فهلکوا فيمن هلك ، ويقال إنهم أول من وضعوا الخط العربي ، كما يقال إنهم يرجعون إلى ثمود . ولذلك قد تنسب ثقيف بالطائف إلى بقايا ثمود التي كانت بعيدة عن مهلكهم كما سبق .

٥٤ — وجديس وطسم — ويقال إنهما من عاد — كانت منازلهم باليمامة فأباد بعضهم بضعاً بالحرب في أخبار طويلة يذكرها القصاصون ليست محل ثقة واعتقاد .

٦ — وعمليق كانت أمة عظيمة يضرب بها المثل في الطول ، وتفرقت منها شعوب سكنت عمان والبحرين والحجاز والعراق والجزيرة والشام ومصر ، ومنهم بالأخيرة فراعنة الرعاة ، وقد بادوا جميعاً أو اختفت شخصياتهم في أمم غيرهم .

هذا ومن القبائل التي تنسب إلى البائدة أيضاً . جرهم الأولى تميزاً لها عن جرهم الثانية الآتية ، وقد يكون التمييز بأن يقال جرهم عاد وجرهم قحطان . وكذلك أميم

وجاسم ووباربل ومدين أبناء مدين بن ابراهيم على بعض الأقوال وهو ضعيف .

ب — والعرب الباقية قسبان . قحطانيون ويقال لهم المتعربة أو المستعربة عند من
وسم البائدة بالعاربة والعرباء كما يقال لهم العاربة أو العرباء عند من قصر على تلك
لفظ البائدة . وهم منسوبون إلى قحطان بن عابر بن شالخ بن أرخشذ بن سام .
وعدنانيون ويقال لهم المتعربة أو المستعربة كالقحطانيين كما يقال لهم المستعربة فقط
عند من خص القحطانيين بالمتعربة ، وهم منسوبون إلى عدنان بن أد بن مقوم بن
ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل — من امرأته الجرهمية — ابن
إبراهيم عليهما السلام . وأبو إبراهيم آزر أو تارح بن أرغو بن فالغ بن عابر بن
شالخ بن أرخشذ بن سام . وليس إلى النسب فيما خلف عدنان طريق صحيح ، إنما
المجمع عليه أن إسماعيل ابن إبراهيم وإبراهيم يرجع إلى سام ، فهذان الشعبان الباقيان
ساميان كالشعب البائد ، وإذا تكون الأمة العربية جمعاء سامية من غير ماخلاف
فيلتقى العدنانيون بالقحطانيين في عابر والقحطانيون بالبائدة في سام .

القحطانيون

ولد قحطان يعرب وجرهم ، فانتقل جرهم إلى الحجاز ، ولما جاء إسماعيل مكة
تزوج من جرهم وخالطه بنوه بها واستوطنوها معه وهم جرهم الثانية ، وبقي يعرب
باليمن فولد يشجب ، وولد يشجب سبأ وأنجب سبأ في اثنين ، حمير وكهلان وإليهما
ترجع جميع قبائل اليمن .

فالي حمير ترجع قضاة ، والمشهور من أحيائها سبعة : جرم ونهد وبقيتا باليمن
وعذرة بجنوب الحجاز ، وجهينة وبلى شماله بالترتيب ، وبهراء شمالهما فيه . وعلى
شاطئ الفرات ، ثم كلب بدومة الجندل . وتبوك وأطراف الشام . وإلى عذرة ينسب
العشق والتيم ، ومما يحكى في هذا أنه قيل لرجل منهم ما بال عشق يقتلكم يا بني
عذرة؟ فقال لأن فينا عفة وجمالا ، وقيل لآخر منهم : ما بال الرجل منكم يموت في هوى
امرأة إنما ذلك ضعف فيكم يا بني عذرة . فقال أما والله لو رأيتم النواظر الدعج تحتها
المباسم الفلج فوقها الحواجب الزج لاتخذتموها اللات والعزى

وذكر بعض النسابة أن قضاة من العدنانية والصحيح ماتقدم ، قضاة واسمه عمرو هو ابن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير ، ولعل ذلك شبه عليهم من أن أم قضاة مات عنها مالك وهي حامل فيه فتزوجها معد بن عدنان فولدت قضاة على فراشه فتبناه فنسب إليه ، ثم زحل قضاة إلى اليمن فكان له ملك بالشحر ويقال إن له قبرا معروفا بجبل هناك .

وإلى كهلان ترجع شعوب كثيرة كانوا يتداولون الملك وبنى حمير باليمن ، ثم انقرت بنو حمير به ، وبقيت بطون كهلان علي كثرتها تحت إمرتهم ، إلى أن تقاصر ملك حمير فكانت الرياسة بالبادية لبنى كهلان . وأشهر أحياء كهلان أحد عشر .

(١) طيء وهم أكثر أحياء اليمن بطونا فالهم يرجع خمسة عشر بطنا ، نزح منهم كثير إلى الحجاز ونجد فغلبوا بنى أسد علي أجاً وسلمى فعرفا بجبلي طيء ، وخرج بنو أسد إلى الشرق من ذلك ، وإلى بولان أحد بطون طيء ينسب الرجال الذين قيل فيهم إنهم أول من كتبوا بالخط العربي بعد العرب الأولى .

(٢) الأزد وهم بطون كثيرة باليمن وعمان ، ومنهم خزاعة بمكة ، والاوز والحزرج بالمدينة ، والغسانيون آل جفنة بالشام .

(٣) لحم ومنهم المناذرة ملوك الحيرة بالعراق .

(٤) كندة وكان لهم ملك قديم بخضرموت ، وآخر بعده بنجد ودومة ، وكان آخر ملوكها حجر والد امرئ القيس .

(٥) عاملة بشمال الشام .

(٦—١١) ثم مذحج وهمدان ومراد وجذام وأشعر وأنمار ، ولم تعرف لبطونهم في القديم خارج اليمن ديار .

وبعض النسابين يقولون إن أنمار اليمن أولاد أنمار بن نزار العدناني ولكنهم أقاموا بها فنسبوا إليها . والصحيح أنهم من اليمن ، وجاء اللبس من أنه كان لأنمار بن نزار بنت زوجها من أراش بن عمرو الكهلاني فولدت له ولدا أسماه علي اسم جده لأمه ، فأنمار اليمن إذن هم بنو أنمار بن أراش ، وأنمار الحجاز بنو أنمار بن نزار ، على أنه قيل إن أنمار بن نزار لاعتقب له إلا هذه البنت ، والأنمار في قحطان دون عدنان وفي هذا وجاهة .

العدنانيون

ولد عدنان معدا ، وولد معد نزارا ، وأنجب نزار في أثمار وإياد وربيعة ومضر .
(١) فأثمار سبق القول فيه والراجح أنه لم يعقب إلا في تلك البنت التي زوجها من أراش الكهلاني كما سبق . وأثمار ليعن دون الحجاز .

(٢) وإياد فارق الحجاز وسار بأهله إلى أطراف العراق وبها أقام ، ولم يزل النسب راجعا إليه في كل بنيه إذ لم يصلوا إلى كثرة علي تطاول الأيام .

(٣) وربيعة أعقب في ضيعة بالحجاز ولم تكثر بطونها ، وفي أسد ربيعة وفيها كثرة فمنها عنزة بخير ، وجديلة ، ومن جديلة عبد القيس بهامة نجد والبحرين والنمر بالجزيرة ، ووائل ومن وائل تغلب بالبحرين ونجد والحجاز والشام ، وبكر ومن بكر بنو حنيقة وبنو عجل باليامة وبنو شيخان بالبحرين ومنهم سدوس .

(٤) ومضر أعقب في قيس عيلان والياس .

ومن قيس عيلان جاءت الكثرة التي لم تبين معها بطون ربيعة فغلبت قيس على سائر العدنانية حتى قيل قيس ويمن ، فمنها عدوان بالطائف ، وسليم بعالية نجد قرب خير ، ومازن وباهلة باليامة ، وغطفان بين جبلي طيء ووادي القرى إلى المدينة ، ومن غطفان أشجع وعبس وذيان ومن ذيان فزارة ومن فزارة بدر ومازن الثانية ، ثم من قيس أيضا هوازان وهي أكثرها بطونا ، فمنها ثقيف على الأصح بالطائف ، وبنو سعد بالحجاز ، وبنو جشم بالسروات وهي تلال تفضل بين نجد وتهامته من البحرين إلى الشام ، ثم بنو عامر باليامة والبحرين ونجد والحجاز والشام والجزيرة ، ومنهم على التسلسل بنو كلاب فبنو هلال فبنو نمر فبنو عقيل .

أما إلياس فإليه يرجع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أعقب في قعدة وطابخة ومدركة .

فقعدة لم يشتهر عقبه ، وطابخة منه مزينة بشمال الحجاز وضبة بشمال نجد وبالعراق وتميم بشرق نجد وشمالها ، ومن تميم العنبر وحنظلة ومن حنظلة يربوع ومن يربوع

العبر الثانية . أما مدركة فنه هذيل بالطائف وخزيمة ومنها الهون بين مكة والمدينة ومن الهون عضد والديش المعروفان بالقارة وكانوا رماة ، ومن خزيمة أيضا أسبد وفيها كاهل ودودان وكانو بأجاً وسلمى إلى أن أجلتهم عنها إلى الشرق طي . كما سبق ، ثم كنانة بمكة وتهامة الحجاز ومنها عامر وعمر وملك وملك وملك وعبد مناة والنضر ومن مالك فراس ومن عبد مناة غفار وبكر وليث والحارث ومدلج وضمرة ، أما النضر ، وهو قریش فابنه مالك وابن مالك فهر وأبناء فهر غالب والحارث ومحارب ، وأبناء غالب لؤى والأدرم ، وأبناء لؤى كعب وسعد وخزيمة وعامر ، وأبناء كعب مرة وعدى ، وأبناء مرة كلاب وتيم ويقظة ، وأبناء كلاب قصي وزهرة وأبناء قصي عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى . وأبناء عبد مناف هاشم ، وعبد شمس ونوفل والمطلب ، وأبناء هاشم عبد المطلب ونضلة وأسد وصيفي وأبو صيفي ، وأبناء عبد المطلب عبد الله والد رسول الله خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم والعباس والد الخلفاء العباسيين وأبو طالب والد أمير المؤمنين على بن أبي طالب أبي العلوين وحمزة وانقرض عقبه وأبو لهب والحارث أعقبا ولم يعرف عقبهما ، ثم الزبير وعبد السكبة وضرار وحجل وقثم والغيداق ولم يعقبوا .

ثالثا — أيامها الكبرى

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم تتوافر لدى أمة أسباب التناحر والتقاتل ، والتنازح والتطاحن ، بقدر ما توافرت لدى أمة العرب في جاهليتها ، وبخاصة الشعوب العدنانية منها ، فقد انتشروا في أنحاء الجزيرة العربية يطلبون لما شيتهم كلاًها ، وينتجعون لارتياح مواقع الغيث أنحاءها ، فإذا ما أحمل بقبيلة موطن ، طلبوا آخر ينتزعونه من غيرهم انتزاعاً ، بأسنة الرماح وظبات السيوف ، وما أسرع ما يهرعون إلى الغارة على عدوهم يلهبونها ، وإلى ظهور خيولهم يعتلونها ، فيكون الطعن والنزال ، والضرب والقتال ، وبكفى أن تكون غارة بين قبيلتين أسا تقوم له الحرب على قدم وساق فتبقى آمادا وآجالا يشب أوارها بين آونة وأخرى ، طلبا لثأرات أو انتقاما بمال يغصب ، وقد يستجير المطالب ، بقبيل يأبى إلا أن ينصره قياما بحق الجوار ، ويدافع

عنه كما يدافع عن نفسه ، فيغزى لذلك ويقاتل ، وتكون هناك حرب أخرى ، وغالبا ينضم فيها حليف لحليف ، على أنه لم تخل الجزيرة العربية من حروب حفز إليها الدفاع عن ملك ، أو الانتصار لمتبوع ، أو التعصب ، على عمومته أو في خصوصه . ولا نظن أن أيام العرب الكبرى إلى غير ذلك ترجع ، فطلب العيش والأخذ بالثأر وحماية الجار ومساعدة الحليف ، ثم ما قفينا به من الدفاع عن الملك ونصرة المتبوع والتعصب ، كل أولئك كان من أجله تقوم الحروب .

وإذ سبق هنا أن العدنانية كانت المسعر لهذه الحروب ، وتقدم في ذكر الأنساب أن كثرتها كانت تزر بتغلب وبكر في ربيعة ، وبهوازن وغطفان وجشم وسليم في قيس ، وبتميم في طابخة ، ثم بكنانة وقريش في مدركة . فانا سائقون لذلك أشهر حروب هذه القبائل ، مسبوقة ببعض ما كان بين نزار واليمن ، ومتلوة ببعض آخر هو ما كان بين العرب والفرس ، مع ذكر بعض ما كان لليمن خلال ذلك لمناسبه .

بين نزار واليمن

يوم الكلاب الثاني — بين مذحج وتميم . وسببه أن تميمًا نزلت الكلاب — وهو ماء بين اليمن والبحرين طوله مسيرة يوم — فعلمت مذحج فأغارت عليها فدارت الدائرة على مذحج ، وكان رئيس تميم قيس بن عاصم ، ورئيس مذحج عديغوث ، وقد أسر ، وفي أسره هذا قل قصيدته المشهورة التي يقول منها

ألا تلو مني كفى اللوم ما ييا	فما لكما في اللوم خير ولا ليا
ألم تعلم أن الملامة نفعها	قليل وما لومي أخى من سماتيا
فيا راكبا إما عرضت فبلغن	ندامى من نجران أن لا تلاقيا
جزى الله قومي بالكلاب ملامة	صريحهم والآخرين المواليا
ولو شئت نجحتى من القوم نهدة	ترى خلفها الجرد الجياد تواليا
ولكننى أحمى ذمار أيبكم	وكان الرماح يختطفن المحاميا

إلى أن قال :

أمعشرتيم قد ملكتم فأسججوا فأن إسرائى لم يكن من توانيا

وقد علمت عرسي مليكة أننى أنا الليث معدو علي وعاديا
إلى أن قال

كأننى لم أركب جواداً ولم أقل لحلى كرى نفسي عن رجاليا
ولم أسبأ الزق الردى ولم أقل لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا
وقد قالها يلوم قومه علي هزيمتهم ويعتذر لنفسه من أسره ذا كرا ما كان له قبل
من بلاء ومعددا بعض مفاخره الماضية .

ولبنى تميم مفاخر حجة بهذا اليوم الذى نادى فيه قيس وقد ولت مذحج الأدبار
يا آل تميم لا تقتلوا إلا فارسا فان الرجالة لكم ثم جعل يرتجز ويقول :
لما تولوا عسبا هواربا أقسمت لا أطعن إلا راكبا
إني وجدت الطعن فيهم صائبا

يوم خزازى — ويقال له خزاز، وهو جبل يتوسط الطريق بين مكة والبصرة ،
وهو من أقدم الأيام بين زار واليمن ، وكان رئيس زار فيه على غلبة المظن كليبا
التغلبى ، أو هو قد أبلي فيه بلاء بينا وهزمت اليمن هزيمة نكراء
وبعده خرجت زار عن سلطة اليمن ، ونفضت جباية تباعته ، بعد أن كان رسولهم
يأتى ومعه كاتب وطفنسة يجلس عليها ، فيأخذ من أموال زار ما يشاء ، وليس
معروف عن هذا اليوم شعر يعاصره ولكنه ذكر على ألسنة الشعراء بعد كعمرو بن
كلثوم التغلبى حيث يقول :

ونحن غداة أو قد فى خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا
فكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أئينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

حروب ربيعة

أهمها البسوس بين تغلب وبكر بن وائل ، وذلك أن تغلب أخذت بعد خزازى
مكانا على فى العرب ، وملك كليها فعظم شأنه وعلا علوا كبيرا ، وبلغ من كبريائه أن

صار يحمى مواقع الغيث والوحش فيقول : كلاً كذا في حماي ، ووحش كذا في جوارى
وحدث أن كانت البسوس بنت منقذ خالة جساس بن مرة عند ابن أختها هذا ،
وكانت لها ناقة رأت إبل كليب ترد فوردت معها ، فرماها كليب بسهم خرم ضرعها
فولت وهو يشخب لبنا فلما رأتها البسوس قذفت خمارها على رأسها وذهبت إلى
جساس صائحة «واذل جاراه» فأحمسه ذلك على ما كان من ظلم كليب وحسد بكر
لتغلب ؛ فذهب إلى كليب مسرعاً فطعنه فقصم صلبه ، وكان معه عمرو بن الحارث
الشيبياني ، فطعنه فقطع بطنه فوق وقع يفحص برجله . وقيل في مضرب المثل (تجاوزت شيثا
والأحص) وهما ماءان إن قاتله جساس حين قال له كليب وقد وقع أغثنى بشربة
من ماء . وفي مصداق ذلك يقول عمرو بن الأهتم

وإن كليبا كان يظلم قومه فأدركه مثل الذي تريان
فلما حشاه الرمح كف ابن عمه تذكر ظلم الأهل أى أوان
وقال لجساس أغثنى بشربة وإلا فخر من رأيت مكاني
فقال تجاوزت الأحص وماءه وبطن شيث وهو غير زؤان

فهاجت بمقتل كليب حرب البسوس التي مكثت طويلاً من الدهرين تغلب وبكر ابني
وائل ، وكان المهلهل أخو كليب المعروف بالزير — لما كان عليه من اللهو واستدامة
التحدث إلى النساء — حامل لوائها على بكر وشيبان ومن والاهما ، لا يقنعه في ذلك
مقنع ، ولا يقف في القتال عند حد . يدل على ذلك أمثال قوله

أكثر قتلى بني بكر برهم حتى بكيت وما يبكي لهم أحد
آليت بالله لا أرضى بقتلهم حتى أبهرج بكرا أينما وجدوا

وقوله

قتلوا كليبا ثم قالوا أربعوا كذبوا ورب الحل والاحرام
حتى تبید قبائل وقبيلة ويعض كل مثقف بالهام
وتقوم ربات الحدود حواسرا يمسحن عرض ذوائب الايتام

وقوله

يال بكر أنشروا لى كليبا يال بكر أين أين الفرار

ولما أسرف مهلهل في السماء وكانت لتغلب على بكر أيام كثيرة كالذنائب وعنيزة والخنو ، ثم واردات الذي قتل فيه بجير ين الحارث بن عباد أو ابن أخيه - وكان الحارث اعتزل تلك الحروب - فلما بلغه قتل بجير هذا قال نعم القليل قتيلا أصلح بين ابني وائل ، وظن أن المهلهل أدرك به ثأر كليب وجعله له كفؤا ، ف قيل له إن مهلهلا لما قتل بجيرا قال له « بؤبشع نعل كليب » فغضب الحارث وتولى أمر بكر ولم يزل يقتل تغلب حتى تفرقت وهرب المهلهل ، وفي ذلك يقول الحارث وكانت له فرس تدعى النعامه

قربا مربوط النعامه منى إن بيع الكريم بالشسع غالى
قربا مربوط النعامه منى لقحت حرب وائل عن حيال
لم أكن من جناتها علم الله وإني بحرها اليوم صالى
قرباها في مقربات عجال عابسات يشن مثل السعالى
لا يجبر أغنى قتيلا ولا رهط كليب تراجروا عن ضلال
يا بجير الخيرات لاصلح حتى نملأ اليد من رءوس الرجال

وكان اليوم الذى انتهى بتفرق تغلب وهرب مهلهل يوم قضة وهو يوم تحلاق اللحم وبه تفخر بكر . ولما هرب مهلهل انتهى إلى جنب وهم بطن من مذحج وكانت معه ابنته فخطبوها فتمنع فأجبروه وأمهروها جلودا وفي ذلك يقول متحسرا على عزه الفاتئ:

أعزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الأكرمين من جشم
أنكحها فقدھا الأراقم في جنب وكان الحباء من آدم
لو بأباين جاء يخطبها - زمل ما أنف خاطب بدم

ولمهلهل في رثاء كليب وبكائه القصائد الطويلة
منها التى يقول فيها :

أليلتنا بذى حسم أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تحورى
فان يك بالذنائب طال ليلى فقد أبكى من الليل القصير

فلو نبش القابر عن كليب لأخير بالله نائب أى زير
واني قد تركت بواردات بجيرا فى دم مثل العير
هتكت به بيوت بنى عباد وبعض القتل أشفى للصدور
على أن ليس عدلا من كليب اذا برزت مخبأة الخدور
والقى يقول فيها :

بت لى بالانعمين طويلا أرقب النجم ساهرا أن يزولا
كيف أهذا ولا يزال قتيل من بنى وائل ينسى قتيلا
لم يطيعوا أن ينزلوا ونزلنا وأخو الحرب من أطاق النزولا
قتلوا ربهم كليباً سفاهاً ثم قالوا ما إن نخاف عويلا
كذبوا والحرام والحل حق يسلب الخدر بيضه المحجولا
ويموت الجنين فى عاطف الرحم وزوي رماحنا والخيولا
والقى يقول فيها

كليب لاخير فى الدنيا ومن فيها إذ أنت خليتها فيمن يخليها
كليب أى فتى عز ومكرمة تحت السفاسف إذ يعلوك سافيا
نعى النعاة كليباً الى فقلت لهم مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها
الحزم والعزم كانا من صنيعته ما كل آلائه يا قوم أحصياها
القائد الخيل تردى فى أعنتها زهوا إذا الخيل لجت فى تعاديا
من خيل تغلب ما تلقى أسنتها الا وقد خضبوها من أعاديا
تروى الرماح بايدينا فنوردها يضا ونصدرها حمرا أعاليا
ليت السماء على من تحتها وقعت وانشقت الأرض فأنجابت بمن فيها
لا أصلح الله منا من يصالحكم ملاحت الشمس فى أعلى مجاريها

ومما يذكر من شعر العاطفة المتحيرة هنا ، شعر جائلة أخت جساس وامرأة
كليب حين قالت لها أخت كليب ، يا هذه اخرجى عن مأتمنا فانت أخت واترنا
وشقيقة قاتلنا ، وشيعتها بقولها حين خرجت « رحلة المعتدى وفراق الشامت »

فقلت جليلة : وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها ؟ أفلا تقولين « نفرة الحياء وخوف الاعتداء » ثم أنشأت تقول :

يا بنة الأقوام إن شئت فلا	تعجلي باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذي	يوجب اللوم فلومى واعذلى
إن تكن أخت امرئ ليمت على	شفق منها عليه فافعللى
جل عندي فعل جساس فيا	حسرتى عما انجلي أو ينجلي
فعل جساس على وجدى به	قاصم ظهري ومدن أجلي
يا قتيلا قوض الدهر به	سقف بيتي جميعا من عل
هدم البيت الذى استحدثته	وانثنى فى هدم بيتي الأول
يانسأى دونكن اليوم قد	خصنى الدهر برزء معضل
خصنى قتل كليب بلظى	من ورأى ولظى من أسفل
ليس من ييكى ليوميه كمن	إنما ييكى ليوم مقبل
يشتمنى المدرك بالثأر وفى	دركى ثأرى ثكل المشكل
إننى قاتلة مقتولة	ولعل الله أن يرتاح لى

بين ربيعة وغيرها

من أعرف الحروب بين ربيعة وغيرها ، ما كان بينها وبين تميم ، وذلك أن بكرا اعتادت أن تنتجع أرض تميم ترعى بها ، فاذا ما أرادت الرجوع لم تدع عورة تصيبها ولا شيئا تظفر به الا اكتسحته ، وكان ذلك منذ القديم ، فأجمعت تميم رأيها على مدافعة بكر وبهذا كانت لا تنطفئ بينهما نار حرب ، ولذلك كانت تميم تنضم إلى تغلب على بكر فى حرب البسوس ، ثم إن الغلبة أ كثر الايام كانت لتميم ، وان كانت الايام حافلة بالمفاخر لكلا الطرفين .

فمن أيام بكر على تميم يوم الزورين — وهما جلان أتت بهما تميم مقرونين

مقيدين وقالوا لانولى حتى يولى هذان- (١) فأخبرت بكر رئيسها وهو عمرو بن قيس ابن مسعود الأصم بذلك فقال ، وأنا زويركم ، إن خشوها فخشوني وإن عقروها فاعقروني ، ثم التقوا فاقتلوا قتالا شديدا انهزم فيه بنو تميم وقتل منهم أبو الرئيس النهشلي وغيره كثير ، وأخذت بكر الزورين . وفي ذلك يقول الأغلب العجلي

جاءوا بزورهم وجئنا بالأصم شيخ لنا فد كان من عهد إرم
فكر بالسيف إذا الرمح انحطم كهمة الليث إذا ما الليث هم
كانت تميم معشرا ذوى كرم مخلصه من الغلاصم العصم
قد نفخوا لو ينفخون في فحم وصبروا لو صبروا على أمم
إذ ركبت ضبة أعجاز النعم فلم تدع ساقا لها ولا قدم
ويقول رجل من بني سدوس

يا سلم إن تسألني عنا فلا كشف عند اللقاء ولسنا بالمقاريف
نحن الذين هزمنا يوم صبحنا جيش الزورين في جمع الأحاليف
ظلوا وظلنا نكر الخيل وسطهم بالشيب منا وبالرمد الغطاريف

ومن أيام تميم على بكر يوم بلقاء الحسن « والحسن جبل » وفيه قتل بسطام ابن قيس سيد بني شيان ، قتله عاصم بن غنمة الضبي فقال ابن غنمة الضبي يرثيه وكان مجاورا إذ ذاك في بني شيان وخاف أن يقتلوه

لأم الأرض ويل ما أجت بحيث أضر بالحسن السبيل
يقسم ماله فينا ويدعو إلى الصهباء إذ جنح الأصيل
فان تجزع عليه بنو أيه فقد فجعوا وحل بهم جليل
بمطعام إذا الأشوال راحت إلى الحجرات ليس لها فصيل

ومنها البيت المشهور يخاطبه فيه

(١) يقال للبعير إذا قيد زور أو زوير أخذاً من الزيار وهو الحبل الذي يزر به البيطار الدابة ، أي يربطها .

لك المربع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول

ومما يعد من حروب ربيعة - وإن كان الباعث فيه لا يعدو الدفاع عن ملك - ما كان بين شرحبيل ومسلمة ابني الحارث بن عمرو السكندی ، وكان الحارث أبوها قد ملك على بكر بن وائل برضاهم من قبل أحد التباغة ، لما تقاطعت أرحامها وغلبتها سفهاؤها ، فأحسن قيادها وغلب بها على كثير مما كان في أيدي ملوك الحيرة اللخمين وملوك الشام الغسانيين . فلما مات اختلف ابنه هذان على الملك ، فكانت بكر مع شرحبيل أكبر الأخوين ، وانضمت تغلب نكاية في بكر إلى مسلمة ، وكان يوم الكلاب الأول ، وفيه قتل شرحبيل بيد أبي حنش وكان قد قتل ابنه حنشا وبعث برأسه إلى أخيه مسلمة مع عبد ، خوف أن يرق مسلمة للرحم فدمعت عين مسلمة وقال

ألا أبلغ أبا حنش رسولا فما لك لا تجيء إلى الثواب
تعلم أن خير الناس ميتاً قتل بين أحجار الكلاب
تداعت حوله جشم بن بكر وأسلمة جعاميس الرباب

بين اللخمين والغسانيين

وعلى ذكر الدفاع عن الملك وذكر اللخمين والغسانيين نقول ، إن من الحروب العربية الكثيرة الوقائع الشديدة الأيام ، ما كان بين هذين الجذمين من اليمن ، لأن ضلع الغساسنة كان مع الروم وضلع اللخمين كان للفرس ، فسلطت كلتا الدولتين تبعها على الآخر ، ومن أشهر ما كان بينهما من أيام ، يوم حليلة ، وما يوم حليلة بسر ، ارتفع فيه من العجاج ما غطى عين الشمس حتى ظهرت الكواكب ظهراً ، وكان بين الحارث بن أبي شمر الغساني والمندر بن ماء السماء اللخمى ، وحليلة هذه ابنة الحارث ونسب اليوم إليها لأنها أخرجت لأبطال أبيها مراكبها به طيب تطيبوا منه — والمركن الإجانة —

بين الأوس والخزرج

وقل أن توجد حرب داخل الجزيرة لليمن غير ماتقدم ، إلا ما كان بين الأوس والخزرج وهو قليل ، وأشهر أيامه يوم بغاث - وهي مزرعة في ديار بني قريظة من اليهود - وكانت لهم رهائن عند الخزرج ، فغدر بها عمرو بن النعمان البياضى رئيسهم ، فأعانوا عليه حضير الكتائب رئيس الأوس ، وفيه انهزمت الخزرج ولكن أصيب حضير بجراح مات متأثراً بها ، وفي ذلك يقول خفاف بن ندبة وكان له صديقاً يرثيه

أتانى حديث فكذبته وقيل خليلك في المرس
فيا عين بكى حضير الندى حضير الكتائب والمجلس

حروب قيس

١ - بين عبس وذبيان

أهمها داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وكان سببها أن قيس بن زهير العبسي وحمل بن بدر الفزارى - وفزارة من ذبيان - تراهن على مائة بعير يأخذها من يكون له السبق ، وكان داحس فخلاً لزهير والغبراء حجراً لجل ، وكان في طرف الغاية شعاب كثيرة ، فأكمن فيها حمل فتياناً وأمرهم أن يردوا وجه داحس إذا جاء سابقاً فلما برز داحس قال قيس « جرى المذكيات غلاء » فذهبت مثلاً ، ولكن لما شارف الغاية ، وثب الفتية في وجهه فردوه عنها فسبقت الغبراء ، وامتنع قيس أن يدفع الرهان ، لما كان من عمل الفتية ، وكاد الناس يسكنون لولا أن حذيفة أخا حمل بعث ابنه مالكا إلى قيس يشدد في طلب الرهان ، فقتله قيس ، فاجتمع الناس واحتملوا ديته مائة عشاء ، ولكن حدث أن علم حذيفة بنزول مالك بن قيس بعيداً عن قومه فعدا عليه فقتله ، فقالت عبس ، مالك بمالك وردوا علينا مالنا فأبى حذيفة فقال الربيع بن زياد العبسي - وكان الندى احتمل الدية عن قيس ولم يكن في العرب مثله ومثل إخوته وكان يقال لهم الكلمة - لبئسما فعلتم بقومكم ، قبلما الدية ورضيتم بها ثم

غدرتم ردوا الدية ، فلم يسمعوا ، فنهض بعبس وحلفائها إلى فزارة وذيان ، ورئيسهما
حنيفة ، وبدأت حرب داحس التي مكثت طويلا حتى كاد ينقرض لها الطرفان ،
وأيامها دامية كثيرة . منها المريقب لعبس على فزارة ، وفيه قتل عنتره الفوارس ضمضا
المرى أبا حصين وهرم اللذين توعدا عنتره فقال فيهم من معلقته

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشامى عرضى ولم أستمهما والناذرين إذالم آلقهما دحى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

ومنها الهباءة لعبس على ذيان وفيه قتل حمل بن بدر وأخوه حنيفة ومثل بهما
فعظم على غطفان قتلهم ، وكذا سائر قتلي الهباءة ، وتجمعت على عبس ، فعرفت عبس
أن ليس لها مقام بأرض غطفان فخرجوا إلى اليمامة فزّلوا بيني حنيفة ، ثم غادروهم
إلى بني سعد فغدروا بهم ، ولم تزل الأرض لعبس نائية ، وذيان ومن تحمس لنصرتهم
من غطفان ينالون منهم حتى أصّح بينهما هرم بن سنان والحارث بن عوف المريان
وتحملا الديات ، وإلى ذلك يشير زهير وكان منقطعا إلى مدح هرم في معلقته حيث يقول

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يميناً لنعم السيدان وجدتما علي كل حال من سجيل ومبرم
تداركتما عبساً وذيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معد هديتما ومن يستبح كنزاً من المجديعظم

إلى آخر ما أفاض فى هذا الموضع . وفى قتلي الهباءة كثير من المرائى والأشعار
لما أصابت من سادة وما وقع فيها من تشف وتمثيل ، كأن يقول قيس بن زهير يرثى
أربيع بن زياد وقد قتله حمل بن بدر

تعلم أن خير الناس ميت على جفر الهباءة مايرم
ولولا ظلمه مازلت أبكى عليه الدهر ماطلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر بغى والبغى مرتعه وخيم

أظن الحلم دل على قومي وقد يستضعف الرجل الحليم
ومارمت الرجال ومارموني فمعوج على ومستقيم

٢ - بين هوازن وغطفان

ومن حروب قيس أيضا ، ما كان بين هوازن وغطفان ، وذلك أن هوازن كانت تؤدي إتاوة إلى زهير بن جذيمة العبسي ، فأتته عجوز من كلاب بسمن في نحي واعتذرت إليه وشكت سنين تتابع ، فذاقه فلم يرض طعمه ، فدعس المرأة بقوس في يده فاستلقت على قفاها منكشفة ، فتألى خالد بن جعفر الكلابي ليعلن ذراعه في عنقه حتى يقتل أحدهما ، ثم استقل زهير عن قومه بابنيه ورقاء والحارث ، فخرج خالد ومعه معاوية الأخيل جدليلي الأخيلية ، وأحس زهير فركب فرسه القعساء ولكن معاوية وخالد أدركاه فطعن معاوية القعساء فقلبت زهيرا وخر خالد فوقه فرفع المغفر عن رأسه وضربه معاوية على مفرقه ضربة بلغت الدماغ ، وانصرفا دون أن يغنى فيهما ضرب ابني زهير لكمال عدتهما وفي ذلك يقول خالد

بل كيف تكفرتني هوازن بعدما أعتقتم فتوالدوا أحرارا
وقتل ربهم زهيرا بعدما جدد الأنوف وأكثروا الأوتارا
وجعلت مهر بناتهم ودياتهم عقل الملوك هجائنا وبكارا

ثم حدث أن خالد بن جعفر هذا انتقص الحارث بن ظالم المري الديباني ، وكان رئيس غطفان بعد زهير بقوله : ألا تشكر يدي عندك أن قتلت عنك سيد قومك زهيرا وتركك سيدهم ؟ فقال ، سأشكر ، وحقد عليه وقتله منصرفهما من لدن الأسود بن المنذر أخى النعمان وكان الانتقص بمجلسه ، ثم هرب فكانت لذلك أيام بين هوازن وغطفان ، وكان للحارث في هربه هذا أخبار طويلة وأحاديث شتى ، ذات ضروب وألوان ، ثم كانت منيته على يد يزيد بن عمرو الغساني وكان جارا له فقتل في قومه وهو مستجير فعفا عنه ، ثم قتل ثانية فلم يتركه دون قصاص وقتله .

ومما كان بين هوازن وغطفان غير هذه ، أيام تلت ، بإغارة عبد الله بن الصمة الجسمي - وكان يسمى معبدا أيضا - علي غطفان يوم اللوي واستياقه سرحهم ثم لحاق

غطفان به وهو مقيم ينتقع وقتلها إياه في وقعة جرح فيها أخوه دريد صاحب القصيدة
التي يقول فيها - وكان قد نصح أخاه بعدم الإقامة فلم يسمع

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستينوا النصيح إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم وأننى غير مهتدى
وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
فان تعقب الأيام والدهر تعلموا بنى غالب أنا غضاب لمعبد
فان يك عبد الله خلى مكانه فما كان وقافا ولا طائش اليد

٣ - بين سليم وغطفان

ومن حروب قيس أيضا ما كان بين غطفان وسليم على إثر نزاع قام بعكاظ بين
معاوية بن عمرو بن الشريد السامى وهاشم بن حرملة الغطفانى ، تهيأ معاوية بعده
وغزاهما ، وتتابع ذلك أيام لم يقفها إلا إصابة صخر بطعنة اعتل بها طويلا ثم
مات ، وليس يجهل أحد ما كان للخنساء أختهما فى هذا الباب من بكاء ورثاء ،
سيأتى بعضه فى فنون الشعر بعد

بين قيس وغيرها

ولم تك الحروب فى قيس مقصورة على بطونها بل كان بينها وبين غيرها
أيام أهمها :-

١ - بين عامر وتميم

فنها ما كان بين عامر وتميم ، وسببه أن الحارث بن ظالم المرى الديباني قاتل خالد
ابن جعفر الكلابى العامرى على ما مر آنفا ، التجأ إلى معبد بن زرارة التميمى شطرا
من أيام هربه فأجاره ، وعلمت بذلك عامر فغزت بنى تميم يوم رحرحان وفيه أسر
معبد ، وأبت عامر فيه إلا دية الملوكة ، وأبى أخوه لقيط دفعها عملا بوصاة أبيهما
زرارة حتى لا تذؤب بهم ذؤبان العرب ، ومات معبد فى أسره هزالا لحبسه نفسه

عن الطعام والشراب . ثم انضمت ذبيان لتميم وغزوا عامرا وقد انضمت اليها عبس ، لما كان بين عبس وذبيان في داحس والغبراء ، فالتقى الجمعان في شعب جبلة وهو من أعظم أيام العرب ، ولكن دارت الدائرة على تميم أيضا فقتل لقيط ولحق تميم من ذلك الضعف الكبير .

٢ - بين سليم وكنانة

ومنها ما كان بين سليم وكنانة . وسببه أن ربيعة بن مكدم من بني فراس بن غنم - وهو فارس الظعينة - قتل ثلاثة فوارس من قيس أرادوا استلابها منه بوادي الأخرم وهو لكنانة ، وكانوا مغيرين عليه مع دريد بن الصمة ، فأغارت سليم بعدئذ على كنانة يوم الكديد وفيه قتل ربيعة ، فتبع ذلك أيام من كنانة على سليم كانت الغلبة فيها دولة بين الطرفين . وفيها وفي يوم الظعينة كثير من رائق الشعر وجليل الرثاء والفخر ، روى صاحب العقد الفريد عن ابن حاتم عن ابن عبيدة قال : -

روى صاحب العقد الفريد عن ابن حاتم عن أبي عبيدة قال .

خرج دريد بن الصمة في فوارس من بني جشم ، حتى إذا كانوا في واد لبني كنانة يقال له الاخرم ، وهم يريدون الأغارة على بني كنانة ، إذ رفع له رجل في ناحية الوادي معه ظعينة ، فلما نظر إليه قال لفارس من أصحابه : صح به خل عن الظعينة وانج بنفسك ، فاتمى إليه الفارس وصاح به وألح عليه فألقى زمام الناقة وقال للظعينة .

سيرى على رسلك سير الآمن سير رداح ذات جأش ساكن

إن التأتى دون قرنى شائى أبلى بلائى واخبرى وعائى

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه فأعطاه للظعينة ، فبعث دريد فارسا آخر لينظر ماصنع صاحبه ، فلما انتهى إليه ورأى ماصنع صاح به ، فتصامم عنه كأن لم يسمع فظن أنه لم يسمع فغشيه فألقى زمام الراحلة إلى الظعينة ثم خرج وهو يقول .

خل سبيل الحرة المنيعه إنك لاق دونها ربيعه

في كفه خطية مطيعه أولا نخذه طعنة سريعه

والطعن منى في الوغى شريعه

ثم حمل عليه فصرعه ، فلما أبطأ علي دريد بعث فارسا ينظر ماصنعا ، فلما انتهى اليهما وجدتهما صريعين ، ونظر إليه يقود ظيعنته ويجر رحله ، فلما رآه ربيعة قال للظعينة اقصدى قصد البيوت ثم أقبل عليه فقال :

ماذا تريد من شئيم عباس ألم تر الفارس بعد الفارس

أرداهما عامل رمح يابس

ثم حمل عليه فصرعه وانكسر رحله ، وارتاب دريد فظن أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل ، فلحق دريد ربيعة وقد دنا من الحى ، ووجد أصحابه قد قتلوا فقال أيها الفارس إن مثلك لا يقتل ولا أرى معك رمحك والحيل ثائرة بأصحابك فدونك هذا الرمح فاني منصرف إلى أصحابي أثبطهم عنك ، وانصرف إلى أصحابه فقال ، إن فارس الظعينة قد حماها وقتل أصحابكم وانتزع منى رمحى ولا مطمع لكم فيه ، فانصرف القوم وقال في ذلك دريد .

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله	حامى الظعينة فارسا لم يقتل
أردى فوارس لم يكونوا نهزة	ثم استمر كأنه لم يفعل
متهللا تبدو أسرة وجهه	مثل الحسام جلته كف الصيقل
يزجى ظيعنته ويسحب رحله	متوجها يمناه نحو المنزل
وترى الفوارس من مهابة رحله	مثل البغاث خشين وقع الأجلد
يألت شعرى من أبوه وأمه	ياصاح من يك مثله لا يجهل

فقال ربيعة بن مكرم :

إن كان ينفعك اليقين فسائلى	عنى الظعينة يوم وادى الأخرم
إذهى لأول من أتاها نهبه	لولا طعان ربيعة بن مكرم
إذ قال لى أدنى الفوارس منهم	خل الظعينة طائعا لاتندم
فصرفت راحلة الظعينة نحوه	عمدا ليعلم بعض مالم يعلم

وهويت بالرمح الطويل إهابه فهوى صريعا لليدين وللعم
ومنحت آخر بعده جياشة نجلاء فاعرة كشدق الأضجم
ولقد شفعتها بآخر ثالث وأبى الفرار عن العدة تكمى

ثم لم يلبث بنو كنانة أن أغارت على بنى جشم فقتلوا وأسروا دريد بن الصمة، فأخفى نفسه، فبينما هو عندهم محبوس إذ جاءت نسوة يتهادين إليه، فصاحت إحداهن فقالت هلكتم وأهلكتم، ماذا جرى، هذا والله الذى أعطى ربيعة رحمة يوم الطعينة، ثم ألقت عليه ثوبها وقالت يا آل فراس أنا جارة لكم فيه، هذا صاحبنا يوم الوادى، فسألوه من هو؟ فقال أنا دريد بن الصمة، فمن صاحبي قالوا ربيعة بن مكرم، قال فما فعل؟ قالوا قتلته بنو سليم، قال فما فعلت الطعينة، قالت المرأة أنا هى وأنا امرأته، خبسه القوم واثمروا أنفسهم، فقال بعضهم لا ينبغي لدريد أن يكفر نعمته على صاحبنا، وقال الآخرون لا يخرج من أيدينا إلا برضا المحارق أسره، فانبعثت المرأة فى الليل وهى ربيعة بنت جندل الطعان إلى المحارق فقالت:

سنجزى دريدا عن ربيعة نعمة وكل امرئ يحزى بما كان قدما
فإن كان خيرا كان خيرا جزاؤه وإن كان شرا كان شرا مذمما
سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة بأعطائه الرمح الطويل المقوما
فلا تكفروه حق نعماء فيكم ولا تركبوا تلك التى تملأ الفما
فإن كان حيا لم يضق بشوابه ذراعا، غنيا كان أو كان معدما
فلما أصبحوا أطلقوه فكسته الطعينة وجهازته ولحق بقومه فلم يزل كافا عن حرب
فراس حتى هلك.

٣ — بين هوازن وكنانة

ومنها ما كسان بين هوازن وكنانة وأشهرها الفجار الرابع. وسببه أن البراض ابن قيس الكنانى وعروة الرجال رجل هوازن، كانا عند النعمان وقد جهز غير اللطيمة — وهى إبل تحمل تجارة لكسرى إلى أسواق العرب من اليز والطيب — فقال

من يجيرها ؟ فقال البراض أنا أجيرها علي بنى كنانة ، فقال النعمان ما أريد إلا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة ، فقال عروة أ كلب خلع يجيرها لك أبيت اللعن أنا أجيرها ، فقال البراض أعل بنى كنانة يا عروة ؟ قال وعلى الناس كلهم ، فدفعها النعمان إلى عروة وحنق عليه البراض ، فتبعه وهو لا يخشى منه شيئا فقتله ، واستاق اللطيمة إلى خير فقامت لذلك حرب بين هوزان وكنانة تشيب لهولها الولدان وجعلت تتجدد كل عام في ميعادها من الأشهر الحرم ، حتى كانت خمسة أيام في أربع سنين تدعى الناس بعدها إلى السلم بدافع من أنفسهم ، كأن العرب كانت تستعد لحدث جديد هو حلول الوفاق محل الخلاف قيل مجيء الاسلام الذي ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا .

أيام ذي قار بين العرب والفرس

وذو قار ماء قريب من البصرة ، وكان سببها أن كسرى غدر بالنعمان بن المنذر وقتله في المدائن ، وكان النعمان قد أودع سلاحه هانيء بن قبيصة بن هانيء بن مسعود الشيباني ، وجعل عنده ابنته هنداء وهى حرة ، فطلب كسرى السلاح وأتى هانيء فكانت الحرب ، وفيها تضامت العرب وانتصرت نصرا مبينا . قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد بعث « اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبني نصر » . ولأيام ذي قار في نفس كل عربي مقام يعتز به ، ولذلك أ كثر العرب جميعا من التفاخر بها والتباهى بذكرها وفيها كانت خطبة هانيء المذكور يحرض قومه بكرا على القتال ، ومنها .

« يا معشر بكر ، هالك معذور ، خير من ناج فرور ؛ إن الحذر لا ينجي من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن في ثغر النحور ، أكرم منه في الاعجاز والظهور ، يآل بكر ، قاتلوا فما للعنايا من بد »

رابعاً - أثر الأيام في اللغة والأدب

تقدمنا آنفاً بطائفة من أيام العرب ذكرنا بواعثها ووضحنا أسبابها لتكون تمهيداً لما نعالجه الآن من أثر الأيام في اللغة والأدب . وإذ كانت تلك البواعث وهذه الأسباب متصلة بعيشتهم ، وإن شئت فقل هي نفس عيشتهم ، وكان الشعر ديوانهم الذي إليه يحتكمون ، وبه يفتخرون ، فقد فاض عليه من الأيام مالولاه لغاض معينه وصوح نبته فلم نره كما نراه الآن ، تلك الروضة المعطار ذات العصون الناضرة والأطيوار الشادية حبيت الحرب إلى نفوس العرب ، وهي طيبة فيها ، صفة الشجاعة والنجدة والبأس والقوة ، بقدر ما بغضت إليهم الخور والضعف والجبن والهلع ، فكانوا في حضهم عليها واصطلائهم نارها وانتشائهم بلذة الظفر فيها ، يقولون الشعر ، شعر الحماسة والفخر ، فيصدر منهم جزل الألفاظ شريف المعاني نبيل المقاصد ، يحرك من القلوب الضعيفة ويهون الموت على الأعزة الأحياء ، ثم ينشون إلى بكاء قتلاهم وتعداد بلائهم تخليداً لمآثرهم وذكرهم ، فاذا هذا شعر الوجدان الباكي ، والعاطفة الأليمة ، ممزوجة بما يخفف على الحى رزء المفقود ، ويجعله يأنف أن يموت حتف أنفه ، ويعد من النقيصة والعار ألا تكون منيته بطعنات الرماح وضربات السيوف ، وأى أمر غير هذا جعل أبا تمام الطائي يسمى ما اختاره من شعرهم ديوان الحماسة ، ويجعل أكثر من نصفه خالصاً لها ، ولما كان حتماً مقضياً بعدها من الموت فالتأبين فالرثاء .

تأمل عيون الشعر الجاهلي ، فحيث ترى العين قذافة لا ينقطع مأوها ، لا تنى ترمى بكل مقطعة منه متماسكة الألفاظ متعاشقة المعاني تجدها من هذين البابين وهل لغيرهما - ومنشؤها ذكر الفجيعة في الميت واستخلاص الحياة للحى - من الاتصال بقرارة النفوس وتحريك ما كمن فيها مثل ما لهما ؟ اللهم لا . ثم يتصل بهذين البابين عن قرب ، التفاخر بجارة الجار وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ، وعن بعد التمدح بقري الأضياف وإيواء الطارقين . وما لنا نبعد بالقري والإيواء عن مواطن الشجاعة والاقدام ، وهما راجعان إلى الكرم ، والكرم والشجاعة صنوان ومن أصل واحد ينبتان ، هو الساحة وما تقتضيه من بذل يقع في المال فيكون سخاء وكرماً ، ويرتفع إلى أقصى

غاية الجود تضحية بالنفس فيكون شجاعة وإقداما . أفلا نحس إذن أن الشعر العربي إذا تجرد مما أثر في هذه الناحية الواسعة الأطراف يصبح قاعا صفصفا أو يعدم أقل ما يصاب ، جواهر تاجه ووسائل عقوده ، فيذهب مأؤه ويضيع بهاؤه ؟

ثم كان من عادة العرب في الحروب أن يسيروا ليلا ليدهموا بالغارة صباحا ، فكان من هذا سرى الليل وتعريسه ، وهول ذلك وخوفه ، وما اتصل بالسرى من ذكر الليل نفسه في دجته وظلماته ، أو في سمائه بما يسطع فيها من بدر ، ويهدي من نجم ، وهذا منحى آخر من القول بين التأثير في اللغة والتأثر بالأيام

• وحتى إذا هدأت الحرب ووضعت أوزارها ، كانت تفيض علي اللغة بالممتع الكثير منها ، ففي الدعوة إلى السلم ونفعها ، والتكذب عن الحرب وضررها ، من الخطب والوصايا والحكم والمواعظ وضرب الأمثال والشواهد ، ما استنفد جلها وأخذ أكثرها ، ولو تتبعنا هذه الناحية نخصيها مع ما اتصل بها من صلح ووثام ، ومغارم ومحامل وديات يفرق فيها بين عربي صريح وآخر مقرف أو هجين ، لوجدنا الشطر الأكبر في النثر الجاهلي إلى هذا ينسب ، كما نسب نظيره في الشعر إلى الحماسة والثناء وما تعلق بهما أو انشعب منهما .

وإن لنا أن نعتبر عناية العرب بأنسابها وحفظها لمفاخرها وأحسابها إلى ذلك الحد الذي لم تعرفه أمة غيرها ، راجعة إلى ولعها بالحرب أيضاً ، حتى إذا مادهمت داهمة ، كان كل أعرف بقبيله وعشيرته وناصره ومولاه ، وإذا ما طلب ثأر كان معروف المحل ومن هو منه قريب أو بعيد ، فاذا ما حانت المفاخرة والمنافرة كانت الأصول التي تقع عليها معروفة غير مجهولة ، لانطاوع عربيا أن يدعى غير أبوته أو ينتسب إلى غير قومه ، ولذا كان الأدعياء نورة في العرب محل ضعة منهم وتهجين

ثم ما نظن عناية العرب بالخليل ، تلك العناية البالغة مبالغها الدقيقة في تناولها ، إلا منسوبة الفضل إلى الأيام : فما تستتب شجاعة الشجعان ، فترى منهم البلاء والغناء إلا بالخليل عليها يكرون وبها يقتحمون ، وهل أدل على شدة التلازم بين الشجاعة والخليل من تسمية الرجل على الفرس فارساً ، فاذا ما كان على بغل أو حمار قيل بغال وحمار ، وألا يكون أخذ الفرس من الفرس وهو الهصر والكسر ، وأخذ الخيل من الخيلاء وهي الدل والعجب ، آية أخرى علي هذا التلازم ، وإذن فما تبع تلك العناية

من الاكثار الكثير في أسماء الخيل وتاجها وعتقها وصفاتها ، مما ألفت فيه كتب ولم يسعه كتاب ، ثم ما كان من تفضيل العربى لجواده علي نفسه في الزاد وجعله وإياه جزءاً لا ينفصل منه في التفاخر بالاستبسال ، إن هو إلا من الحرب نشأ ولأجل القتال كان .

أو ليس على أيام العرب وحروبها قامت صناعة السيوف والرماح وسائر عدد الحرب والقتال ، من مغافر ودروع ولجم وسروج ، وهذا ضرب آخر أفاض على اللغة الغنى والثراء من مفردات وتراكيب وأخيلة وأوصاف . فالسيف في صقاله ولمعانه وحدته ومضائه ، والرمح في اعتداله واستوائه وصلابته وملدانه ، ثم غيرهما مما تقدم فيما لهما من صفات وأحوال - وليس ذلك بالخفى المجهول - قد فتح في اللغة فتحاً مبيناً ونماها نمواً كبيراً .

على أن العرب لم تقف عند الخيل ووصفها ، والآلات ونعتها ، بل تلتفت إلى ماحولها من حيوان غير أليف ، فإذا بالأسد قد امتلك عليها لبها ، وشغل منها قلبها وفؤادها ، فلم كان الشاغل دون غيره ، ألا إن ذلك لما جبل عليه العربى من الولع بالقتال وتمجيد الجرأة على المقارعة والنزال ، فأخذ يعنى بهذا الحيوان يبحث عن أحواله ويتشبه به في صفاته وأفعاله ، حتى أحله من نفسه محلاً رفيعاً ، وجعله علي سائر الوحش سلطاناً ومليكاً ، وليس بخاف على أحد ماورد باللغة عن هذا الحيوان من أسماء ونعوت وماقذفت به ألسن الحمية والنجدة عنه من آيات إكبار وإجلال . ثم لم يعدم غيره من الحيوان الضارى أن ينال من ذلك بقدر ضراوته ، كالنمور والفهود والضباع والذئاب ، وإن كان فيما اختص به الأسد دونها من نبل وكرم وعلو وترفع فوق ما تقدم عنه من قوة وجرأة ، ما جعله المقصود لدى العرب بالتجلة والاعظام والتشبه به في كثير من الصفات والخلال وصرفهم عن غيره إلى القول فيه أكثر مايقولون .

وهل أقدمت العرب على تسمية قبائلها وبطونها وأولادها وفتيانها ، بالكريه من أسماء الحيوان كأسد وفهد ونمر وذئب ، ثم من غير الحيوان كحجر وصخر وجشم وعبس ، إلا محبة لتلك الأسماء وتفاؤلاً لبنيهم أن يكونوا من صفات ذواتها على كمال ،

فيحموا الحوزة ويدافعوا عن العشيرة ويكونوا للحروب أهلا ولمقارعة الأبطال كفاء .

وهل إذ انطوى بساط الجاهلية بما كان عليه من شجار وعراك ، واشتباك وقتال ، بما نشر الإسلام من لواء سلامه ومد من ظل عدله ووئامه . انقطع مدد الأيام للأدب أو وقفت حركتها الدافعة له . كلا ، فقد مكثت أيام الجاهلية الأولى مدداً للشعراء غير مقطوع ، ومفاخر يبتعثون تراثها غير خلق ولا مجدوع ، نقرأ ذلك مستجيدين ولآثاره حامدين مستكثرين . من لدن صدر الاسلام في مفاخر الفرزدق وجريز ، إلى حيث قطع العصر العباسي عهد شبابه وصباه على أيام البحتری وأبي تمام وإذن فهذه كلمة انتظمت أثر الأيام في اللغة والأدب ، وما كان لها عليه من فضل ونماء ، وهى علي ما ترى تتناول الشعر والنثر كليهما أمثلة لها وشواهد عليها إلا ما قل منهما ، ومن ثم يسوغ لنا أن نقول غير مبالغين ولا متجنين ، إن أيام العرب وأدب العرب يكادان يكونان شيئاً واحداً لا شيئين ، ولنا كان الحظ علي تعرف أيامهم في القديم بمثابة الوصاة علي تعلم آدابهم ، لا خلف في ذلك ولا كبير افتراق .

اللغة

نشأة اللغات وتعددتها — اللغات السامية وأصل العربية —

طرق نمو العربية وخصائصها — عوامل تهذيبها ، واختلاف لهجاتها

أولاً — نشأة اللغات وتعددتها

احتاج الانسان إلى التفاهم ، وكان التفاهم بالألفاظ ليسرها وعمومها أفيد أنواع الدلالات ، فاستعملها فنشأت اللغات ، ولكن في كيفية هذه النشأة خلافاً طويلاً بين العلماء الأقدمين ، ولا زال جارياً منهم إلى المحدثين

فعباد بن سليمان الصيمري يقول : إن دلالة الألفاظ على معانيها ذاتية لا توقيف فيها ولا تواضع ، مستدلاً على ذلك بوجود مناسبة بين كثير من الألفاظ ومعانيها ، وبأنه لولا هذه العلاقة الذاتية لكان اختيار لفظ دون آخر تزجيحاً بلا مرجح ، وهذا القول مردود في جملة وتفصيله ، وإلا لزم أن يفهم الانسان اللغة بل اللغات جميعاً دون تعلم ، وهذا مالا يكون . أماتلك المناسبة فمع ثبوتها لبعض الألفاظ ، وخصوصاً الصوتي منها ، لاتنهض دليلاً لانعدامها في الأعم الأغلب ، ويكفي أن يكون مجرد خطور اللفظ دون غيره على الذهن مرجحاً له ودافعاً إلى اختياره . على أن تلك المناسبة لو كانت الأساس ، لما كان في لغة من اللغات لفظ يستعمل في المعنى وضده كما هو مشاهد وكثير .

وأبو الحسن الأشعري يقول : إنها توقيفية أتت بوحي من الله سبحانه وتعالى ، وتبعه في ذلك أبو على الفارسي محتجاً بقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » ولكن الآية ليست بالدليل القاطع في الموضوع ، إذ يجوز أن يكون المراد بالأسماء أسماء الملائكة ، أو بالتعليم الاقدار على المواضع لا التعليم المباشر .

والذي عليه الجمهور ، وبه قال ابن جني في خصائصه ، هو أن اللغة تواضع واصطلاح

وجدت المناسبة أم لم توجد ، تحقق القصد في التواضع أم جاء عفوا بالارتجال . وأن
الالهام من الله سبحانه وتعالى بمعنى الأقدار ثابت في الحالين . ويان ذلك أن الحيوان
يعبر عن وجدانه بأصوات تختلف باختلاف مطالبه كما نراه ، ولما كان الانسان لابد
أن يفضل في ذلك ، لما فيه من قوة الادراك ومطاوعة الصوت ، فقد استغل مطاوعة
الصوت في تنويع الحروف ، وقوة الادراك في ارتجال بعض الألفاظ ، فكان بهاتين
القوتين - عندما يريد أن يفهم أو يستفهم - يصيح لغيره بصوت محكى أو مرتجل
يتوسم فيه الافصح عما يريد ، مضيفا إليه مايزيده إيضاحا من اشارة حسية أو قرينة
حالية ، فاذا ما فهم غرضه منه كرره وكرره حتى يستقل بأداء معناه ، دون حاجة إلى
إشارة أو قرينة ، وعلى هذا النحو منه ومن غيره تكونت النواة الأولى للتفاهم
الضرورى ، ثم أخذت تتسع وتنمو بما يتفقون عليه من غير تعمل ولا قصد ، حتى
كانت لغة الانسان الأول وبقياس نشأة هذا الانسان على ماهو مشاهد في نشأة
الطفل ، وما هو معروف عن لغات الشعوب الهمجية التى لاتزال فى حدود الطفولة ،
يمكن القول بأن نطقه كان بالأصوات الدالة على الانفعالات النفسية أو على محاكاة
الطبيعة ، ثم بالألفاظ المسمى بها بعض المحسوسات حوله ، وتلا ذلك النطق بالمصادر
ثم الأفعال وأسبقها المضارع ، وهكذا انتقل التدرج إلى أسماء الاشارة والضمائر
والموصلات ثم المشتقات ، وبعد ذلك كله جاءت الحروف .

تلك هى نشأة اللغة ، أما كيف تعددت إلى لغات ، فنشأ ذلك حتما هجرة طوائف
الانسان وابتعاد بعضها عن بعض ، حيث رأت كل طائفة فى بيئتها ما لم يره غيرها ،
فاضطرت إلى وضع كلمات لم يضطر إليها سواها . ثم إن عدم اتفاق الخواطر ، - على
فرض تماثل البيئة فى بعض الأحيان - جعل الخلاف واقعا لاحالة فى التعبير ، ولو إلى
درجة غير بعيدة . فالى البيئة والخطر معا يرجع تعدد اللغات ، ومن هنا كانت تتقارب
اللغتان وتتباعدان قربا وبعدا ، كما كانتا قد تختلفان عن قرب أو تتشابهان على بعد .
ويغلب أن يكون ذلك قد حدث قبل نوح عليه السلام ، ولكن حادثة الطوفان
عفت على ماسبقها ، وجعلت الناس لا يعرفون تعدد اللغات إلا بعدها ، فنسبوا أصولها
إلى أبنائه الثلاثة ، حام ويافث وسام ، كما فعلوا فى إرجاع أنساب الانسان ، فارضين أن

لغة نوح ومن كان معه في السفينة كانت واحدة ، ولكن بنيه لما انتشروا في الأرض بعد ذلك اختلفت لغتهم ، لما تقدم في أسباب نشأة اللغات ، ونسل من كل منهم شعوب وقبائل ذات لغات متعددة ، ولكنها ترجع في أصلها إلى أبيهم وإذن فأصول اللغات ثلاثة .

١ — اللغة الحامية نسبة إلى حام ، ومنها معظم لغات أفريقية كالحبشة والمصرية القديمة .

٢ — اليافثية نسبة إلى يافث وتعرف بالآرية نسبة إلى آربن يافث ، وهي لغة أوربة وكثير من شعوب آسية في غير العرب .

٣ — السامية نسبة إلى سام وهي لغة غرب آسيا ، مهد النبوة والرسالة ، وبها نزلت الكتب المقدسة ، فأثرت بهذا وتوسط موطنها في كثير من فروع اللغتين السابقتين ، حتى إن بعضها قد عد منها كما سيأتى في السكنعانية بعد . ولما كانت العربية وهي لغتنا وموضوع بحثنا — أحد فروعها ، ناسب أن نذكر كلمة عنها مع أصل العربية من باب التوطئة والتحيد .

ثانياً — اللغات السامية وأصل العربية

لقد وجد تشابه كبير في لغات الأمم التي سكنت في القديم غرب آسية ، من العراق والشام وجزيرة العرب ، فانها فوق اشتغالها على حروف تكاد تكون خاصة بها كالحاء والصاد والطاء والعين وغيرها ، قد جاءت كثيرة الاشتراك أو شديدة التشابه في الألفاظ والمعاني ، وفي كثير من الخواص كمميزات التأنيث وكيفية اتصال الضمائر بجميع أنواع الكلمات . ولما كانت تلك الأمم في غاليتها من أبناء سام ، وكانت هذه اللغات مقصورة عليهم دون غيرهم إلا من خالطوهم كالسكنعانيين أبناء كنعان بن حام سكان لبنان ، ثم لم تعرف خارج تلك الجهات إلا منقولة معهم ، فقد سميت هذه اللغات بالسامية وقسمت في أصولها إلى أرومتين عظيمتين .

الأولى : وهي أقلها شأنًا السكنعانية . وكان أولى بها أن تكون من الحامية كما تقدم . لولا أنها جاءت شديدة التشابه بالفروع السامية لطول ما أقام أهلها مع الساميين ،

وأشهر فروعها (١) الفينيقية لغة أهل لبنان قديماً ، وقد بادت (٢) العبرية وقد دخلها كثير من فروع الأرمية الآتية ، فصار يقال العبرية القديمة والعبرية الحديثة ، وقد بادت القديمة وبقيت الحديثة .

الثانية وهى أعظمها الأرمية الأولى نسبة إلى إرم بن سام ، وأشهر فروعها (١) الآشورية لغة أهل نينوى وقد بادت (٢) البابلية لغة أهل بابل ، وقد تغيرت إلى الكلدانية ، ومن الكلدانية تفرعت السريانية والأرمية الثانية ومكتسبة إلى مجيء الإسلام ، ثم بادت الأرمية قطعاً والسريانية إلا على ألسنة القليل (٣) العربية القديمة وهى لغة العرب البائدة ذات الاتصال القريب بأرم ، وقد عاصرت قدامى أخواتها ، وقيل أن يبيد أهلها انتقلت إلى اليمن وعرفت بها علي أيام يعرب بن قحطان ، ولكنها تأثرت باليمنية القديمة وتأثرت اليمنية بها ، فنشأت العربية الوسطى أو القحطانية ، التى تمثلت بعد فى السبئية والحيرية ، وبقيت حتى غلبت عليها العربية الحديثة ، وهى العدنانية أو المضرية ، وإن كانت تأثرت بالسبئية والحيرية جنوباً ، وبالعبرية والسريانية شمالاً ، ثم استمرت فى طريق النضوج والتهذيب ، إلى أن قاربت فيه النروة قبيل الاسلام ، فنزل بها القرآن الكريم فأثمه عليها ، ونشرها على لسان من آمن به فى مشارق الأرض ومغاربها .

من ذلك يثبت أن اللغة العربية أصل من أصول الأرمية القديمة ، التى هى منشأ اللغات السامية جميعاً ، ماعدا الكنعانية أو بغير استثناء لما سبق من أن الكنعانية ليست أصلاً فيها ، بل كثيرة الشبه بها ، ثم مع فضل اللغات السامية على غيرها - كما يقول علماء اللغات ، بكثرة الكلمات وتنوع الأساليب واطراد القياس ووضوح مخارج الحروف وعدوبة المنطق - قد فاقت العربية أخواتها جميعاً فى ذلك وفى غيره ، حتى رأى كثير من العلماء ، قديمين وحديثين ، شرقيين وغربيين ، أنها أصل اللغات السامية جميعاً بما عقدوه من موازناات بينها وبين السريانية والعبرية ، وهما أغنى السامية بعدها ، إذ اتضح من هذه الموازناات أن العربية أصل لهما ، بدليل أن الكلمات المشتمة على حرف الضاد وهو خاص بالعربية دونهما ، تنقل إليهما بجعل الضاد صاداً فى العبرية ، وعيناً فى السريانية باطراد ، ولو كانت العربية ناقلة عنهما لما كان ثمة داع لجعل هذين الحرفين صاداً لوجودهما فيها ، وبدليل فقدان كثير من

أصول الكلام فيهما مع وجوده في العربية ، هذا إلى ما هو ثابت للعربية من مميزات أوجدها التقدم الفطري ، في بقائها بجزيرتها قرونا طويلة بعيدة عن الاختلاط ، وأمنة شر المغيرين ، حتى اكتسبت بذلك مناعة جعلتها أقوى على مدافعة الغزو وأبقى على مطاولة الزمن .

ثالثا - طرق نمو العربية وخصائصها

نشأت اللغة العربية على النظام الذي أسلفنا في نشأة اللغات ، فتكونت النواة الأولى من ألفاظها بعامل المحاكاة والارتجال ، ولا بأس من ذكر شيء عنهما الآن ، حيث يساق الكلام خالصاً لطرق نموها وخصائصها

١ - المحاكاة

فألفاظ المحاكاة أنواع : منها ما حوكت به أصوات الحيوان ، كعواء السكب ومواء الهر وخوار العجل ، مما أصله الحرف الأول محركا بحركة . وكرغاء الإبل وأصله الحرفان الأولان ، وكنييب التيس وأصله الباء مكررة ، وكصير الجندب وأصله الحرفان الأولان مكررين

ومنها ما حوكت به أصوات الإنسان الفطرية ، كالشهيق والزفير والشخير والزحير مما أصله الحرف الثاني وكالتأوه وأصله الهمزة والهاء ، والتأفف وأصله الفاء مكررة والقهقهة وأصلها الفاء والهاء مكررتين

ومنها ما حاكى أصوات الطبيعة وتفاعلها كخريف الماء وخفيف الشجر وهبوب الريح ، وكالدق والصك والهد والقط والمص والرش ونحو ذلك مما بين حروفه وصوته تشابه

وقد تلاحظ المحاكاة في وضع أسماء لبعض الدواب من صوتها ، كالأنف والفم وأصلهما الفاء ، وكالحلق والحلقوم والحنجرة وأصلها الحاء .

ومن هذه الأسماء الصوتية نشأت أفعال ، إما بالمد كخار العجل أو بالتكرير كخر الماء ، ونحوهما مما جعل التولد والازدياد عن طريق الصوت فعلا مستمرا .

ب - الارتجال

والألفاظ المرتجلة هي أكثر ألفاظ اللغة ، فقد خص الله الانسان بالنطق والفكر ، فاقدر بهما على وضع ألفاظ كان ينطق بها كلما دعاه داعي التفهم أو التفهيم ، ومن العسف أن ننكر عليه الارتجال - كما فعل بعض المكابرين - ونحن نرى الأطفال ولما يبلغ فيهم النطق والفكر مبلغهما في الكبار ، كثيرا ما يرتجلون كلمات مركبة من بعض حروف يدلون بها على مرادهم ، ويستعينون في تفهيمها ببعض الأشارات ، وقد لا يستعينون ومع ذلك تفهم عنهم بالتكرار ، فمن الطبيعي والمعقول أن يكون الكبار أقدر منهم على الارتجال ، ولا سيما إذا ساعدتهم عليه استخدام عوامل النمو على ما سيأتي بيانه

عوامل النمو

هي الأبدال والقلب والنحت والاشتقاق والتجوز والترادف .

١ - الابدال

هو جعل حرف مكان آخر يقرب منه في اللفظ ، كأن يكونا من مخرج واحد أو مخرجين متقاربين ، وقد تناول كل الحروف تقريبا ولكن أشهر أنواعه ما يأتي :-
١ - تبادل الهمزة والهاء مثل أيها في هيهات ، وهيا في أيامن قول الراجز :-

فانصرفت وهى حصان مغضبه ورفعت من صوتها هيا أبه

كل فتاة بأييها معجبه

٢ - تبادل الهمزة والياء مثل ألملم في يللمم ويلمعي في ألمعي

٣ - تبادل الهمزة والواو عند الحجازيين ، كوكد في أكد وإشاح في وشاح .

٤ - تبادل الهمزة والعين عند قيس مثل

أعن توسمت من خرقاء منزلة ماء الصابة من عينيك مسجوم
والأصل أن ، ومثل

أريفي حوادا مات هزلا لأننى أري ماترين أو بخيلا مخلدا
والأصل لعلى ، وابدال الهمزة عينا هو عنعنة قيس

٥ - تبادل التاء والطاء ، كسلطان فى سلطان من قول الشاعر

فى زاده السلطان فى المدح رغبة إذا غير السلطان كل خليل

وطريق فى تريق

٦ - تبادل التاء والذال ، مثل سبنتى فى سبندى ومد فى مت بمعنى اتصل

٧ - تبادل الحاء والعين عند هذيل ، مثل ضبع فى ضبح وبحر فى بعثر ويسمى

الفحفة .

٨ - تبادل الحاء والهاء ، مثل تفيحق فى تفيهق وكده فى كدح

٩ - تبادل الضاد والظاء ، كقول أعرابى لسيدنا عمر « أيطحى بضى » يريد

أيضحى بضى

١٠ - تبادل النون واللام ، مثل أصيلان فى أصيلال وهتل فى هتن

١١ - تبادل النون والميم ، مثل غين فى غيم وامتقع فى انتقع

١٢ - تبادل الميم والباء عند مازن ، كبكة فى مكة وامنى فى ابنى

١٣ - إبدال التاء كافا مثل « يابن الزبير طالما عصيكا » يريد عصيت

١٤ - إبدال الضاد لاما ، مثل

لما رأي أن لادعة ولا شبع مال إلى أطاة حقف فالطجع

يريد فاضطجع

١٥ - إبدال القاف كافا عند حمير ، مثل يارفيك فى يارفيق

١٦ - إبدال لام التعريف عندهم ميا ، مثل امسفر فى السفر ، ويسمى الظمطانية .

- ١٧ - إبدال السين تاء عندهم مثل الناء في الناس ، ويسمى الوتم
١٨ - إبدال الكاف شينا عندهم مثل منش في منك ، ويسمى الشنشنة
١٩ - إبدال العين الساكنة قبل الطاء نونا عند أسد مثل أنط في أعط ، ويسمى
الاستنطاء

- ٢٠ - إبدال الياء المشددة جيم في الوقف عند قضاة ، ويسمى العجعة ، مثل
خالى عويف وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج
يريد « على ، والعشى » ، وقد يحدث هذا الإبدال من غير تشديد وفي غير الوقف .
٢١ - إبدال كاف المؤنث شينا في الوقف عند تميم ، وتسمى الكشكشة مثل قرى
في بيتش أى في بيتك ، وقد يكون هذا الإبدال في غير الوقف مثل بش تقتدى
النساء أى بك ، كما قد تضاف الشين إلى الكاف من غير إبدال مثل قرى في
بيتكش

- ٢٢ - إبدال كاف المذكر سينا في الوقف عند بكر ، وتسمى الكسكسة ، مثل
احمد ربس أى ربك ، وقد يكون هذا الإبدال في غير الوقف مثل ربس احمد أى
ربك ، كما قد تضاف السين إلى الكاف من غير إبدال مثل احمد ربكس
وباب الإبدال واسع المدى كثير المثل ، ولذا كان من أكبر العوامل في اختلاف
اللهجات

٢ - القلب

هو تقديم حرف أو تأخير في الكلمة بحيث تنشأ كلمة أخرى متحدة المعنى مع
الأول أو مختلفته يسيرا ، كبعض وبضع ، وجذب وجبذ ، ويغلب أن يكون سببه
خطأ أتى من سبق اللسان ، أو محاكاة لمسموع مع سوء الاستماع ، ثم تكرر استعماله
فثبت

٣ - النحت

هو صوغ كلمة من بعض حروف كلمتين أو أكثر ، إيجازا في النطق كبسم الله وحمد الله وسبح الله وحول وطلبق ودمعز وعبشمى وعقبسى ، في ، بسم الله ، والحمد لله ، وسبحان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأطال الله بقاءك ، وأدام الله عزك ، وعبد شمس ، وعبد قيس ، وبعضهم يغالى فيقول ، إنه قد يأتى في الكلمة فتصفو على حرف واحد ، وإن من ذلك حروف المضارعة فالهمزة من أنا والنون من نحن والتاء من أنت والياء من هي .

٤ - الاشتقاق

هو أخذ كلمة من أخرى مع تقارب في المعنى واختلاف في اللفظ ، وهو باب واسع النطاق كثير التقاسيم ، وقد تكفل به علم الصرف .

٥ - التجوز

استعمال اللفظ أو التركيب في غير ماوضع له لعلاقة هي المشابهة أو غيرها ، وبقرينة مانعة أو غير مانعة ، وهو باب حافل وضع من أجله علم البيان

٦ - الترادف

وهذا عامل سادس هو الترادف ، ويكون بأن يوضع للمعنى الواحد أكثر من لفظ ، وهو شائع في العربية ، وقد تصل كثرته إلى مئات الالفاظ ، ومنشؤه اختلاف الخواطر في وضع الاسماء أو في التعبير عن المعانى ، على أن بعض علماء اللغة يقول ، إنه لا بد أن كانت هناك فروق دقيقة بين المترادفات تنوسيت على تطاول الزمن ، ولكن في هذا القول بعض مغالاة ، ولعل الحق في التعليل أن يقال ، إن الترادف لم يظهر إلا حين اشتد الاختلاط وعرف كل قبيل ما كان يستعمله الآخرون ، فتبادلوا ما كان هذا الاستعمال .

الخصائص

تلك طرق نمو اللغة وزيادتها ، أما خصائصها فمع صعوبة إثبات شيء من الخصائص للغة ما على إطلاق اللفظ ، يمكن أن نسند إلى العربية من الميزات ، ما إذا لم يكن خاصة من خواصها ، لا يعدم أن يكون فيها أفضل منه في غيرها ، وأهمه

١ - الأعراب ، ولا يكاد يشارك العربية فيه من اللغات الا القليل كالحبشية على ضعف وقلة تصريف ، على حين هو في العربية كثير التنويع والتفريع ، وبه يكون التمييز بين المعاني والوقوف على مرامي المتكلمين ، فوجوده في العربية دليل على قدم أهلها في البيان والمعيتهم في تفهم الأغراض ، فان اختلاف حركة فيه قد يقلب المعنى ويغير من نوع الكلمة

روى أن رجلا من الخوارج قال - وخليفتهم إذ ذاك شبيب -

فما يزيد والبطين وقعب ومنا أمير المؤمنين شبيب

بضم الراء فامر عبد الملك بطلبه ، ولما وقف بين يديه قال له أنت القائل وروى البيت كما ذكر ، فقال لم أقل هكذا إنما قلت «ومنا أمير المؤمنين شبيب» وفتح الراء فضحك عبد الملك وخلى سبيله لتخلصه بفطنته

وروى أيضا أن الوليد بن عبد الملك - وكان لحانة - قال لأحد أشراف قريش من ختنك بفتح النون ، وهو يريد الضم ، فقال فلان اليهودي ، فقال له ماتقول ويحك ، قال لعلك تسأل عن ختنى يا أمير المؤمنين هو فلان

٢ - عدم الابتداء بالساكين وعدم جواز التقاء الساكنين إلا بضوابط تجعله على قلته غير ثقیل ، وهذا خاص بالعربية ، وقد يجتمع في غيرها من اللغات الأخرى أكثر من ساكنين

٣ - الدقة في استعمال الالفاظ ، وتتضح في العربية في أمرين ، أحدهما تفصيل الالفاظ بقدر تفصيل المعاني ، حتى ليكاد يوجد لكل جزئية من المعنى الواحد كلمة خاصة بها ، وهذا كثير فصلته مخصصات اللغة في أجزاء الانسان والحيوان والطيور والنبات والجماد والزمان وغيرها ، مما هو موطن التسمية ، ثم في تفرع الأفعال للشيء الواحد ،

فالقتل مثلاً للمعنى السكوى وتحتته من الألفاظ ما يبين كافة أنواعه . والثاني عدم العدول عن اللفظ المناسب للمعنى ، ما وجدت تلك المناسبة ، فإن ملاحظة المناسبة إن هي إلا من تلك الدقة ، وهذا مستفيض في اللغة ، فقد تناول الألفاظ الموضوعات بالمحاكاة كلها وآتى على كثير من المرتجلة عن طرق النمو السابقة ، وما نظن لكثير من اللغات مثل هذا

٤ - الدقة في استعمال التراكيب ، ومن أجل هذه الدقة الكلامية وعليها ، قامت علوم البلاغة الثلاثة بفصولها الضافية وأبحاثها الوافية ، التي يبعد أن تضارع بمثلها في غير العربية

٥ - الإيجاز ، وليست هناك أمة تبارى العرب فيه فقد بلغ من إيجازها أن كان الكلام على غنائها في المعنى يقع في الجملة والجملة . وما الأمثال والحكم وجوامع الكلم إلا آيات شاهدات على هذا ، ثم لعل في إكثار العرب من استعمال الأيما والاشارة والتعريض والسكناية والالحن الصارف إلى غير المتبادر أحياناً ، ما يرينا مبلغ مقدرتها على الإيجاز ومهارتها فيه

٦ - خضوع عوامل النمو السابقة في جملتهما لكثير من الأقيسة والضوابط ، مما لا يوجد بعضه في غيرها ، ألبته أو يوجد بقدر ضيق يجعل الشاذ أكثر من المقيس .

٧ - هذا وبالعبرية خاصة قيل إنها لا تعتبر من آيات السكالم والمدح بل من بقايا النقص والعيب ، وهي الاشتراك ، ويكون بأن يطلق اللفظ الواحد على أكثر من معنى ، وبخاصة إذا كان في بعض معانيه التضاد ، مما يؤدي إلى التعمية والأبهام ، إذ هذا يتنافى مع الغرض المفروض في اللغة من أنها وسيلة إلى الايضاح والبيان ، ويغلب أن تكون الألفاظ المشتركة من بقايا اللغة التي لم يأت عليها الزمن بعوامل الاختصاص ، ولكن مما يهون الأمر فيها بالعربية ، وجود كثير من الكلمات المختصة إزاء اللفظ المشترك ، فإن في ذلك غناء للقائلين وفراراً مما فيه تلبيس على السامعين ، هذا إلى ما قد يفيض به المقام إذا استعمل اللفظ المشترك من قرائن . تتطلب المعنى المراد دون لبس ولا إبهام ، هذا على أن الإبهام قد يقصد في بعض الأحيان ، كما تقدم في لحن القول .

رابعا - عوامل تهذيبها واختلاف لهجاتها

عرف مما سبق بيانه في اللغات السامية وأصل العربية ، أن العربية اجتازت ثلاثة أطوار ، طور أول هو نشوءها على لسان العرب البائدة الذين هم أقرب شعوب العربية إلى سام لأنهم إلى ابته إرم ينسبون . وطور ثان هو ما كان من اختلاط هذا الشعب الأول باليمنيين القدماء اختلاطا جعل لغة كل فريق تؤثر في لغة الفريق الآخر ، ولكن يظهر أن الغلبة كانت للغة العرب البائدة على اليمنية القديمة ، فصارت أوضح منها في العربية الثانية ، لما هو متفق عليه من أن اليمنيين تعربوا على عهد يعرب بن قحطان ومن ثم عرفوا بالعرب المتعربة ، ثم ما كان من انقراض العرب البائدة وبقاء العربية ممثلة على لسان القحطانيين وحدهم . أما الطور الثالث، فهو ما كان من نشوء شعب عربي جديد حيث نزل إبراهيم وادى مكة على مقربة من جرهم الثانية ، وهي قحطانية ، فرفع قواعد البيت ثم عاد تاركا ابنه اسماعيل ، الذي أصهر في تلك القبيلة فكان له بنون نشئوا يتكلمون لغة جديدة تأثروا فيها بلغة أبيهم ، وبلغه هؤلاء القحطانيون ، حتى إذا ما انحدر التناسل إلى عدنان ، تم ظهور شعب ثان ، هو الشعب العدناني الذي عرفت باسم العرب المستعربة ، وبذلك كانت هناك لغتان ، قحطانية في الجنوب وعدنانية في الشمال ، ولكن مهما قلنا في التفرقة بين اللغتين ، فلن تبلغ التفرقة جعل كل واحدة منهما تامة الاستقلال عن الأخرى ، لأن تكوين الأخيرة يأبى هذا الاستقلال ، كما يأتى إلا أن تكون الأولى أغلب على الثانية عملا بتغلب الكثير على القليل ، وكذلك مهما قلنا في التقارب بينهما ، فلن يبلغ التقارب درجة الاتحاد ، وخاصة إذا علمنا أن معظم الشعوب القحطانية حين نشوء العدنانية كانوا بعيدين في الجنوب عن الاختلاط بالعدنانية في الشمال ، وعلى هذا الأساس سيكون قولنا في اختلاف لهجات العربية وعوامل تهذيبها . وكان الظاهر يقتضى أن تقدم القول في اختلاف اللهجات عليه في عوامل التهذيب ، لولا أن ماسنسوقه بعد من اختلاف في اللهجات ، هو بقايا مامكث منها على الرغم من تلك العوامل حتى جاء الإسلام، وفي هذا ما يدعو إلى عكس الترتيب .

عوامل التهذيب

يقصد بالتهذيب الذى حدث فى اللغة إلى أمرين ، أحدهما السير بها فى طريق التحسين والترقى بمجهود كل قبيل على حدة ، بقطع النظر عن أن يتقرب فى ذلك إلى لهجات غيره من القبائل الأخرى ، والثانى العمل على تقريب تلك اللهجات بعضها من بعض ، تقريبا ينتهي كما انتهى بما هو أشبه بالتوحيد ، ولكل من هذين الأمرين عوامل هى المجتمعات الخاصة للأول والعامه للثانى ، على أنه من الطبيعى أن تكون المجتمعات العامة مع اختصاصها بالتهذيب من ناحية التوحيد ، عاملة عليه أيضا من الناحية الأخرى ، فما هى إذن تلك المجتمعات ؟

١ — المجتمعات الخاصة

كان للعرب مجتمعات خاصة كثيرة دفعتهم إليها أحوالهم وشهدت بها ألفاظهم ، وكلها كان يستدعى منهم أن يقولوا ويتكلموا محاولين فى ذلك تجويد قولهم وتحسين كلامهم ، ماأمدتهم القريحة وطاوعهم البيان ، وفى هذا من العود على اللغة بالتقدم والترقى مايزيد أن تقول .

١ — فمن المجتمعات ما كان للمذاكرة والمشاورة فى تداركحرب أو شن غارة ، وكان يقع غالبا فى قبة ينصبها من تكفل بأمرهم ، فيجتمع إليه فيها أهل الحل والعقد منهم ، ثم تدور أقذاح القول ويمجرى النقاش فيه تأييداً أو نقضاً ، حتى يصلوا إلى رأى يستقرون عليه ويعزمون العمل به ، ومن هنا نشأ ماذكرونه عن الرأى المبيت والاقبال عليه ، وعن الرأى الفطير والانصراف عنه .

٢ — ومنها ما كان للحكومة والفصل فى الدعاوى والمنازعات ، فيستعد كل فريق للدلاء برأيه والدفاع عن وجهة نظره ، أمام حكم يرضونه ويدعونون لحكمه ، وقد كان هؤلاء الحكم يختارون ممن عرفوا بخصافة الرأى وحضور البديهة وقوة البيان ، حتى يكونوا قديرين على مناقشة الخصوم واستجلاء الحقيقة من تلك المعمة السكلامية ، التى يريد أن يخرج منها كل طرف فى الخصومة فائزاً على خصمه منصوراً .

٣ — ومنها ما كان للاتعاظ والاعتبار ، فما خلا قبيل من ذى بصيرة نافذة ونفس

طاهرة يجتمعون إليه بعض أيامهم لاستماع مافيه ترغيب أو ترهيب كما توحى عقائدهم وننطق فطرهم ، ومن هذا النوع ما كان من اجتماع قريش حول كعب بن لؤى كل يوم عروبة يعظهم ويدكرهم ، ويقال إنه لذلك سمي يوم الجمعة ، وإنه لذلك أيضا ولسبقه يومى السبت لليهود والأحد للنصارى اختاره الاسلام بعد لجعل صلاة الجمعة فيه بما شرع فيها من خطبة .

٤ — ومنها ما كان للتحالف والتعاقد فى الدخول فى أمر أو السكف عن أمر ، مما يطلب من ذوى المسكانة والزعامة قبل الدعوة إليه قولاً وبيانا ، ومن السامعين مدافعة وحوارا ، حتى تستقر الأشياء فى أنصبتها وتطمئن النفوس إلى الإيمان بها ، ومن ذلك حلف المطيعين حين أراد بنو عبد مناف أن يأخذوا من عمهم عبد الدار ما أعطاهم إياه أبوهما قصى بن كلاب من أمور البيت ، فأبوا عليهم وكاد يقع الشر بينهم لولا هذا الحلف الذى قسم الأمور بينهما ، وإما سمي بذلك لأنهم غمّسوا أيديهم حين عقدوه فى طيب مسحوا به الكعبة توكيدا له وتوثيقا ، وكثيراً ما كان يقع التحالف إذا تسافه أفراد القبيلة تسافها يقتحم الحد ويتهجم على العرف ، فيهب أشرافها يتعاقدون على التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر ، كما فعلت قريش فى حلف الفضول على يدى العباس بن عبد المطلب وسفيان بن حرب ، ورسول الله يومئذ ابن خمس عشرة سنة ، وهو الحلف الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعي إليه فى الاسلام لأجبت »

٥ — ومنها ما كان إذا دخلوا من تلك المشاغل ، لمحض الأناس وترويح النفس ، بذكر ماسلف من الحروب والوقائع ، وقص مامضى من السير والأخبار ، وتناشد ما حلا من الرجز والقريض ، إلى غير ذلك مما تنشرح له الصدور وتنشعش به الأفئدة ، وكان هذا النوع من المجتمعات لا يقع غالباً إلا ليلاً ولداً سمي حديث المسامرة والسمر ، وهما فى اللغة حديث الليل ، وكانت عادتهم فيه أن يتحلّقوا وفى وسطهم من ينتهى إليه أمرهم ، وأحياناً كان يتحمس المتكلم إذا أراد ذكر قصص غريب فينهض لإلقائه واقفاً كما يفعل الخطيب .

هذه هى المجتمعات الخاصة وقد قطعت فى تهذيب اللغة بالمعنى الأول شوطاً بعيداً ،

ولها أسست الأندية ، ومن أقدمها دار الندوة التي أسسها قصي بن كلاب ، فكانت تجتمع إليه فيها قريش للأمر السالفة ليلا ونهارا ، ولذا سمي قصي مجمعا ، على أن الاجتماع بها لم يقصر على تلك الأمور بل تعداها إلى غيرها ، كالأملاك والأعذار ، فكان يقع من الكلام ما يلائم الموضوع ، ومن الخطب ما يناسب المقام .

ب — المجتمعات العامة

أما المجتمعات العامة فنعني بها ما أدى الاجتماع فيها إلى الاختلاط بين قبيلتين أو أكثر ، أيا كان الدافع إلى هذا الاختلاف ، وتقصد منها أكثر ما تقصد ، العمل على التقارب والتوحيد ، بين لغات القبائل وبخاصة بين عن ومضر ، وإن كانت تؤدي مع هذا إلى ماسبق ذكره من الحسن والارتقاء ، وقبل أن نتكلم على عواملها وهما قريش والأسواق ، لابد لنا من القول بأن العامل الأساسي قبل هذين ، كان اختلاط القحطانية بالعدنانية حيث غادرت كثرتها اليمن منذ القديم لسيل العرم أو للعيش أو لغيرها من أي شيء تشاء ، فلأت من الجزيرة العربية وسطها وشمالها وما بعد من أطرافها ، وبذلك كان تخالط وكان امتزاج ذهبت به الفوارق اللغوية الجسيمة بحكم الطبيعة وعلى توالي الأيام ، ثم كان ماسند كره عن قريش والأسواق فضعت تلك الفوارق كل الضعف ، وزال ما بقي من فارق أو كاد .

١ — قريش

« إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا » رفع إبراهيم قواعده وابنه إسماعيل ، فأقاما أركانها وأتما بنيانه وتقبل الله دعاءهما الذي حكاه سبحانه بقوله عنهما « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » فكان بيتا محجوجا يقصده العرب من كل مكان قصي ، ويأتون إليه من كل فج عميق ، يطوفون به ويقضون مناسكهم فيه ، ولقد كانت أفئدتهم تهوى إليه استجابة لدعاء نبيه وخليله حيث يقول « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » . وما زال هذا البيت محل وفادة لجميع العرب

من لدن إسماعيل ، حتى جاءت قريش فكانوا جيرته الأذنين يقيمون حوله لسدائته ، توفيراً لراحة زأريه وعملا على إرضاء قاصديه ، يستمعون جميع لهجات العرب إذا دعوا ولبوا أو تضرعوا وتوسلوا ، وإذا أرادوا أمراً أو قصدوا شيئاً ، فلا يزالون موسم الحج على طوله — وإذا لم يك حجاج كان عتار — ينقلون إلى لغتهم ما يستحسنون من ألفاظ وعبارات ، وينقل الوافدون إليهم عنهم إذا قفلوا أكثر مما ينقلون هم ، فينشرونه في أرجاء الجزيرة ونواحيها ، وهكذا دواليك . بقيت قريش أداة أخذ وإعطاء تعمل بمجهود جبار على التوحيد والتهديب ، حتى تهذبت عبارتها وترقى أسلوبها واتسعت لغتها وصارت أوفى بتأدية المراد من غيرها ، وأصبحت لهجة مكة — وهي حاضرة العرب وبلدة قريش — أوضح اللهجات بيانا وأعذبها أسلوبا وأخفها منطقاً وأوسعها فهماً ، شأن اللهجات في حواضر المدن وقواعد الممالك ، تجد لها من الحلاوة والطلاوة مالا تجد لغيرها في سائر مدنها وجميع قراها ، ثم لم تك قريش محل وفادة فحسب ، بل كانت بحكم عملها التجاري ، لازال تقطع بلاد العرب برحلة الشتاء والصيف إلى اليمن جنوباً والشام شمالاً ، فتغزو بهاتين الرحلتين وبغيرهما إلى غير هذين الاقليمين ، ما تصادفه من خلاف ، غزوا يكسر من حدته ويقل من غربه ، فإذا هو مستكين ضعيف يتوارى ثم لا يلبث أن يزول .

٢ — الأسواق

جمع سوق وهي مجتمع الناس أصلاً للبيع والشراء ، وكانت للعرب أسواق عامة يبدؤون التنقل إليها منذ أوائل سنتهم ، فلا يزالون يسيرون إليها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، حتى ينتهوا من سوق صنعاء بانتهاء رمضان ، فتعتمد جميع القبائل إلى الاستعداد خلال شوال للرحلة إلى سوق عكاظ ، فيعمرونها من أول القعدة إلى عشرين منه ، ثم يغادرونها إلى محجة قرب مكة بقية القعدة ، ومن محجة يذهبون أول الحجّة إلى ذي المجاز ، بجانب عرفة لا بمنى كما قد يقال ، ومنها يكون المنصرف إلى الموقف الأعظم في عرفات ، وبالصدور منه ينفرط عقد الناس

ولما كانت هذه الأسواق الثلاث قريبة المكان من مكة وقريبة الزمن من موسم الحج ، كانت أعظم الأسواق جمعا لقبائل العرب المتباعدة مقاما ونسبا ، وكل مجتمع

كهذا لا يخلو — والناس يزحم بعضهم بعضا — من بادرة غضب أو سابقة قول ، وما أسرع تجمع الناس والتفافهم حول المختلفين ، فيرى كل من المتنازعين حوله من الخلطاء والبعداء ما يطلق من لسانه ويثير من انفعاله ، فيقول ويفخر ، والجموع مشار القول والفخر ، ثم ينصرفان وفي نفس كليهما موطن لم يبلغه ، فيعود هو وأحد عشرته إلى السوق من عامة القابل ، وقد أعد قولاً يرد به على منازعه ويستكمل به نقصه ، وهكذا بدأ الاتجار بالكلام في الأسواق ، وما زال آخذاً في الازدياد حتى كان خير بضاعة ، أو هو البضاعة النافقة في هذه الأسواق ، وأخصها عكاظ ، فقد اعتادت القبائل أن تعد للقول بها عدته وللفخر آيته ، فيستمع المحكمون ويقدمون أو يؤخرون ، وفي هذا من الباعث على الروية في القول والتخير للنظم ، ما رفع من صناعة الكلام وجعل التروى من عادة الكثيرين ، وقد كانوا من قبل ينطقون به دون سبق روية أو تفكير ، وشتان ما بين البديهة — وإن وافقت الصواب — وسداد البصيرة وهدى التفكير .

وإذ كان الشعراء والخطباء ، وكل ذى كلام يريد له سعة فهم وكثرة ذبوع — ولا بد أن يريد — يرون لغة قريش أوفى اللغات بهذا ، فقد انشأوا إليها جميعاً يستوحون فصاحتها ويأمنونها ، ويستمدون قوتها وسلطانها ، حتى غطت على جميع اللهجات ، فأصبحت العلم الذي بنوره يهتدى ، والامام الذي بقوله يقتدى . عرف العرب لها ذلك واعتقدوه في المحاكاة والتقليد ، فأخذوا يتقربون بلغاتهم إليها وكانت الأسواق من أقوى العوامل على هذا التقريب ، حتى قارب توحيد اللهجات التام ، واستعد العرب لفهم القرآن الكريم الذي نزل بلغة قريش ، ولمعرفة مواطن الأعجاز فيه ، فلم يبق بعد نزوله إلا القليل من اللهجات .

اختلاف اللهجات

ليس أمامنا من قول في اختلاف اللهجات — بعد الذي قدمنا من أن عوامل التهذيب قد تغلغت في اللغة فنقتها وهذبناها ، ووحدتها في مجموعها وقربتها ، وجعلت لغة قريش معروفة للجميع . يمتلكون زمامها ويفضلون القول بها على غيرها — سوى أن نذكر بعض هذه اللهجات لتضم إلى ما قدمنا منها في الإبدال .

١ - لليمن

١- تلتلة بهراء . وهى كسر حروف المضارعة إلا همزة إخال فائها علمة الكسر لدى الجميع .

٢، ٣- وهم كلب ووكمها . والأول كسر هاء الغائب دون أن يسبقها كسر ولاياء ساكنة . والثانى كسر كاف المخاطب بعد الكسرة والياء الساكنة وقبل ميم الجماعة .

٤، ٥- استعمال « ذو » وفروعها بدل الذى وفروعها عند طيء . وفتح عين الناقص المكسورة عندهم أيضا .

٦- حذف نون اللذين واللتين رفعا عند بلحارث من مذبح

٧- إعراب المثنى بالألف عند بطن من كلب يدعى ربيعة

٨- حذف بعض الحروف دون علة عند أزد الشحروعان ، مثل « مشالله » فى « ما شاء الله » وتسمى اللخلخانية .

ب - لمضر

١، ٢- ضم هاء الغائب بعد كسر أو ياء ساكنة عند الحجازيين . والزامهم ما النافية عمل ليس

٣، ٤- عدم إعمال ما عمل ليس مطلقا عند تميم . وقصر أولاء الاشارية . ومد ألى الموصولة عندهم أيضا .

٥- اختلاس هاء الغائب أو تسكينها بعد حركة ، عند بنى كلاب وبنى عقيل .

٦- إجراء الدين مجرى جمع المذكر رفعا عند بنى عقيل وهذيل

٧- قلب ألف المقصور ياء إذا أضيف إلى ياء المتكلم مع إدغامها فيها عند هذيل .

ج - لهجات غير مقيدة بيمن أو مضر

١- إعراب الأسماء الخمسة بالحركات مقدرة على الألف أو ظاهرة على عنها .

٢- إعراب المنقوص نصبا كاعرابه رفعا وجرا

- ٣- إلحاق الضمائر بالفعل على أنها علامات ثنية وجمع
 - ٤- زيادة حروف لين باشباع الحركات في المد
 - ٥- تريقق المفخم بطريق الأمالة من الفتح إلى بين الفتح والكسر
 - ٦- تسكين بعض المتحرك بدون علة ، كالعين في معكم
 - ٧- الاختلاف في نوع حركة أحد الساكنين حين التخلص من التقاءهما
 - ٨- » » التذكير والتأنيث حيث لا يجب أحدهما
 - ٩- » » الهمز والتسهيل
 - ١٠- » » الفك والادغام
 - ١١- » » صيغ جموع التكسير للكلمة الواحدة
- هذا ومن الاختلاف أيضا اختلاف القبائل في معاني الألفاظ اختلافا نشأ عنه الترادف والاشتراك والتضاد ، وقد تقدم وجه الرأي فيها .

معارف العرب في الجاهلية ومعتقداتهم

ينبغي لمن يتعرض لهذا الموضوع بالكلام ، أن يصدره بأمرين جديرين بالعناية هما ،
 أولا : أن المقصود من كلتي معارف ومعتقدات ، ليس ما يفهم من كلتي علوم
 وأديان بالمعنى الذى يعرفه الناس ، لأن الحياة البدوية الجاهلية تأبى هذا الاطلاق ،
 فما كان علم عن غير حضارة ، ولا كان دين بغير دعوة ، وكلا الأمرين لم يك موجودا
 في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، الا في أجزاء قليلة من أطرافها لا يصح تغليبها على المجموع
 الكثير منها ، ولهذا اخترت الكلمتين السابقتين في العنونة له دون أختيهما اللاحقتين .
 وثانيا أن ما عرف من ذلك لم يك مرجعه الأثر والحفر أو التدوين القديم ، كما هى
 الحال في بعض التواريخ ، فان العرب كانت بعيدة إذ ذاك عما تستلزمه هذه الأشياء ،
 من تقدم في الصناعة ومعرفة بالكتابة ، إنما كان مأخوذا مما نطقوا به في أشعارهم
 وما قصه القرآن من أحوالهم ، وهو لا يعدو في المعارف نتيجة التجربة ، وفي المعتقدات
 أثر العادات ، إلا ما أخذوه في النوعين عن غيرهم من الأمم ذات الحضارة أو الدين

أو الاثنين معا ، كالروم والفرس واليهود بحكم المخالطة والجوار كما سنقصه بعد بالاجمال .

أولا - المعارف

١- السماء وكائنات الجو

لعل خير معارفهم في الجاهلية ، علمهم بالسماء وكائنات الجو لارتباط ذلك بمعاشهم من حيث توقف حياتهم على المطر وهدايتهم على النجوم ، وقد استعانوا على كثير من هذا العلم بالكلدانيين وهم بقايا كهنة بابل عباد الكواكب ذوى المهارة فيه ، ويعرفون عند العرب بالصابئة ، وإلى هذا يرجع السبب في اشتراك كثير من ألفاظه ومصطلحاته بين العربية والكلدانية

وقد عرف العرب الأفلاك ، وهى مدارات السيارات ، وكثيرا من الكواكب والنجوم ، وعرفوا السيارات السبعة ، وهى الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل ، وكذا البروج الاثنى عشر ، وهى مايقع من الكواكب والنجوم فى سمت مدار الشمس ، وسموها بأسماء الصور التى تشابهها من بعض الحيوان أو النبات أو الأدوات ، وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت ، كما عرفوا منازل القمر الثمانية والعشرين ، وهى الكواكب والنجوم التى تقع فى سمت مداره ويقطع كل منزلة منها فى ثلاث عشرة ليلة ، وقسموها على الفصول الأربعة الشمسية ، فجعلوا لكل فصل سبع منازل وهى بالترتيب : السرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع للربيع ، والنثرة والطرفة والجهة والزبرة والصرفة والعواء والسمك الأعزل للصيف والغفر والزباني والا كليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة للخريف ، وسعد الدابع وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرغ الأول والفرغ الثانى والريشاء للشتاء وهم يسمون هذه المنازل بالأنواء ، والنوء عندهم النجم يسقط تحت الأفق الغربى مع الفجر ويطلع رقبه فوق الأفق الشرقى من ذلك الوقت

ولما كان الذى يهمهم هو المطر وما يتبعه من رياح وحر أو برد ، قسموا السنة

من حيث المطر سبعة فصول سموها بأسمائه وهى بالترتيب : البدرى ، وأنواؤه ثلاثة تبدأ بالفرغ الأول ، خامس منازل القمر فى فصل الشتاء ويليه الوسمى أربعة أنواء ، والولى عشرة ، والغمير أولمء أربعة ، والبسرى اثنان ، وبارح القيظ ثلاثة ثم إحراق الهوى وهو اثنان ، وعلى ترتيبها هذا يبدأ المطر ضعيفا ثم يأخذ فى التزايد حتى يبلغ أشده فى الولى ثم يعود إلى التناقص حتى يكون الجفاف .

٢ - البيطرة والطب

ومن خير معارفهم بعد النجوم البيطرة ، وهى تطبيب الدواب من إبل وخيل ، لشدة حاجتهم إليها وبخاصة الخيل ، فقد بلغوا درجة كبيرة فى تعرف أمراضها وعوارض هذه الأمراض وكيفية معالجتها ، وساعدتهم على ذلك واسع علمهم بصفات وطبائعها مما استفادت بحوثه وأمد الرواة بالتأليف فيه ، ويغلب أن يكون علم البدو بكثير من ذلك إلى الآن موروثا عنهم .

أما طب الانسان فلم يك عندهم فيه شيء ذوبال إلا ما كان من الحى والبتى ، ولكن فى أواخر الجاهلية ظهر فيهم بعض الأطباء ، كالحارث بن كلدة الثقفى الذى تعلم الطب فى فارس وزاوله ببلاد العرب ، وهو صاحب المحاوراة الطبية المشهورة مع كسرى ، وقد سأله فيها عن كثير من قضايا الطب فجاءت إجابته عنها أشبه برسالة طبية ذات قيمة^(١)

(١) من هذه المحاوراة وهى طويلة أن كسرى قال له

كيف بصرك بالطب قال ناهيك ، قال فما الداء الذى قال إدخال الطعام على الطعام ، هو الذى يفنى البرية ويهلك السباع فى جوف البرية ، قال فما الحمرة التى تصطم منها الأدوية قال هى التخمة ، إن بقيت فى الجوف قتلت وإن تحللت أسقت ، قال صدقت فما تقول فى الدواء قال ما لزمك الصحة فاجتنبه ، فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ، فإن البدن بمنزلة الأرض ، إن أصلحتها عمرت وإن تركتها خربت ، قال فأى اللحوم أفضل قال الضأن الفقى ، والقديد المالح مهلك للأكل ، قال فما تقول فى الفواكه قال كلها فى إقبالها وحسين أوانها وارتكها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها ، قال فما تقول فى شرب الماء قال هو حياة البدن وبه قوامه ينفع ما شرب منه بقدر الحاجة ، قال فما طعمه قال لا يتوهم له طعم إلا أنه مشتق من الحياة ، قال فما لونه ، قال اشبهه على الأبصار لأنه يحكى لون كل شيء يكون فيه ، قال أفتامر بالحقنة قال نعم قرأت فى بعض كتب الحكماء أن الحقنة

هذا وإن جهل العرب بالطب لم يمنعهم أن يعرفوا كثيرا من أسماء العلل وسبباتها ، والأمراض وعوارضها ، كما تدل على ذلك ألفاظهم الموضوعة في هذا الباب .

٣- التاريخ والانساب

لم يك عندهم شيء ذو نظام من علم التاريخ ، إنما كانت لديهم أخبار مقتضية متوارثة وقفوا عليها بمجاورتهم للفرس والروم ومخالطتهم لليهود ، وبما أسس في أطراف جزيرتهم من ملك ، وبعث هناك من أنبياء ، وبالرغم من أنهم بكرروا في وضع شهورهم القمرية ، وفي علمهم بالسنة الشمسية ، لم يستخدموا التاريخ بالسنين كما فعلت الأمم حولهم مكتفين بقولهم للزمن القديم « عادي » وللاقدم منه « زمن الفطحل » ومستغلين عظام الحوادث للتاريخ ، وكلما جدت حادثة عفت على سابقتها وهكذا بقوا حتى جاء الاسلام .

وبمقدار اضطرابهم في التاريخ كانت دقتهم في الأنساب فقد كانوا يلمون بها الإماما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وكان أعلي النسب عندهم الشعب ومنه تنشعب القبائل ، ومن القبيلة تكون العماير فالبطون فالأنفاز وليس بعد الفخذ إلا الفصيلة . ولقد كان فيهم نسابون تعيا الدفاتر ولا يعيون ، وتضل الكتب ولا يضلون ، ساقهم إلى ذلك حرصهم على سلامة أنسابهم وبقاء أحسابهم ، لحاجتهم إلى النسب في اللقائلة والمناصرة ، وإلى الحسب في المفاخرة والمناصرة ، مع شدة طلبهم للشار وعدم التواني في أخذه ممن هو محله أو هو منه قريب (١)

تنقى الجوف وتسكح الادواء عنه والعجب لمن احتقن كيف يهرم ، قال فما الحمية قال الاقتصاد في كل شيء فان الأكل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها ويسد مسامها . قال كسر : لله درك من أعرابي ، لقد أعطيت علما ، وخصصت فطنة وفهما . وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به .

(١) قال ابن عباس ، حدثني علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه قال ، لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب وأنا معه وأبو بكر ، فدفننا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر وكان نسابة فسلم فردوا عليه السلام فقال ممن القوم قالوا من ربيعة ، فقال أمن هامت أم من لهازمها قالوا من هامت العظمى

٤ - القيافة والعيافة

القيافة أصلاً الاهتداء بآثار الأقدام على أربابها ، غير أنهم توسعوا فيها فجعلوا منها الاستدلال بهيئة الانسان وأعضائه على نسبه ، وتسمى الأولى قيافة الأثر ، والثانية قيافة البشر ، وقد كانوا في الأولى يعيزون بين أثر الرجل والمرأة ، والشيخ والشاب ، والبصير والأعمى ، والأحق والكيس ، وكذلك كانوا يفعلون في الحيوان . وكانوا في الثانية ينظرون عدة أشخاص مجهولى النسب لهم فيلحقون كلا برهطه وعشيرته ، فإذا كانوا من رهط واحد ألحقوا الابن بأبيه والأخ بأخيه ، والقريب بقريبه . وقد اشتهرت بهذا النوع قريش ، واشتهر بالنوع الأول بنومدلج ، وهم بطن من كنانة ، كما اشتهر من

قال فأى هامتها العظمى أنتم قالوا ذهل الأكبر ، قال أفمنكم عوف الذى يقال له « لاجر بوادى عوف » قالوا لا ، قال أفمنكم بسطام ذو اللواء ومتهى الأحياء . قالوا لا ، قال أفمنكم جساس حامى الدمار ومانع الجار قالوا لا ، قال أفمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها قالوا لا ، قال أفمنكم المزدلف صاحب الهامة الفردة قالوا لا ، قال أفمنكم أخوال الملوك من كندة قالوا لا ، قال أفمنكم أصهار الملوك من لحم قالوا لا . قال فلستم ذهلاً الاكبر أنتم ذهلاً الأصغر ، فقام اليه غلام تد بقل وجهه يقال له دغفل فقال .

إن على سائلنا أن نسأله والعبء لا تعرفه أو تحمله

يا هذا إنك قد سألتنا فلم نكتك شيئا فن أنت ؟ قال رجل من قريش ، قال بخ أهل الشرف والرياسة فن أى قريش أنت ، قال من تيم بن مرة ، قال أمكنت والله الرامى من صفا الثقرة ، أفمنكم قصى بن كلاب الذى جمع القبائل من فهر وكان يدعى بجعا ، قال لا ، قال أفمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف قال لا ، قال أفمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الذى كان فى وجهه قر يضىء فى ليل الظلام الداجى قال لا ، قال أفمن المفيضين بالناس أنت قال لا ، قال أفمن أهل الندوة أنت قال لا ، قال أفمن أهل الرفادة أنت قال لا ، قال أفمن أهل الحجابة أنت قال لا ، قال أفمن أهل السقاية أنت قال لا ، قال على فاجتذب أبو بكر زمام ناقته فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دغفل .

صادف درء السيل درء ايدفعه يهيضه حيناً وحيناً يصدعه

أما والله يا أخا قريش لو ثبت لأخبرتكم أنك من زمعات قريش ولست من الدواب ، أو ما أنا بدغفل ، قال فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلت لأبى بكر لقد وقعت من الاعرابى على باقة ، قال أجل إن لكل طاقة طاقة وإن البلاء موكل بالنتطق .

غيرهما في النوعين أفراد كثيرون . وكلاهما ضرب من الفراسة بقوة الحدس وصدق الخيال ، أوجده في المستعدين منهم احتياجهم إلى تعرف الآثار وحقيقة الأنساب ، والحاجة كما يقولون تفتق الحيلة بل هي أم الاختراع ، وإن المطلع على ماروى من هذا عنهم ليناله الدهش الكبير^(١)

أما العيافة فأصلها الاستدلال بأسماء الطيور وسقوطها وارتفاعها على مايتفاعل به أو يتشائم منه ، ولكنهم توسعوا فيها أيضا ، حتى تعدت الطير إلى غيره من حيوان ونبات وجماد ، وتعدت ماتقدم من الأسماء والسقوط والارتفاع إلى الأصوات والحركات وسائر الأحوال والصفات ، وهي كالقيافة ضرب من الفراسة بقوة الحدس وصدق الخيال ، وقد اشتهرت بها قبائل أخصهم بنو لُهب وهم بطن من الأزد وأفراد آخرون . وكان من عادتهم في عيافة الطير أن يزجروا على السانح ويتبركوا به ، وهو

(١) فن قيافة الأثر ماروى عن أولاد زرار بن معد بن عدنان، وكان قد أوصاهم إذا اختلفوا في قسمة ماله من بعده أن يذهبوا إلى الأفمى الجرهمى ليقضى بينهم، فاختلفوا وذهبوا ، وبيناهم في طريقهم رأى مضرا أثر كلاً قد رعى ، فقال إن البعير الذى رعى هذا الأعور وقال ربيعة إنه لأزور . وقال إياد وإنه لأبتر : وقال أثمار وإنه لشروود . ثم ساروا قليلا فإذا هم برجل يتشد جملة ، فسألهم عنه فوصفوه بما قالوا . فقال الرجل هذه والله صفة بعيرى فدلوني عليه فقالوا والله ما رأيناه فقال هذا والله كذب كيف أصدقكم وأتم تصفون بعيرى بصفته ، وتعلق بهم حتى قدموا إلى الأفمى بنجران فقال له الرجل ، هؤلاء أخذوا جملى ووصفوا لى صفته ثم قالوا لم نره وخاصصهم إليه ، فقال لهم الأفمى كيف وصفتموه ولم تروه . فقال مضرا رأيت رعى جانبا وترك جانبا فعلمت أنه أعور . وقال ربيعة رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدته فعلمت أنه أزور لأنه أفسده بشدة وطئه لازوراره . وقال إياد عرفت أنه أبتر باجتماع بعره ولو كان ذبيلا لمصع به . وقال أثمار عرفت أنه شروود لأنه كان يرعى فى المكان الملتف نبتة ثم يجوزه إلى مكان أرق منه وأخبث نبتا . فقال الأفمى للرجل ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه . ثم سألهم عن حاجتهم وجال معهم فيها جولة ليست من موضوعنا . ومن قيافة البشر ما حدث من عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان من رجالها الذين يقضون بها وينزلون على حكمها فى الانساب ، لما يترتب عليها من الحرمان أو المنح أو التقليل أو التكثير فى الأعطيات - روى أن قوما أتوه يزعمون أنهم من قريش ليثبتهم فيها ويعطيهم كما يعطيها ، فقال اخرجوا بنا إلى البقيع ، فخرجوا فنظر إلى أكفهم ثم قال اطرحوا العطف فطرحوها ، ثم أمرهم أن يتقبلوا ويدبروا ففعلوا وأذاك أقبل عليهم فقال ، ليست بأكف قريش ولا شمائلها ، وأعطاهاهم غير عطاها .

ما أراك مياسره فأمكن الصائد منه ، ويكرهوا البارح ويتشاءموا منه ، وهو ما أراك
ميامنه فلم يمكن الصائد منه ، وهذا من زجر الطير سقوطا وارتفاعا . وكثيرا ما كانوا
يزجرون بالأسماء فيجعلون الهدهد هدى وهداية أو يأخذونه من الهد والالتلاف ،
كما يأخذون الحمام من حم اللقاء أى قرب أو من الحمام وهو الموت ، ويجعلون العقاب
عقبى خير أو عقبى شر ، وكذلك فى سائر الطير إلا الغراب فانهم لا يخرجون فيه عن
التطير والتشاؤم ، فيجعلونه من الاعتراب ويسمونه غراب البين ، كما يسمونه حاتما
لأنه يحتم عليهم بالفراق والأعور تطيرا عليه إذ كان أصح الطير بصرا ، ولعل ذلك
أتاه من تعوده الوقوع فى مواضع الدور يتلمس إذا بان أهلها للنجعة ، وبعضهم كان
يضم إليه فى الرحلة والنوى التطير بالأبل لأنها المفرقة للآلاف ، ولكن ذلك لم يك
بالكثير المقبول إذ أنها من جانب آخر آلة الوصلة واللقاء (١)

(١) من العيافة بالطير على سبيل التشاؤم هذه الأبيات فى الحمام
وقدماها جنى فازدت شوقا بكاء حمامتين نجاوبان
نجاوبتا بلعن أجمى على عودين من غرب وبان
فكان البان أن بانت سلمى وفى الغرب اغتراب غير دان
ومنها فيه على سبيل التفاؤل هذا البيت
وقالوا حمام فلت حم لقاؤها وعاد لنا ربح الوصال يفوح
وكذلك كانت الحال فى سائر الطير تشاؤما أو تفاؤلا ، إلا الغراب فانهم كانوا لا
يتفاؤلون به قط ويقصرون زجره على التشاؤم ويسمونه حاتما لأنه يحتم عليهم بالفراق ،
والأعور تطيرا عليه إذ كان أصح الطير بصرا ، وهذه الأبيات تدل على مقدار تشاؤمهم منه .
إذا ما غراب البين صاح فقل له ترفق رماك الله يا طير بالبعد
لأنت على العشاق أقبح منظر وأبشع فى الأبصار من رؤية الاعد
تصبح بسبين ثم تعثر ماشيا وتبرز فى ثوب من الحزن مسود
متى صحت صح البين وانقطع الرجا كانك من يوم الفراق على وعد
ومن العيافة بغير الطير قولهم فى الأبل على سبيل التشاؤم
ما فرق الآلاف به د الله إلا الأبل
وما غراب البين إلا لا ناقة أو جل

وقولهم فيها على سبيل التفاؤل
ألا فرعى الله الرواحل إنما مطايا قلوب العاشقين الرواحل
على أنهم الواصلات عرا النوى إذ ما نأى بالآلفين التواصل

٥ - العرافة والكهانة

العرافة هي القضاء بالغيب ، وكذلك الكهانة ، لافارق بينهما ، غير أن من الناس من قصر العرافة على تعرف ما خفي من حوادث الماضي ، وجعل الكهانة للتكهن بما عسى أن يكون في المستقبل ، ولكن لم نجد أثرا بيننا يسمح بهذا التخصيص ، وكل ما يمكن أن يعد فاصلا بين النوعين ، هو أن العراف كان دائما أقل من الكاهن وكان يستخدم خبرته غالبا في معالجة بعض الأمراض ، ولهذا كان مقصد المرضى وذوى الأسقام ، يؤيد ذلك ماورد من أشعار ، ومن أشهر العرافين بالتطبيب - والغالب هنا التطبيب الروحاني - رباح بن عجلة باليمامة ، والأبلى السعدى بنجد ،^(١) أما الكاهن فكان يفرع إليه في تعرف الحوادث ، ويقصد في المنافرة والخصومة للقضاء فيها بالحق من إدراك غيبه ، وكان من أشهر الكهنة في العهد الجاهلى ، سطيح بن مازن الغسانى ، وشق بن أثمار النزارى . وسواد بن قارب الدوسى . والكتب الأدبية والتاريخية ملأى بحوادثهم وحكاياتهم .^(٢)

(١) مما قيل في هذين العرافين هذه الآيات لعروة بن حزام صاحب غفراء

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني
فقالا نعم نشفى من الداء كله وقاما مع العواد بيتدران
فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة الا وقد سقياني
فقالا شفاك الله والله مالنا بما ضمنت منك الضلوع يدان

(٢) من كهانة شق وسطيح معا ، وكانا في عصر واحد ، مارواه الرواة وأشار إليه ابن خلدون ، من أن ربيعة بن مضر اللخمي ، رأى مناما ماله وأراد تفسيره ، فقال له أهل مملكته لا يفسره لك الا شق وسطيح ، فأحضرهما ودعا بأحدهما فقال ، إنى رأيت مناما هالتي فان عرفته فقد أصبت تفسيره ، ثم قال رأيت جمجمة خرجت من ظلمه ، فوقعت بارضهم ، فأكل منها كل ذى جمجمه ، قال ما أخطأت شيئا ، قال فما تفسيره قال ، لتبهطن بارضك الحبش ، وتملك ما بين أبين إلى جرش ، فقال الملك إن هذا لغائظ ، وجمع فتى هو كائن أقى زمانى أم بعده ، قال بل بعده ببحن ، أكثر من ستين أو سبعين تمضى من السنين ، ثم يقتلون بها أجمعين ، ويخرجون منها هارين ، قال ومن الذى يملك بعدهم ، قال أراه ذا يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فما يترك أحدا منهم بالين ، قال الملك فيدوم ذلك أم ينقطع ،

هذا ويعمل العلماء الآن لحواشي الكهانة - التي لاشك في صدق بعضها لدى العرب وغيرهم من الأمم القديمة في مصر واليونان والرومان والهند والصين - بارجاعها إلى ما أثبتته العلم الحديث من السبات المغناطيسي ، وهو عبارة عن تخدير يحدث في الجهاز العصبي الحسي ، وتنفصل على أثره النفس من الجسم ، فلا تبقى مرتبطة به إلا ارتباطا خفيفا ، لأنها بهذا الانفصال تعود إلى جانب من حريتها الأصلية ، فتبدو منها تلك الإدراكات الغريبة التي عجز الماديون عن شرح علمها ، والتي نسبتها الأديان في رأيهم لتقريبها لأذهان الناس ، إلى الملائكة أو الشياطين ، ثم يقولون : ولما كان انفصال الروح عن الجسم لا يبلغ منتهاه مهما كانت درجة السبات إذ نهايته الحققة لا تكون إلا بالموت ، كان من الحتم أن يبقى شيء من الرابطة يعكس صفو هذا الانفصال ، فيتسرب الكذب إلى كثير من مدركات الناعمين ، ومنهم الكهنة والعرافون الذين كانوا يلقون أنفسهم في السبات ، لما ثبت من أن الاستعداد الشخصي في النائم والمنوم قد

قال بل ينقطع ، قال ومن يقطعه ، قال نبي زكي ، يأتيه الوحي من العلى ، قال ومن يكون هذا النبي ، قال من ولد عدنان من فهر بن مالك بن النضر ، يكون في قومه الملك آخر الدهر ، قال وهل للدهر من آخر ، قال نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ويشقى المسيئون . قال أوحى ما تخبر به . قال والشفق والقمر إذا اتسقا ، إن ما أنبأتك به لحق . قال الرواة ثم دعا بالآخر فسأله فقال مثل الذي قال صاحبه .

ومن كهانة سواد ما ذكره الرواة من أن خمسة نفر من طيء من ذوى الحجا والرأى ، منهم عارف الشاعر ، قصدوا إليه ليمتحنوا علمه ، وخبا كل منهم خبيثا ليسأله عنه . فلما دخلوا عليه سأله كل منهم عن خبيثه فأجابه عنه كأنه هو الذي خبا به بيده في إجابة طويلة مسجوعة شأن الكهان فقالوا صدقت وأنت أعلم من تحمل الطريق ، وارتحلوا عنه وعارف يقول .

الا لله علم لا يجارى إلى الغايات في جنبي سواد
أتيناه نساؤه امتحانا ونحسب أن سيعمد بالعناد
فأبدى عن خفي مخبثات فأضحى سرها للناس باد
حسام لا يليق ولا يثانى عن القصد الميم والسداد
كأن خبيثنا لما اتحنينا بعينيه يصرح أو ينادى
فأقسم بالعتاثر حيث فلس ومن نسك الا يقصرم العباد
لقد حزت الكهانة عن سطوح وشق والمرفل من إباد

وقد ظهر حديثا أن التكهن يقع من السكاكن عن طريق إلقاءه نفسه في السبات المغناطيسي ،

يجتمع في بعض الناس ، ومن ثم نهت الشرائع عن الركون إلى السكينة وكانت العقيدة الحقة أن الله سبحانه هو وحده المستأثر بعلم الغيوب .

٦ - الخط العربي

قد كان يحمل بنا ألا نعد الخط العربي من معارف العرب الجاهليين في شيء ، لأنهم كانوا أميين في عموم البدو ، ومن قرأ أو كتب في حضرم كان خطه قاصراً وقراءته غير نافذة ، ولكن وجوده فيما تحضر من دولهم قديماً باليمن والحيرة ، ولهجه في لغتهم بكثير من الألفاظ الموضوعية له ولأدوات الكتابة ولو لم يعرفوها ، إلى ما كان لهم فيه من شأن بعد الاسلام ارتكز على الخط الحيري القديم ، كل هذا جعلنا لا ندعه دون كلمة عنه تعتبر تاريخية في هذا الموضوع ، فنقول

لا خلاف في أن منشأ الخط العربي القديم كان ببلاد اليمن ، في الخط المعروف بالمسند ، الذي ساد بها على عهد السبئيين والحميريين ، وهذا المسند يرجع إلى الأرامي وهو خط المعنيين أقدم الأمم الآرامية نزوحاً إلى هذه البلاد ، والأرامي مقتبس من الفينيقي المأخوذ من الخط المصري القديم ، ولما انتقلت كندة - وهي من كهلان إلى شمال الجزيرة العربية - انتقل معها المسند فعرف بالكندى ثم بالنبطي نسبة إلى جيل عربي عرفه منها هناك ، ومن كندة والنبط أخذاه أهل الحيرة وبنار فنسب إليهما ، وعنهما نقله إلى مكة بالحجاز حرب بن أمية قبيل الاسلام ، فتعلمه عدد من أهلها كان منهم كتاب الوحي على عهد رسول الله ، وبعد تأسيس الكوفة على مقربة من الحيرة عرف الخط الحيري باسم الكوفي ، ثم أخذ يزداد زخارف وأنواعاً على توالي الحضارات الإسلامية حتى وصل إلى ما نراه الآن .

حيث تنفصل النفس عن الجسم إلى حد ما ، إذ ثبت أن صفتي النوم والنائم قد تتفقان لشخص واحد ، أما خطؤه أحياناً فممنشؤه أن انفصال الجسم لا يتم تماماً إلا بالموت ، وأنه مادامت هناك صلة فإن الخطأ لا محالة واقع ، ومن ثم نهت الشرائع عن تصديق الكهان .

ثانيا - المعتقدات

كان للعرب في جاهليتها معتقدات شتى بعضها يجري مجرى الشريعة والمذهب هي الأديان ، وبعضها يجري مجرى العرف والعادة هي الأوابد .

١ - الأديان

ففي الأديان كانوا كثيرى المذاهب إلى الحد الآتى :

١ - عبدة الأصنام وهم الغالية العظمى ، وعقيدتهم الاقرار للخالق بكل شىء ، ولكنهم ينكرون البعث وإرسال الرسل ويعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى .

٢ - عبدة الشمس أو القمر أو النجوم ، وعقيدتهم كعقيدة عباد الأصنام وكذلك موقفهم في عبادتها فهم يتخذونها قربى إلى الله لأنها من دلائل عظمته وباهر آياته .

٣ - عبدة الملائكة طمعا في خيرها والشرها ، ولأنها جند الله ، وهم في العقيدة كالسابقين . ومثلهم عبدة الجن على أن فيها الخير والشرير .

٤ - عباد النار كالحجوس ، وقد سرى إليهم ذلك من الفرس . وبيوت النار عندهم كبيوت الله عند ذوى الكتاب .

٥ - الصابئة وهم عباد الفلك الذين يعظمون بروج الشمس الاثنى عشر والنواكب السبعة السيارة ويثبتون لها ما يثبت الموحدون لله ، وقد سرى هذا المذهب إليهم من سكان بابل القدماء ، هذا على أنه قد كان في الصابئة قبل الاسلام من عدل عن هذا إلى دين إبراهيم ، كما كان فيهم بعده من هو شديد الميل إلى دين المسلمين ، ولذلك ذكروا في بعض الآيات على أن منهم المؤمنين .

٦ - الثنويون وهم القائلون بأن الإله اثنان ، إله خير هو النور ، وإله شر هو الظلمة ، وأنهما قديمان ، ثم يثبتون لهما من الصفات ما يثبت المؤمنين لله ، وهؤلاء كالزنادقة .

٧ - البهريون ومذهبهم إنكار الخالق والبعث ، على أن الطبع يحى والدهري يفنى

٨ - اليهود وكانوا في يثرب واليمن .

٩ - النصارى في الشمال من ربيعة وغسان وفي الجنوب في نجران .

١٠ - الموحدون وكانوا آحادا يدينون بما تسرب إلى العرب من ملة أبيهم إبراهيم ، والمعروف منهم قليل كالأموار الحارثي ، وقس بن ساعدة الأيادي .

ب - الأوابد

وكذلك كانت لهم أوابد كثيرة ينزلون على حكمها ويعملون بها ، وأهمها :

١ - استقسامهم بالأزلام ، وهي قداح مكتوب على كل اثنين منها الأمر وضده كسافر أو لا تسافر مثلا ، فإذا ما أراد أحدهم شيئا ذهب إلى سادن الوثن فأخرج له أحدها فعمل بما فيه .

٢ - تفاخرهم بلعب الميسر ، وهو المقامرة بالقداح وعددها عشرة ، الفذ بنصيب والتوأم باثنين والضرب أو الرقيب بثلاثة والجلس بأربعة والنافس بخمسة والمسبل أو المصلح بستة والمعلب بسبعة ثم السفيح والمنيح والوغد ولا أنصبة لها ، إنما كانت تخرج فترد تضليلا لذوات النصيب . فكان من عادتهم إذ أرادوا اللعب أن ينحروا جزورا يقسمونها عشرة أقسام ، ثم يأخذوا في استخراج القداح بعد تقسيمها عليهم ، وكلما خرج قدح أخذ صاحبه نصيبه ، وعمدوا إلى النحر إذا قلت الأنصبة الباقية عن إيفاء أكبر قدح لم يخرج ، وفي هذه الحالة يكون الغرم في ثمن ما ينخر على ذوى السهام الباقية وهكذا حتى تنتهى جميع القداح فتنتهى النوبة .

٣ - حمايتهم البحيرة ببحر أذنبا أى شقها ، وهي الناقة تنتج البطن الخامس ، وكذلك كانوا يحمون السائبة وهي التى يسيبونها لنذر أو شبهه ، والوصيلة وهي أنثى البطن السابع للشاة ، وإذا كان معها ذكر وصلته بالحماية ، وكذلك الحام وهو الفحل يخرج عشرة أبطن .

٤ - إغلاق الظهر ، وهو جب سنام الفحل إذا بلغت الابل مائة ليمنع عنها العين ، ومثل ذلك التفقئة وهي فقء عينه إذا بلغت ألفا ، فإذا زادت عنه كانت التعمية ، وهي الذهاب بعينه جميعا .

٥ - ضربهم الثور لتشرب البقر على زعم أن الجن تركبه فتخيف البقر ، فاذا ضرب ذهبت عنه ، ومثل ذلك كى السليم من الابل أمام الاجرب ليبراً .

٦ - ومن عقائدهم في الميت أن يحتبسوا على قبره ناقة يربطون عنقها إلى ذنبها مع تغطية رأسها فلا تزال كذلك حتى تهلك أو تنجو باعتدال عنقها أو افتكاك رباطها وكانوا يسمونها البلية ويسمون الغطاء الحشية ، ومن ذلك قولهم « رأس البلايا في الحشايا » ، وكانوا يزعمون أن القتل إذا قتل يخرج من رأسه طائر يدعى الهامة فلا تزال تقول « اسقوني اسقوني » طلباً لئله حتى يدرك ، ومن عاداتهم هنا عدم البكاء على القتل مالم يؤخذ بثأره .

٧ - ومن عقائدهم في المدواة تعليق الحلي على السليم وتسهيده سبع ليال ، ووضع منخل على رأس من تصاب شفته بالحلي مع المرور به في الحلي قائلين « الحلي الحلي » ، وكذا تعليقهم للصبى سن الثعلب والهرة وكعب الأرنب دفعاً للنظرة أو الحطف ، ورميهم سن الأتغار في عين الشمس لتأتى بخير منها .

٨ - ومن عاداتهم أيضاً وأد البنات للعار وقتل الأولاد للفقير ، وقد شدد الاسلام النكير عليهم في ذلك .

ومنها إيقاد النيران ، وأشهرها نار القرى ونار الحلف ونار الهداية ونار الحرب ونار الفداء وهذه للنساء خاصة .

١٠ - ١٤ ، ومنها غير ذلك كثير ، كوطء المقلاة دم الشريف ليعيش ولدها ، وشق الرجل برقع محبوبته والمرأة رداء حبیبها لكيلا يفسد العشق ، وكى الأليتين لينذهب العشق ، وذكر الرجل أحب الناس إليه لينذهب خدر رجله ، ومسح الطارف العين المطروفة سبع مرات لتسكن ، وهكذا مما يضيق المقام عن سرده فضلاً عن شرحه ، فليرجع إليه في مظانه علي أنه سيأتى في تدوين الشعر لأحوال العرب الاستشهاد علي كثير من هذا بعد إن شاء الله .

وبعد

فقد آن لنا أن نشرع في الأدب الجاهلي بعد الذي ذكرناه بمثابة المقدمات له ،

غير أن ما جرى عليه بعض الباحثين في عصرنا هذا ، من التشكيك في وصوله إلينا تشكيكا جعله في نظرهم بعيدا عن الثقة به والاطمئنان إليه ، حملني أن أصدر القول فيه بكلمة ترد عليهم شكوكهم وتبرهن علي أنه محل ثقة واعتقاد . كما حملني هذا الأغراب منهم في التفكير طمعا في الأتيان بجديد — وإن لم يك ذلك الجديد بالمقبول — أن أتبعها للرد عليهم أيضا بكلمة أخرى عن بحث لهم ثان ، ارتكبوا فيه مثل هذا الشطط وأشد ، ذلك زعمهم أن الشعر أسبق إلى الوجود من النثر . فهاتان كلمتان جعلتهما في صدر الموضوع وهما من أبحاثه في الصميم .

الأدب الجاهلي

ألنا أن نطمئن إليه ندرسه ونروه

إن لنا أن نطمئن

كانت العرب في جاهليتها أمة فصاحة وكلام ولسن وبيان لامطعن هنا لطاعن ولا جدال ، ساقهم إلى ذلك فطرة فطروا عليها من صفاء خاطر وذراية لسان ، وحفزهم إليه طبيعة عيش اقتضت منهم أن يتغنوا ويرجزوا ويتفاخروا ويتعاضدوا كظوا حتى كان الكلام بضاعتهم النافقة ، تعمربه أسواقهم ويتناقله عنها حداثهم وركبانهم ، فيدوى في أرجاء جزيرتهم دوياء تهتز به رمالها ويضطرب له كل ذى حياة يعيش فيها ، ثم لا يلبث أن تضيق به جوانبها فاذا هو قد جاوزها إلى الأمم الأخرى ، وقدما كان لكل أمة سمة تعرف بها في غيرها وسمة العرب الكلام

كان طبعيا إذن أن تقول العرب وأن تكثر من القول ، وأن يتناول ذلك عصوى الأدب اللتين عليهما نهض من ثر وشعر ، كل في الغرض الذي من أجله كان وله درج ، ولكل مقام مقال ، وكان طبعيا مع هذا أن يتناقل السامعون كلام القائلين خلفا عن سلف ، إبقاء للأغراض التي قيل فيها ومحافظة على المآثر التي سجلها ، فاذا ماضمنا إلى هاتين الطبعيتين ميزتين أخريين ، هما القدرة الفائقة التي كانت معروفة للعرب على الحفظ ، ثم اعتزاز كل قبيلة بمواد حسنها ومفاخرها ضنتها بها أن تدول ، مضافا إليهما ما كانوا عليه جميعا من أمية جعلت دفاتهم رءوسهم ، ودواوينهم حفظ أقوالهم ، كان لنا أن نطمئن إلى أن هذه المناقلة الكلامية تبقى مابقيت هذه العوامل ذات كون وثقة وتأيد ، حتى يطرأ على العرب ما يغير هذه النواميس ويضعها على غيرها ، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن حتى جاء الإسلام

جاء الاسلام والجزيرة العربية تدوى دوى النحل قد ضل غيرانه ، بكل ماثور من القول اعتر به حافظه وحرص عليه سامعه ، إلى درجة لم يلبسهم عنها الاسلام

يحدثه الأجل ودهشته العظمى ، فاستمروا من بعده طويلا يعقدون عكاظهم ويسترسلون في مفاخرتهم ومنافرتهم ، وهل كان الاسلام إلا متحديا لهم في بابهم ومنازلا إياهم من وادهم ، وقد جعل آيته الكبرى القرآن الكريم يساجلهم في الفصاحة ويحاجهم بالبلاغة ثلاثا وعشرين سنة ، حتى امتلك عليهم ناصيتها واستل من أيديهم زمامها ، فألقوا إليه بقياد النثر وعكفوا هم على الشعر ، وهذه إحدى الدواعي التي جعلت مآثور الشعر أكثر من مآثور النثر كما سند كرك ذلك في محاکمتها قلة وكثرة إلى الطبيعة بعد .

قد يقال كان للاسلام أن يغطي على القديم ويخلد الناس عن روايته ، ولكن كيف ، وقد أودع تعاليمه وأحكامه كتاب الله وهو الذروة في البلاغة ، وحديث رسوله وهو المقفى له من بعده ، وليس من سبيل إلى استمرار فهمهما والحرص على عدم استغلاق معنهما ، إلا برواية لغة العرب والمحافظة على تفهم مآثورها ، وهذا لعمري داع ديني دعا إلى الرواية والمدارسة منذ فجر الاسلام ، وناهيك بالوازع الديني وبخاصة في ذاك العهد ، من حاث للهمم إلى العمل ونائل من النفوس مكان التقديس والاحلال .

حرص المسلمون إذن منذ جاء الاسلام على أدبهم حرصهم على دينهم ، وها هو ذا عبد الله بن عباس رضى الله عنه في تفسيره القرآن الكريم ، كان يجلس له ولدراسة الأدب في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتضرب إليه أ كباد الابل من أقصى الجزيرة وأبعد منه ، لسؤاله عن معاني كثير من مفردات القرآن ومحاکمته في معناتها إلى المآثور من كلام العرب ، فيروى في ذلك الكثير من الأشعار ، وما بغائب عنا ما كان لنافع بن الأزرق أحد رؤساء الخوارج إذ ذاك في هذا الباب ومن ثم كانت مذاكرة الأدب القديم على عهد الخلفاء الراشدين ، بل وبألسنة بعضهم ، ثم حذا حذوهم في هذا وبشكل أوسع دائرة وأبعد مدي ملوك بنى أمية ، فكانت مجالسهم مشاراً للأدب يسوق إليه الاستمتاع والاهو والتسلى والقصص ، أو المفاخرة والمنافرة والخصومة واللد ، إلى ما كان قائماً بجوار هذا في البداية ، مما استمر تظهر صورته بعكاظ طويلا ، وبمربد البصرة الذي خلقها إذ ركبت ريحها ، بل بسائر المجالس والمنتديات ، ومن هنا نشأت الرواية بالمعنى الاصطلاحي وكثر الرواة ، ولم نكد كاهل هؤلاء يثقل بالحفظ والتعليق ، حتى انتشرت الكتابة وكان التدوين فرفع

عنهم ما أثقلهم وجعلهم يوجهون جهودهم إلى ما صمدوا له بعد من البحث والتحقيق. هذه طريق لا عوج فيها ولا أمت ، درج فيها الأدب الجاهلي حق وعته بطون الكتب ، فاذا بالكم الندي وصل إلينا منه خاضع في مقاديره لما يقتضيه العقل وتطلبه سنة البقاء . فالشعر وقد صار هم العرب وحده ، لما تقدم من غزو القرآن النثر غزوة قللت من شأنه وصرفت الأذهان عنه ، قد حفظ منه أكثر مما حفظ من النثر الذي درس معظمه قبل أن يتصل بطبقات الرواة ، وإلا وصلنا منه ما تنفد دونه الصحف وتجف المحابر ، لأنه للجماعة ، والشعر لأفراد ، علي أن من الأسباب الداعية إلى قلة مآثوره أيضا ما هو سابق للإسلام ، إذ لاشك أنه أصعب من الشعر حفظا وأبعد استذكاراً ، وهذه نظرية خضع لها النثر في أقسامه ، كما خضع لها أمام الشعر في جملة ، فكان أكثره رواية أيسره حفظا ، إما لقلة ألفاظه وصغر صورته ، كما في الحكم والأمثال التي سهّل على الألسنة تردادها ، وكانت الحوادث تدعو إلى استعمالها ، فوصل منها أكثر مما وصل من غيرها ، علي حين يحزم العقل أنها لا بد كانت قلة في كثرة ونقطة في لجة لصعوبة معالجتها وندرة الأشخاص القديرين عليها ، وإما لأنه مع طوله تقرب إلى الشعر قليلا بالازدواج أو كثيرا بالسجع ، فكان في ذلك الاتزان بالتقسيم والتوافق في التقفى ، ما جعله سهّل الحفظ على الذهن شديد الاعتلاق بالنفس ، ومن ثم تجد المروى من المسجوع أكثر من المزدوج وهذا أكثر من المرسل ، مع أن الطبيعة التي يخضع لها صدور الكلام تأتي إلا العكس ؛ ولكن ما قيل شيء والندي روى شيء آخر ، ومن ثم أيضا لم يصلنا عن الجاهلية من الكلام المرسل إلا القليل مع أنه كان الغالب الكثير ، ولولا أسباب خارجة عن كنهه الواصل حملت على روايته لباد كما باد سائره ، فتعزية أكتّم بن صيفى حكيم العرب لعمر بن هند ملك العرب في أخيه وهي رسالة ، وكلمة قبيصة بن نعيم رئيس وفد بني أسد إلى امرئ القيس حين تهيأ لقتالهم عقب مقتلهم لأبيه وهي رسالة أيضا وفيها بعض ازدواج ، لولا مكانة الحادثين وشخصية من قال ومن قيل له ، لعفتا فيما عفا ، وزالتا فيما زال (١)

(١) عزى أكتّم بن صيفى عمرو بن هند ملك العرب عن أخيه فقال :
أيها الملك إن أهل هذه الدار سفر لا يحلون عقد الرجال إلا في غيرها ، وقد أذاك ما

ولمثل هذه الأسباب الخارجة كان المأثور في السجع عن السكهان أكثر من غيره ، لغرابة موضوعه واتصال بعضه بالعقيدة ، مع مافيه من إطالة التقفيه ، وهذا حكم فيه إن لم يصدق كما صدق نسبة

أفبعد هذه الطريق التي تكنفها الطبيعة ويسايرها العقل ، يطعن في الأدب الجاهلي ويرمى كله بالوضع والاختلاق ، لتوافه زادهافيه بعض الدسائين ، وأساطير وضعها عليه بعض القصاصين ، ومطاعن وجهت إلى آحاد في جمهرة الرواة ، ثم يدعى بجرأة إلى دراسته في أدب صدر الاسلام وعصر بني أمية ، كأن الزمان قد

ليس بمردود عنك وارتحل عنك ليس براجع إليك ، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك ، إن الدنيا ثلاثة أيام . فأمس عظة وشاهد عدل فجعلك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمه . واليوم غنيمه وصديق أتناك ولم تأته ، طالت عليك غيبته وستسرع عنك رحلته . وغد لا تدري من أهله وسيأتيك إن وجدك : فما أحسن الشكر للمنعم والتسليم للقادر . وقد مضت لنا أصول نحن فروعها . فما بقاء الفروع بعد أصولها . واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله .

وقال قبيصة في هذا الحادث وكان ذا بصيرة بمواقع الأمور وردا وصدر لا يرى القيس : إنك في المحل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر ، وما تحدته أيامه وتنقل به أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ولا تذكرة مجرب . ولك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب ، محتمل يحتمل ما حمل عليه من إقامة العثرة ورجوع عن هفوة . ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي وبصيرة النهم وكرم الصفح في الذي كان من الخطب الجليل ، الذي عمت رزقته نزارا واليمن ولم تخصص كندة بذلك دوننا للشرف البارع الذي كان لحجر . كان لحجر التاج والعمدة فوق الجبين الكريم وإخاء الحمد وطيب الشيم . ولو كان يفدى هالك بالانفس الباقية بعده لما بخت كرامتنا على مثله ببذل ذلك ولقد بناه منه . ولكن مضي به سبيل لا ترجع أولاه على آخره ولا يلحق أقصاه أدناه . فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا وأعلاها في بناء المكرمات صوتا ، فقد ناه إليك بنسعة يذهب مع شفرات حسامك فيقول : امتحن بهلك عزيز فلم تسلم سخيتمه إلا بتمكينه من الانتقام . أو فداء بما يروح من بني أسد من نعمها فهي ألوف تتجاوز الحسبة ، فكان ذلك فداء رجعت به الغضب إلى أحفانها . وإما أن توادعنا حتى تضع الحوامل فتسدل الأزرق ونعقد الحجر فوق الرايات . فبكى أمرؤ القيس ثم قال ، لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم ، وأني لن أعتاض به جلا أو ناقة فأكتسب بذلك سبة الأب وفت العضد . وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها ولن أكون لعطيها سببا . .

وقف وكأن شيئا من أحداث الاسلام المزلزلة لم يكن كان . إن هذا لأجحاف بالتفكير وظلم للعقول ، فالأدب الجاهلي كثرة تتضاءل أمامها تلك الزعانف الموضوعة ، وصخرة تنكسر عليها هذه النفاخت الطائرة ، على أنها إذ ألصقت به وهو منها براء ، لم يلتبس الأمر فيها على رواته ، بل مازوها ميز الخبيث من الطيب ، ووسموها بميسم الزيف أمام الجيد الصحيح ، عرفوا ذلك شفاها حيث كان مرجع الأدب الحفظ ، ثم دونوه واضعين أمامه أدلة التزييف حين التدوين ، فما بال المدعين هذه الدعوى ينسبون إليها إلهيم تجديدا ، ويدعونها ابتكارا ، وآثار أقلام الأقدمين من أكثر من عشرة قرون ، تكاد تخرج إليهم من بطون الكتب فتسود عليهم صفحات وجوههم من هول ما يقولون .

أكان ما يقولون حقا ، ولم تفتن إليه الشعوية في القديم ، وقد مكثت قرونا تعير العرب ما شاء لها التعبير ، فتتألمس في كالمها نقصا ، وتجعل ما تظفر به من الحقير عظيما ثم لا تهتدى إلى أن خير ما تفخر به العرب وهو قديم أديها ليس لها ، وإنما هو شيء انتحلته زورا وادعته بهتاناً ، فتقف أمام ذلك لاتقدم رجلا ولا تحير جوابا ، بينا يكفيها نقضه وحده مئونة الكد المتعب والكدح المضى ، ألا إنها وقفت لاعن خفاء وغيب ، ولكن أمام نور بهرها ، وسلطان قهرها ، لم يكدي لصق به كاف من ظلام ، أو ينسب إليه زيغ من ضلال ، حتى ميزه ذووه ورموا به بعيدا مزجرا للكلب ، ومنبذ النواة ، ولقد كان من الرامين النابذين بعض الشعويين .

وأكان ما يقولون حقا ، ويتركه في الحديث جمهور المستشرقين ، دون أن يخوضوا فيه بالتجريح والتخديش ، فيسودوا ناصع بياضه ويصيبوه في قدسه وجلاله ، بدل أن يرووه ويخمدوه ويعترفوا به اعتراف من قهره الحق وأنطقه الواقع ، ثم يخرجون من هذا بنتائج عن العرب قد يسوءهم تدوينها ، أولا يرتاحون إلى إثباتها ، فعلموا ذلك ولم يشذ عنهم إلا من أضله الله على علم ، فشايع التعصب الديني وزحف إلى الطعن في دين العرب من طريق الطعن في أدب العرب ، فأخذ ما ميزه الرواة لينبذ فأثبتته ، وما خفصوا عنه ليستبعد فقره ، ومع ذلك لم يشايعه بنو جنسه ، ومنهم بعض رجال الدين ، وإن للحق لأنصارا حيث تظن الظنون وتتوقع الخصوم .

وإذا كان الأدب الجاهلي كله دسا وتدخيلا ، فما هو إذن الأدب الذي كان يروي

في صدر الاسلام والدولة الأموية ، قبل أن يخلق الدساسون أمثال حماد الراوية في النصف الأول من القرن الثاني ، وخلف الأحمر من بعده في نصفه الأخير . وهلا إذا كان الدس يقع جزافا وبغير حساب ، كان الأولى بالداسيين أن يستكملوا النامواضع نقص في أدبنا كانت ولما تزل فاعرة فاها ، حتى يكون ذلك أسوغ لقولهم وأستر لدسهم كأن يدسوا بعضا من خطب على رجال جاهليين ضرب المثل بفصاحتهم في الخطابة ، وكانوا فيها حكما وعلى أهلها قواما ، وليس للواحد منهم في المأثور شيء ، أوله مالا يتعدى الكلمة والكلمتين ، أليس لأن الأمر لم يك كما يتخرون فوضي سهلا لا ضابط له ولا رادع عنه . وهل يقبل منا أن نمرر المدسوس على رجال النقد وأرباب الكلام في عصور التدوين والتأليف ، ثم نزعم لأنفسنا الآن أنا به أعرف وله أميز ، وهل ميزنا غير ما ميزوا إلا ما سقناه قولا بلا حجة ونتيجة من غير مقدمة .

ثم يقولون إن اختلاف الرواية دليل على الدس ، والله نشهد أن الروايات في عهد يقع الاعتماد فيه على الحفظ وحده ، دون كتاب يسند أو نقش يؤيد ، لو اتحدت ولم نر فيها ما رأينا من خلاف هو الطبيعي المعقول ، لكان لنا أن نتخذ الاتفاق دليل الدس ، فكيف يتخذ الاختلاف دليلا علينا وهو لنا ، ويساق ضدنا وهو حجتنا .

أما إنه لقد آن للمجددين بالمعنى الذي يقحمون فيه كلمة التجديد لا بالمعنى الذي نحترمه نحن ، أن برعوا للتقديم عهده ولحق البحث حرمة ، وألا يتجاوزوا في الأدب الجاهلي ميز المدسوس عنه ، إلى تقضه من أساسه ، فانهم إذا تقضوه وما هم ببالغيه ، ثم عادوا بعد ذلك يبنون ، وقع بناؤهم على غير أساس ، فاذا ما نفخوا فيه وصوروه ، وتساندوا إليه فأقموه ، لا يلبث أن يخونهم وينهار « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » .

المنثور والمنظوم

أيهما أسبق إلى الوجود

إننا نقول بسبق النثر على الشعر

أظنه من الملائم في هذا البحث ، أن يعرض المتصدى له أولاً وقبل كل شيء ، للمعنى العام الذى يفهم من كلتا كلمتي نثر ونظم ، حتى إذا ما جلاه وأبان عنه وجعل الفارق بين المعنيين واضحاً ملموساً ، عمداً إلى هذا الفارق يحاكمه إلى الطبيعة ويستهديه القول ، فإذا هو الحكم الفصل والحق المبين . وأظنه من السهل محاولة ذلك ، مادامت كل كلمة في ظاهر لفظها تمدنا بالمعنى الذى ينبغى أن يكون الوجه في التفرقة والعامل على التمييز ، وأن ماعداه من مدلولات ليس إلا ضامم متممة — مهما انحازت إلى أحد الجانبين وظهرت فيه بمظهر المختص الملازم — لا تعدو أن تكون شركة بينهما ، غير ناهضة وحدها أن تصلح فصلاً . فما هو ذلك المعنى البارز الذى تحمله كل كلمة ، والذى من أجله قدمنا تلك المقدمة ، وله صدرنا هذا التصدير ، هو بلا إجهاد في الفكر ولا إطالة في التعبير ، أن يلتزم الشاعر في شعره وزناً وقافية يجعلانه مقيداً منظوماً ، ويتحرر منها الناثر فيجىء كلامه مطلقاً منشوراً . وإذن النثر أبسط من الشعر ، وفي الشعر كلفة ليست في النثر ، والنثر أقرب منسلاً ورجاله أكثر عدداً ، والشعر أصعب محاولة والشعراء آحاد في أوساط الناس ، وهنا نسأل نواميس الطبيعة والكون ، وعوامل النشوء والارتقاء ، أيهما لذلك يجب أن يكون أسبق كونا وأقدم وجوداً؟ فيكون الجواب لا محالة ما أجبتنا به آنفاً من أن النثر أسبق من الشعر وليس انحيازنا في التفرقة بين النثر والشعر إلى جانب اللفظ دون المعنى ، لأننا لانعاباً بالمعاني ، أو لأننا نسوى بينهما فيها ، فما يجهل أقل الملمين بالأدب أن الشعر يعتمد على الحقيقة ، وأنه يستوحى الشعور أكثر مما يستوحى الفكر ، على عكس النثر فيهما ، ولكن مهما أغرقنا في التفرقة المعنوية ، فليس في استطاعتنا أن نباعد بين الخيال والنثر ، ولا بين الشعر والحقيقة ، فكم نثر أوغل من شعر في التخيل والتصوير ،

والتعبير عن الوجدان والشعور ، وكم شعر هو وعاء الحكمة والفلسفة وأدخل في باب التفكير منه في باب الخيال ، إنما انخزنا إلى جانب اللفظ للإبانة عن وجه التسمية بالنثر والنظم ، وأنها لم تك عبثاً ولم تأت اعتباطاً ، إنما وضعها الواضعون عن بصيرة وفكر ، لتكون خير معبر عن الفارق ، وأوضح مترجم عن التميز ، نعم عطف الواضعون على النظم فوضعوا له اسماً آخر هو الشعر ، إشارة منهم إلى أن الوزن والتقفية وإن وقعت بهما المفاصلة والمخالقة ليسا وحدهما المكونين للشعر ، بل لا بد أن يغلب على معناه الشعور حتى يكون اغترافه من ينابيع العاطفة والخيال ، أكثر مما يغترف من ينابيع الحقيقة والتفكير .

يقول المخالفون في الفكرة : إذا كان النثر أسبق من الشعر ، فما بالنا نجد للامم القديمة شعراً ولا نجد لها نثراً ، ولكن فاتهم أن تلك قضية لا نفهمها كما أصدروها ولا نستطيعها كما هيئوها ، إلا إذا سلمنا لهم بقضيتين أخريين كلتاها أبعد عن العقل من الأخرى .

فأما أولاهما فانهم يعنون بالأمم القديمة أول ما يعنون ، اليونان والرومان فينفون عنهما النثر ويستبقون الشعر ، كأنما كل أفراد هاتين الأمتين أو أفاضلها كانوا شعراء ، وكأنما لم تهيء أحوالها الطبيعية — والأولى أمة فلسفة ومنطق ، والثانية أمة تقنين وتشريع ، ثم هما معا أمتا حكم وفتوح — أحدا من رجالتهما ليدافع عن فكرة أو يعزل لقانون ، أو يدعو إلى حرب وقتال ، هــ لا كان الأسير مع العقل والاطوع للفكر ، أن يقولوا كان لها نثر وشعر ، ولكن الشعر كان قليلاً والقليل محروس عليه ، فوعته الافهام وتناقلته الرواة ، في وقت تفسو فيه الأمية وتندر أو تنعدم الكتابة التي لا يتسع لقيد النثر سواها ، ثم الشعر مع ذلك أيسر حفظاً وأكثر ذيوفاً نعم كان لهم أن يقولوا ذلك فيقبل القول ويستقيم الاستنباط ويكونوا منطقيين كما يدعون .

وأما الثانية فانهم يريدوننا على أن العرب في جاهليتها لم يك لها نثر ، وأن ما أثر عنها موضوع مختلق ، وهذا لعمري تهجم على العقل ومطالبة لنا أن نكون أمامهم أشباح أناسي لأناسي ذوي عقول ، وإلا فكيف لم يك للعرب في جاهليتها نثر وقد تحداهم القرآن الكريم في النثر ووصفهم بأنهم كانوا قومًا لدا ، واللد في اللغة شدة

الخصومة والمحااجة ، تمشياً مع ما هو مقرر معروف ، من أن التحدى لا يحتفظ بكيانه ولا يكون له قوامه ، إلا إذا وقع لكل أمة في الباب الذى تزعم فيه نبوغاً وتدعى لنفسها عليه قوة واقتداراً ، وإذا كان الأمر هنا كما يقولون ، أمّا كان الأجدر بالقرآن أن ينزل كما نزلت سائر الكتب قبله بلغة لا يرتفع فيها إلى ذروة الفصاحة كما ارتفع ، حتى يكونوا أفهم لمعانيه وأقدر — وقد نزل لهم — على الانتفاع بما حواه ، ثم يلتبس النبي للتحدى منحى آخر غير الفصاحة والبيان ، وإذا أبى المخالفون إلا الفصاحة والبيان ، فإن في مقدورنا مجازاة لهم أن نقول ، كان ينبغي لذلك أن ينزل القرآن شعراً لا نثراً ، لأنهم لازالوا يدينون لبعض الجاهليين بالقدرة على قول الشعر ، لولا أن في تلك المجازاة هدمالما لا ترضى ولا يرتضون ، فقد جرد الله نبيه من أن يكون شاعراً كما جرده من أن يكون قارئاً ، وباعد بين القرآن والشعر ، فأعجز به منشوراً أمة ذات قدرة فائقة على النثر ، وقد أثر عنها فيه ما يؤيد تلك القدرة ، ويشهد بها ، ولكن ضاع معظمه وبقي القليل ، خضوعاً لسنة الكون في الاضاعة والابقاء ، فلا محل إذن للشك في هذا القليل إنما الوجه في الشك يكون إذا كثر أو باد .

ويقولون أيضاً إن في عوام الأمم الحديثة من يقول الشعر بلغاتهم ، بينما لا يحسن أحد منهم النثر ، وهذا قول نسلم بشرطه الأول دون الثانى ، فإن من يختلط بطبقات العوام ويرقب عن كذب مجرى أحاديثهم ومحاوراتهم ، يجد فيهم — كما نشهد في عوام المصريين مثلاً — سماراً تدارحوهم الحلقات وترهف إليهم الأسباع ، فلا يزالون يلقون من عذب الحديث وجميل القصص ، ما لو كان هناك تدوين للغتنا العامية لكان في الدررة من نصوصها والقمة من آدابها . وإن في تراشق امرأتين تختصمان في أحقر الأزقة وأدنى الحارات ؛ لروعة لهذا الخصام وقوة بيان لمناحيه لاتقل عن مثيلاتها في محاوراة أو منافرة مما دون للغه مثلاً لقوة العارضة وآية على الاقتدار . وهل تجردت حياتنا العامة من حوادث تدفع ذا رعاية ورياسة ، أن يحرض ويستنهض أو يخوف ويسترجع ، وذا قرابة ولحمة أن يوصى ويرشد ويعظ ويذكر ، أم هل خلت عاميتنا من حكم وأمثال ، تضارع في قوة المعنى وشدة الإيجاز نظائرها القديمة ، وتحتل من قلوب السامعين الآن ما كانت تحتله تلك في القديم ، بل لم تخل في نثرها من شيء هو لنثر أختها العربية ، ولكن كثرته واقتدار السواد عليه صرف الأذهان عن تناقله

وروايته ، إلى شعرها الذى خلا من كثير مما حواه الشعر الصحيح ، فقل قائلوه
 واستخدم دون النثر فيما كان أبقي له وأدعى إلى حفظه من حداء وغناء ، مع ما فى
 طبيعته فضلا عن تلك الحاجة وهذى القلة ، من سهولة الحفظ وسرعة الاستدكار .
 ثم هم يقولون إن الشعر وجد قبل النثر ، وحين ضاقت أوزانه عن مظاهر
 العقل تحلل الإنسان منه إلى الشعر ، ومعنى هذا - إن كانت لنا عقول - أن العقل
 الإنسانى فى طفولته ، كان قديراً أن يعبر عما يريده بهذا الكلام الموزون المقفى ،
 ولكنه بعد أن ترقى وجاوز دور الطفولة والأدوار التى أعقبته فتم نضجه واستوى ،
 ارتد عاجزاً عما كان عليه قديراً ، ولجأ فى تعبيراته إلى الكلام المطلق من قيد التقفية
 والوزن . ياله حكماً عليه من أولئك المخالفين إلا أن يعاند الطبيعة وما اتفق عليه الناس
 مرغمين ، دون أن يكون لهم إلى الخلاف فيه لو أرادوه سبيل ، ولسنا ندرى
 أيدكرون نتيجة لهذا أن الإنسان خلق متحضراً ثم تبدى ، أم يزعمون أن اللغة
 وحدها شنت عن هذا الناموس العام ، أو أن الشعر على فرض سهولة التقفية والوزن
 خلو من كل منطق وتفكير . الحق أنا لا ندرى عنهم ماذا نقول ، فالشعر بالغاً ما بلغ
 من تصور وخيال ، لاغنى له فى ذلك وفى مراعاة وزنه وقافيته عن عقل يسدى
 وفكر يهدى ، فما بالناس إذا كان بالفلسفة ناطقاً ولأدق نزعات العقل مصوراً ،
 وقديماً شهبوه بالدر المنظوم وما كان النظم بغير مجهود وتديير ، وقالوا إن من الشعر
 الحكمة وما خلا منها منذ عرف فى سالف الحقب وسابق الزمان .

بقيت قالة أخيرة حملهم عليها التسليم ببعض الواقع ، هى قولهم إنا نقصد بالنثر
 المسبوق بالشعر النثر الفنى ، ولكنهم فى عجز أو تعاجز عن تحديد هذا النوع الذى
 يريدون ، لأنهم إن أرادوا بالفنية الاجادة التى نطالعها فى أنواع المنشور من حكمة
 ومثل ، وخطبة ووصية ، ومفاخرة ، ومنافرة ، على أن يسهلوا للجاهليين فى ذلك
 بما هو مأثور ، قلنا لهم إن النثر قد بلغ إذن قبل الاسلام ، درجة لا تقل فى مداها
 وقوة فصاحتها عما وصل إليه الشعر إذ ذاك ، وأن تلك الدرجة ما كانت لتكون دون
 أن يضرب النثر فى القدم إلى قرون ، ينعدم فيها الشعر أو يكون طفلاً يحبو بينا النثر
 قائم يجري على قدمين ، هذا إلى ما قدمنا من السنة القاضية بسبق البسيط على
 المركب واليسير على العسير ، وما تلا ذلك من مناقشة ما يقولون ، فإن أنكروا هذا

المأثور كما يدعون ، رددنا عليهم ذلك الإنكار بما لا سبيل لهم معه إلى كلام ، لأنهم يعترفون بما ورد عن صدر الاسلام من كل هذه الأنواع ، ثم يعترفون مع ذلك بما لها من فنية فائقة على هذا الاعتبار ، ضارين المثل بكلام رسول الله والصحابة وكثير من المخضرمين ، فهل كان هؤلاء جميعاً قبيل الاسلام من الفهاة بحيث يزعمون ، ثم اتقلبوا بين عشية وضحاها ثرين مهمرين ؟ إنا ننتظر منهم الجواب . أما إذا حددوا الفنية بالكتابة وأساليبها وصناعة الانشاء ونظمها ، مما يسوق إليه تحضر الأمم ويدفع به تقدم العمران ، فانهم ينصرفون بذلك التحديد إلى ما انصرف إليه الناس ، وإذن فلا جدة ولا خلاف ، ولكن ذلك لا يرضيهم ، لأنهم يأبون في هذا شأنهم - في غيره - إلا أن يكونوا مجددين وذوى خلاف .

النثر الجاهلي

أقسامه وأنواعه

إذا تتبعنا مادة المنثور الجاهلي لنرى كيف تتألف ألفاظها وتترابط أجزاؤها ، نجد أن منها ما تحرر من كل قيد فأطلق النثر الكلام فيه إطلاقاً وأرسله إرسالاً ، ومنها ما فصله جملاً يزوج بين كل اثنتين أو أكثر منها ، ومنها ما أضاف فيه إلى هذا الازدواج اتخاذ التقفية في الفواصل ، فهو إذن ثلاثة أقسام ، قسم خلا من الازدواج والتقفية هو المرسل ، وآخر كان فيه الازدواج في الفواصل دون التقفية هو المزدوج أو المفصل ، وثالث ضم إلى الازدواج والتقفية هو المسجوع ، ولا حاجة بنا بعد الذي تقدم في سبق النثر على الشعر أن نقول هنا ، إن المرسل لا بد وجد قبل المزدوج ، وإن هذا تقدم المسجوع ، فإن ذلك من الضروري المفهوم ، إنما الحاجة أن نقول إن السجع إحدى الحلى اللفظية ذات التأثير البين إذا جاء عفواً غير متعمد ، ولذا التزمه السكهان والعرافون وأطالوا فيه ، لحسن وقعه على الأسماع وشدة تأثيره في الطباع ، وسيوضح كل هذا فيما سنسوقه من نماذج لأنواع النثر ، فله أنواع كما للشعر فنون ، هي الحكم والأمثال ، والمفاخرات والمنافرات ، والخطب والوصايا . وها هي ذى

١ - الحكم والأمثال

الحكمة قول رائع تتضمن حكماً صحيحاً مسلماً به . والمثل قول محكي سائر يقصد منه تشبيه الذي حكى فيه بالذي قيل لأجله ، وهما صورة للكلام تصل إلى الغاية القصوى في البلاغة من حيث إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن البيان ، فترتاح إليها الطباع وتنشط لحفظها النفوس وتميل إلى الاحتجاج بها العقول ، لأنها تورث الكلام رواجاً وتكسبه حسناً وقبولاً . وكما تكون الحكم والأمثال نثرًا تقعان شعراً ، ولكنهما في النثر أو في عدداً وأكثراً دورانا ، ولذلك عدا من أنواعه لامن فنون الشعر ،

ولقد فاضت الحكمة على ألسنة الكثير من العرب ، لما أفاض الله على هذه الأمة في بداوتها من سلامة الفطرة ورجحان الفكر ، فكثرت فيهم العقلاء الذين تفجرت ينابيع الحكم على أيديهم ، فعرفوا بالحكماء وانصاع إليهم السادة والأشراف ، للتقاضي في المنافرة وفض المنازعة في الخصومات . فكان قولهم مرضيا وحكمهم حتما مقضيا ، نذكر منهم على سبيل التمثيل ، أكرم بن صيفي التميمي ، وعامر بن الظرب العدواني .

فأكرم كان من حكماء تميم وحكامها ، ذا فصاحة وبيان وعلم بالأنساب والأخبار ومن حكمه «ويل للشجي من الخلي ، ويل لعالم أمر من جاهله ، مقتل الرجل بين فكيه ، إن قول الحق لم يدع لي صديقا ، في طلب المعالي يكون العناء ، لم يذهب من مالك ما وعظك ، يتشابه الأمر إذا أقبل فاذا أدبر عرفه الكيس والأحمق ، نعم لهو المرأة المغزل» هذا وقد كان جل كلامه في المجامع مبنيا على الحكمة وضرب المثل كما هي الحال في خطبته أمام كسرى في وفود العرب وفي وصاته لقومه حين ظهر النبي صلى الله عليه وسلم ولبنيه حين حانت وفاته فقد جاءت كلها ملاءى بالحكم الناصعة والعظات البالغة كما يراه المطلع عليها في مظانها كبلوغ الأرب .

وعامر كان من حكام قيس وذوى المسكنة فيها ومن كلامه «رب أكلة تمنع أكالات ، رب زارع لنفسه حاصد سواء ، الرأي نائم والهوى يقظان ، ويل أمها نصيحة لو كان من يقبلها ، من جمع بين الحق والباطل لم يجتمع له وكان الباطل أولى به ، من طلب شيئا وجده وإن لم يجده أوشك أن يقع قريبا منه ، إن مع السفاهة الندامة والعقوبة نكال وفيها ذمامة ، لو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء» .

ويوجد غير هذين حكماء كثيرون وحكمات ، كغيلان بن سلمة الثقفي ، وربيعة ابن حذار الأسدي ، وسامي بن نوفل الكنانى ، وعمرو بن حمزة الدوسى ، وذى الأصبع العدواني ، وكهند بنت الحس الأيادية ، وحذام بنت الريان الخثمية . ومن أقدم حكماء العرب لقمان وينسب إليه من الحكم «رب أخ لك لم تلده أمك ، الصمت حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الكى» ولكن العبرانيين ينازعون العرب فيه ويدعونه لأنفسهم ، ويروون له حكما في كتبهم ، وليس لأحد الطرفين دليل حاسم ضد الآخر ، كما أن كثيرا من الحكم نسبت إليه على سبيل الشهرة لا التحقيق ، لجيشها غفلا

من النسبة إلى ذوبها ، ولصعوبة القطع في معظم الحكم بنسبتها إلى قائلها لكثرة تردها على الألسنة ، وتداول الاستشهاد بها في الكلام .

هذا وكما كانت العرب قديرة على قول الحكم ، كانت كذلك وأقدر في ضرب الأمثال ، فليس بينهما من فرق سوى أن المثل لا بد فيه من أصل واقع ينقل عنه ، وقد يفرض له ذلك الأصل فرضا إذا صدر عن حيوان أو نبات أو جماد ، وتعرف أمثال النوع الأول بالحقبة والثانية بالفرضية . والأمثال بنوعها مرآة ترينا أحوال الأمة في كثير من نواحيها ، وميزان وزن به — إلى قدر — أدبها ولغتها ورقبها وانحطاطها

ولقد عنى السلف عناية كبيرة بتدوين الأمثال . ومن خير ما وصلنا في هذا الباب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ومجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ وهو أنظمها وأوفاهها ، ففيه أكثر من ستة آلاف مثل رتبت على حروف المعجم ، وفي آخر كل باب منها ما جاء على أفعال للعرب ثم للمولدين ، وهذا بعض من كل نوع .

الأمثال الحقيقية

١ — تجوع الحرة ولا تأكل بشديها . يضرب في صيانة الشخص نفسه عن خسيس السكسب ، وهو للحارث بن سليل الأسدى يقوله لامرأة تزوجها على كبر منه وهي شابة ، فلما بنى بها بكت فقال المثل وطلقها .

٢ — الحديث ذو شجون . يضرب للقول يجز بعضه بعضا ، وقائله أد بن طابخة .

٣ — سبق السيف العذل . يضرب للفائت يستحيل تداركه ، وقائله ضبة بن

أد بن طابخة

٤ — ما يوم حليلة بسر . يضرب في كل أمر متعارف مشهور ، وقائلته حليلة بنت الحارث بن أبي شمر الغساني ، وكان أبوها وجه جيشا إلى المنذر بن ماء السماء اللخمي فأخرجت للجنود طيبا طيبتهم به ، وكان يوما مشهودا فقالت المثل .

٥ — قطعت جهيزة قول كل خطيب . يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بحماقة يأتي بها ، وسببه أن قوما اجتمعوا يخطبون في صلح بين حين قتل أحدها من الآخر قتيلًا ويسألون الرضا بالدية ، وبينما هم في ذلك جاءت أمة يقال لها جهيزة قائلة (إن القاتل قد ظفر به بعض أولياء المقتول فقتله) فقالوا عند ذلك هذا المثل .

٦ — إن أخاك من واساك . يضرب في الحث على مراعاة الاخوان ، وقائله خريم بن نوفل الهمداني .

٧ — إن العوان لا تعلم الحجرة . يضرب للعالم بالأمر المجرب له ، والعوان المرأة النصف بين الفارض والبكر ، والحجرة هيئة الاختار ، والاختار لبس الحمار .

٨ — ان خيرا من الخير فاعله وإن شرا من الشر فاعله : يضرب في الحث على فعل الخير والبعد عن الشر وقد ورد على لسان أكتهم بن صيفي لعمر بن هند .

٩ — إن غدا لناظره قريب . يضرب في الأمر برجى قرب وقوعه ، وقائله قراد بن أجدع للنعمان بن المنذر حين قال له ما أراك إلا هالكا غدا فقال المثل .

١٠ — ١٩ هذا وقد تستتبع الحادثة الواحدة ضرب أمثال عدة ، ومن أجمع الحوادث في ذلك ما رووه في أصل المثل (ثكل أرامها ولدا) ، من أن رجلا يقال له ييهس كان سابع سبعة إخوة ، فأغار عليهم ناس بينهم وبينهم حرب في إبل لهم فقتلواهم إلا ييهسا هذا لأنه كان يحمق ، وكان أصغرهم ولم يشاءوا أن يحسب عليهم رجلا ، ثم إنهم نحرروا جزورا وكان اليوم قائظا فقالوا ظللوا لحكم لا يفسد فقال ييهس (لكن بالأثلاث لحم لا يظلل) فذهبت مثلا ، ولما أخذوا يشوون ويأكلون قال أحدهم ما أطيب يومنا هذا وأخصبه فقال ييهس (لكن على بلدح قوم عجفي) فذهبت مثلا ، ثم أتى ييهس أمه فأخبرها الخبر فقالت وما أتى بك من بين إخوتك فقال (لو خيرت لاخترت) فأرسلها مثلا ، ولما أخذت أمه تعطف عليه وترق له قال الناس لقد أحبت أم ييهس ييهسا فقال (ثكل أرامها ولدا) فذهبت مثلا ، ثم إن أمه أخذت تلبسه ثياب إخوته فيلبسها ويقول (حبذا التراث لولا الدلة) وهذا مثل أيضا . وحدث أنه مر على نسوة يصلحن عروسا لاهدائها إلى بعض قتلة إخوته ، فرفع ثوبه حتى غطى رأسه فقلن له ويحك ما تصنع يا ييهس فقال (البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها) فذهبت مثلا ، ثم إنه جلس مرة يأكل وحده ويقول (حبذا كربة الأيدي في غير طعام) فأرسلها مثلا ، وقالت أمه لا يطلب هذا بثأر أبدا ، فقالت لها امرأة سمعتها (لا تأمني الأحق وفي يده سكين) فذهبت مثلا ، ثم إنه علم أن أناسا من أشجع ومنهم قتلة إخوته في غار فجاء إلى خال له يدعى أبا حنش فقال له (هل لك في غنيمة باردة) فأرسلها مثلا ، ثم انطلقا حتى إذا كان على باب الغار دفع بخاله

وقال ضربا أبا حنش ، فقال من في الغار إن أبا حنش لبطل ، فقال أبو حنش (مكره أخاك لا بطل) فذهبت مثلاً كان العاشر في هذه الحادثة

الأمثال الفرضية

١ - كيف أعاودك وهذا أثر فأسك . تزعمه العرب على لسان حية كانت في واد فهشت رجلاً فقتلته ، فذهب أخوه ليقصص منها ، فعاهدته على أن يتركها وتعطيه كل يوم ديناراً ، ومكثا على ذلك دهراً ، ولما أثرى الرجل ذكر أخاه وصمم على قتل الحية ، ولكنه لما ضربها بفأسه أخطأها وأثرت الفأس في باب جحرها ، ثم إنها قطعت عنه الدينار فندم فقال لها ، هل لك في أن تتواثق ونعود إلى ما كنا عليه ، فقالت (كيف أعاودك وهذا أثر فأسك) فذهبت مثلاً يضرب لمن لا يجاب إلى عهد لظهور آثار غدره^(١).

٢ - إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض . يروى على لسان ثور من ثلاثة ثيران ، أبيض وأسود وأحمر ، كن في أجمة ومعين فيها أسد ، لا يقدر على أحد منهم لاجتماعهم ، فقال يوماً للأسود والأحمر لو تركتاني آكل الأبيض لصفحت لنا الأجمة لأن لونه مشهور يدل علينا ، فقالا دونك فكله فأكله ، وبعد أيام قال للأحمر لو نى لونك فدعني آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة ، فقال دونك فكله فأكله ، حتى إذا كانت أيام آخر قال للأحمر إني آكلك لا محالة ، فقال ولكن دعني أنادي ثلاثاً

(١) نظم النابغة الذبياني هذا المثل فقال

وما أصبحت تشكو من الشجوسا هره	وإني لألقى من ذوى النى منهم
وكانت تريه المال غبا وظاهره	كما لقيت ذات الصفام من خليلها
وأثبل موجودا وسد مفاقره	فلما رأى أن ثمر الله ماله
مذكرة بين المعاول بآثره	أكب على فأس يحد غرابها
ليقتلها أو تخطف السكف بآدره	فقام لها من فوق جحر مشيد
وللشر عين لا تغمض ناظره	فلما وقاما الله ضربة فأسه
على مالنا أو تنجزى لى آخره	فقال تعالى نجعل الله بيننا
رأيتك مشثوما يمينك فآجره	فقلت يمين الله أفعل إني
وضربة فأس فوق رأسى فآقره	أبى لى قبر لا يزال مقابلي

قال افعل فنادى (إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض) فأرسلها مثلاً يضرب لمن يسلم في أعوانه فيكون في هذا التسليم هلاكه .

٣ - ١١ - هذا ومن الحوادث الفرضية ما يستدعى صدور جملة أمثال ، كما تقدم في الحقيقة ، ومن ذلك ما تزعمه العرب من أن أربنا التقطت ثمرة فاخترتها الثعلب فأكلها ، فانطلقا يختصمان إلى الضب ، فقالت الأرب يا أبا الحسل قال (سميعة) قالت أتيناك لنختصم إليك قال (عادلاً حكماً) قالت فاخرج إلينا قال (في بيته يؤتى الحكم) قالت إني وجدت ثمرة قال (حلوة فكلها) قالت فاخترتها الثعلب قال (لنفسه بغى الخير) قالت فلطمته قال (بحقك أخذت) قالت فلطمني قال (حرائص) قالت فاقض بيننا قال (قد قضيت) ، ثم قال (حدث حديثين امرأة فأت لم تفهم فأربعة) فهذه تسعة أمثال على لسان الضب يضرب كل منها في مثل ما قيل لأجله وهي مروية في مضرب المثل (في بيته يؤتى الحكم) وفي هذا القدر من الأمثال كفاية .

٢ - المفاخرات والمنافرات

المفاخرة كلام يجري بين اثنين أو أكثر أو على انفراد ، تمدحاً بالخصال ومباهاة بالأصول ، وكان للعرب بها ولع شديد وافتنان كبير ، لأنهم كانوا قبائل وبطوناً بينهم من التناحر والتناز ، ما أوجب فيهم نيران الحروب وجعل كلا على تمام علم بما أثره ومخازى سواه ، فتناولهم النزوع إلى المفاخرة من القمة إلى القاع ، فيما بينهم وبين غيرهم من الأمم كالفرس والروم ، وبينهم وبين أنفسهم في يمن ويزار ، ثم في ربيعة ومضر ، وفي بكر وتغلب من ربيعة ، وقيس وتيمم من مضر ، وكذلك بين قبائل اليمن بعضها وبعض ، وهكذا لم يزل يتغلغل التفاخر في بطونهم وأخادعهم ، حتى تناول ابني العم في العشيرة الواحدة فكان على أشده وفي مثناه . وكانت المفاخرة نوعاً متميزاً من أنواع المنثور ، والمفاخرة المنافرة وهي مثلها وأشد في هذا الباب ، كان الرجلان إذا تنازعا الفخر وادعى كلاهما الفوق على صاحبه ، نفرا إلى حكم يرضيانه ليقضى بينهما ، فمن فضله على صاحبه كان له غنم الحكم وعلى صاحبه غرم الجعل المفروض من الابل أو غيرها ، وكلا النوعين كثير الأمثلة والوقائع .

١ — فمن المفارقة ما روى من أن كسرى قال للنعمان بن المنذر يوما : هل في العرب قبيلة تشرف علي قبيلة ؟ قال نعم ، قال فبأي شيء ؟ قال من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل بكل الرابع فالبيت من قبيلته فيه وتنسب إليه ، قال فاطلب ذلك فطلبه فلم يصبه إلا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وآل حاجب بن زرارة التيمي وآل بسطام بن قيس الشيباني وآل الأشعث بن قيس الكندي ، فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائريهم عند كسرى ، وقال ليتكلم كل رجل منكم بماثر قومه وليصدق ، فكان حذيفة بن بدر الفزاري أول متكلم وكان ألسن القوم فقال : قد علمت العرب أن فينا الشرف الأقدم والعز الأعظم ومآثر للصنيع الأكرم ، فقال من حوله : ولم ذلك يا أخا فزارة ؟ قال ألسنا الدعائم التي لا ترام والعز الذي لا يضام ، قيل له صدقت . ثم قام الأشعث بن قيس قبل ربيعة وتيمم لقرباته من النعمان فقال : قد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر وزحفها الأكبر وأنا غياث الكربات ومعدن المكرمات ، فقالوا ولم يا أخا كندة ؟ قال لأننا ورثنا ملك كندة فاستظلنا بأفيائه وتقلدنا منكبه الأعظم وتوسطنا بحجوجه الأكرم . ثم قام بسطام بن قيس فقال : قد علمت العرب أنا بناء بيتها الذي لا يزول ومغرس عزها الذي لا يحول ، قالوا : ولم يا أخا شيبان ؟ قال لأننا أدركهم للثار وأضرهم للملك الجبار وأقومهم للحكم وألدهم للخصم . ثم قام حاجب بن زرارة فقال : قد علمت العرب أنا فرع دعائمها وقادة زحفها ، قالوا ولم يا أخا تميم ؟ قال لأننا أكثر الناس عديدا وأنجبهم طرا وليدا وأنا أعطاهم للجزيل وأحملهم للثقل . وبعدئذ قام قيس بن عاصم السعدي فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم في المكرمات دعائم وأثبتهم في النائبات مقدم ، قالوا ولم يا أخا سعد ؟ قال لأننا أدركهم للثار وأمنعهم للجار وأنا لانكل إذا حملنا ولا ترام إذا حالنا . فقال كسرى : — حينئذ ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى حباءهم وأكرم مآبهم .

٢ — ومن المفارقة ما كان بين خالد بن مالك النهشلي والقعقاع بن معبد بن زرارة التيمي ، فقد تنافرا إلى أكنم بن صيفي أيهما أكرم ، وجعل بينهما مائة من الابل تكون على المفضول ، فطلب إليهما أكنم أن يرجعا عما جاءا إليه فأبيا ، فسكره أن يحكم بينهما ، ولكنه حبس الابل وبعث بهما إلى ربيعة بن حذار الأسدي ليقضي بينهما ، فلما قدما عليه وأخبراه بما جاءا من أجله ، قال هاتيا مكارمكما فقال

خالد : أعطيت من سأل وأطعمت من أكل ونصبت قدورى حين وضعت السماك ذبولها وطعنت يوم شواخط فارسا فجثت نخذه بفرسه . فقال وما عندك يا قعقاع ؟ فأخرج قوس حاجب بن زرارة وقال هذه قوس عمى حاجب رهنها عن العرب ووفى بها ، وهاتان نعلا جدى زرارة قسم فيهما أربعين مربعا ، وهذا زريه لم ير ناره خائف إلا أمن ولم يمسك بطنب فسطاطه أسير إلافك ، فنادى ربيعة بن حذار : إن السباحة والاهى والمرباع والشرف الأسبغ للقعقاع ، ألا إنى نفرت من كان أبوه معبدا وعمه حاجبا وجده زرارة .

٣ — هذا . وكثيرا ما كان يعمد الحكم إلى الصلح بين المتنافرين ، تفاديا للشر وحسما للخلاف ، فيقع كلامه فيهما من أروع الخطب فى الدعوة إلى السلام والاعتصام بحبل المودة والوئام ، ومن ذلك ما كان من هاشم بن عبد مناف فى خزاعة وقريش حين نفرتا إليه ، فقد خطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة قال : —

أيها الناس نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصي ابن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم . لنا ذروة الحسب والنسب ومعدن المجد ، ولكل فى كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته إلا مادعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم .

يا بنى قصي أنتم كغصن شجرة أيهما كسر أو حش صاحبه ، والسيف لا يسان إلا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه ومن أغضبه اللجاج أخرجه إلى البغى .
أيها الناس ، الحلم شرف والصبر ظفر والمعروف كنز والجود سؤدد والجهل سفه والأيام دول والدهر غير والمرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا المجد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا المجلس يعمر ناديتكم وحابوا الخليط يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم . وعليكم بمكارم الأخلاق فانها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية فانها تضع الشرف وتهدم المجد ، وإن نهضة الجاهل أهون من حزيرته ورأس العشيرة يحمل أثقالها ومقام الحليم عظة لمن انتفع به .

فقالوا رضينا بك أبا نضلة — وكانت كنيته — وتصالحا .

٤ — ومما يذكر عن هاشم بن عبد مناف فى المنافرة أن أمية بن عبد شمس لما

حسده مكاتته في قريش ، طلب منافرته فكره ذلك ، ولكن قريشاً كرهته عليها فتنافروا إلى أحد كهان خزاعة علي خمسين ناقة سوداء تنحر بمكة وعلى الجلاء منها عشر سنين ، فلما نزلوا على الكاهن ابتدرها بقوله . والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاجر ، فقال أمية من انتكاث الزمان أن جعلناك حكماً ، فقال له تنافر رجلاً هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأحسن منك وسامة وأقل منك لآمة ، وأكثر منك ولداً وأجزل منك صفداً ، ونقر هاشم فأخذ هاشم الابل فنحرها وأطعم ، وخرج أمية إلى الشام فقضى بها الأجل المضروب . ويذكر المؤرخون أن هذه المنافرة كانت بمثابة التسجيل لما كان من عداوة راسخة بين أمية وهاشم ورثها عنهما بعد الأبناء والأحفاد .

٣ - الخطب والوصايا

منشأ الخطابة . أغراضها . تأثيرها

تفرقت العرب في باديتها المترامية الأطراف الواسعة الأكناف ، قبائل متشعبة تتمسك كل منها بعصبيتها ونعرتها ، وتحرص على عزتها وكرامتها ، وتتناد إلى رئيس هو ملاك أمرها وقوام شأنها ، ترى فيه رمز أنفقتها وعنوان مجدها ، وتختاره من أكرم العناصر فيها وأقدرهم على التفاهم معها ، حتى يكون قابها النابض لسانها الناطق ، يهيب بهم في كل حادث ويجمعهم لكل خطب ، فيكون له كلام ومنهم استماع . ومن ثم كان من ألزم سمات الرئيس وأظهر الصفات فيه مقدرة على القول وتملكه زمام البيان ، فنشأت الخطابة سليقة في الرؤساء ، ونبغ فيهم من مصانع الخطباء الجمل الغفير حتى كان لكل قبيلة خطيب .

فالخطابة إذن وليدة حاجة العرب الطبيعية ونظام عيشهم الاجتماعي ، ولقد رفع من شأنها كثرة الدواعي إليها وانتشار الأمية بينهم ، حتى كانت وحدها مفزعهم . وإليها إذ لا كتابة مرجعهم .

ففيها كانوا يحرضون على القتال وشن الغارات والأخذ بالشار وبث الجمية في
النفوس وتحبيب الموت إلى الجبان ، في بيئة تتطلب منهم ذلك كل وقت وآن .
وبها كانوا يدعون إلى السلم كما كتبتوا بنار الحرب ، فلا يزال خطيبهم
 يفيض في أضرار القتال ومنافع السلام حتى ينزع مافي صدورهم من غل ويستل
 ما بنفوسهم من حقد ، فاذا هم قد أخذوا إلى السكون وعادوا إخوانا وادعين
 ولو إلى حين .

وبها كانوا يتآمرون بالمعروف إذا نصب معينه ويتناهون عن المنكر إذا زخر
تياره ، فيجيبون في الخير وينغضون في الشر ويوصون باقتناء الحماد والتخلق
بالمكارم . وكثير من خطبائهم كان دأبه العظة والاعتبار ، وهم التذكير والالابة ،
ليخلص النفوس من أرجاسها ويظهر القلوب من أدرانها .
وبها كان تفاخرهم بالأنساب وتسكأثرهم بالأموال والأولاد ، وتباهيهم بالمقدرة
على الكلام لمجرد الكلام ، والدلالة على فوقهم في الفصاحة والبيان في كثير من
الجامع والأسواق .

وبها كانوا يؤدون واجب السفارات بين بعضهم وبعض أو بينهم وبين مجاورهم
 في الأمور العامة ، من تأمين سبيل أو إجارة تجارة أو تهنة أو تعزية ، فلا يزالون
 يختارون للسفارة أغنائهم بيانا وأوضحهم برهانا وأحضرهم بديهة وأقواهم ارتجالا ،
 مسوقين في ذلك بحكم أميتهم وتعذر طرق الوصلة ببلادهم ، مما لم يدع للكتابة
 عندهم مجالا .

على أن من أغراض الخطابة فوق ماتقدم ، ما كان في الأملاك من خطب
 تلقى لربط أواصر المصاهرة بين العشائر وتحبيب الخطوب إليهم في الخطوب لهم ،
 بذكر فضائل الآخرين وأنهم للأولين أهل وأكفاء .

ولما كانت أغراض الخطابة علي ماسلف ذات اتصال وثيق بحياة العرب وفي
 المسكاة السامية من نفوسهم ، كان الخطباء يحفلون بخطبهم ويقبلون عليها من كل
 نفوسهم ، فيتخيرون لها من المعاني أشرفها ومن الألفاظ أفصحها لتكون أشد وقعا
 على النفوس وأبعد تأثيرا في القلوب وأيقظ للهمم وأحث على العمل ، فان الأذن للكلام
 البليغ أصغى ، والطبع إلى المعنى الشريف أميل ، والكلام إذ صب في قلب من البلاغة

محكم الصوغ جذاب الشكل ، عظم إقبال السامعين على ما يرغب فيه الخطيب إن كان محبوب ، واشتد نفارهم عما يرغب عنه إن كان يحذر ، ولو كانوا قبل استماعهم على غير ما يريد ، وإيس ذلك بالمبالغ فيه فإن من البيان لسحرا .

ثم لم يفت الخطباء أن يتعودوا في خطبهم كل ما يفخم من هذا التأثير ويزيد في شدته ، كأن يقف الخطيب على شرف من الأرض حسن الازى مخصوص العمامة معتمدا على قوسه بيساره وفي يمينه عصاه ، وأن يكون جهر الصوت حسن الايقاع صائب الاشارة تام الوقار ، إلى غير ذلك مما يبلغ بالخطابة غايتها من نفوس السامعين ، وبالتقول نهايته في قلوب الشاهدين .

وإذا كان للخطابة على حاجة العرب إليها وقصرها على السادة الأشراف منهم تلك الأغراض في نبليها وهذا التأثير في قوته ، فلا غرو أن كانت منزلتها أشرف منزلة ومكانتها أسمى مكانة ، وأن كان الخطيب في كل قبيلة المرجع الذي إليه يرجعون وعنه يصدرن ، لما أمدته به رياسته وهداه إليه بيانه ، وهل لدى رياسة ما غنى عن قول ونزوع عن بيان ، فما بالناس إذا كان في بداوة ليس فيها ما قد يغنى الحضري عن الكلام ، بل فيها ما يدعوهم إلى أن يقول ويطلق ، وهل لغير ذلك كان الرسل عليهم السلام مقال خطباء ، ولأمر ما غير هذا قال جل شأنه عن لسان موسى عليه السلام «وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون» .

هذا وكالخطب الوصايا ، إلا أن الخطب أوسع دائرة وأبعد مدي ، فهي للمشاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتناظر ومن الوفود في كل مهم لدى الملوك والامراء والسادة والكبراء ، في حين أن الوصايا لا تعدو قوما مخصوصين في أمر مخصوص ، كأن تصدر من سيد لعشيرته أو أب لبنية أو امرأة لا بنتها ، وأكثر ما تكون عند الاحساس بدنو أجل أو توقع فرقة . وهذي نماذج للنوعين في كل ما ذكر من أغراض .

فمن خطب التحريض على القتال والثبات في الميدان ، خطبة هانيء بن قبيصة الشيباني في قومه بكر يوم ذي قار ، وقد تقدمت في الايام

ومن خطب الدعوة إلى الصلح والجنوح للسلم خطبة هاشم بن عبد مناف في خزاعة وقريش حين تنافرتا إليه ، وقد تقدمت في المناقرات وهي بعينها شاهد على خطب التآمر بالمعروف والتباهي عن المنكر .

ومن خطب العظة والاعتبار خطبة المأمور الحارثي في نادى قومه وهى كما راوها صاحب الأمالى عن جماعة آخرهم أبو عبيدة قال :
قعد المأمور الحارثي في نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم ثم أفكر طويلا ثم قال :

أرعونى أسماءكم وأصغوا إلى قلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد ، طمح بالأهواء الأشهر وران على القلوب الكدر وطخطخ الجهل النظر ، إن فيما نرى لمعترا لمن اعتبر ، أرض موضوعة وسما مرفوعة . وشمس تطلع وتغرب ونجوم تسرى فتغرب ، وقر تطلعه النحور وتمتقه أديار الشهور ، وعاجز مثر وحول مكد وشاب محتضر ويفن قد غبر ، وراحلون لا يؤوبون وموقوفون لا يفرطون ، ومطر يرسل بقدر فيحيى البشر ويورق الشجر ويطلع الثمر وينبت الزهر ، وماء يتفجر من الصخر الأير فيصدع المدر عن أفنان الحضر ، فيحيى الأنام ويشبع السوام وينمى الأنعام ، إن فى ذلك لاوضح الدلائل على المدبر المقدر البارئ المصور ، يأبى العقول النافرة والقلوب النائرة ، أنى توفكون وعن أى سبيل تعمهون وفى أى حيرة تهيمون وإلى أى غاية توفضون ، لو كشفت الأغطية عن القلوب وتجلت الغشاوة عن العيون لصرح الشك عن اليقين وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة .

ومن خطب التفاخر ماتقدم فى المفاخرات لبيوتات العرب ، ومن طوالها خطبة النعمان بن المنذر عند كسرى وعنده وفود الامم الأخرى وقد فضلهم على العرب ، ومثابها خطب الوفد الذى بعث به إليه عقب ذلك ، وكلها بكتاب العقد الفريد لابن عبدربه فليرجع إليها هناك .

ومن خطب السفارات خطبة عبد الملك بن هاشم فى وفد قريش إلى سيف بن ذى يزن باليمن ، حين ظفر بالحبشة وأنت إليه وفود العرب لتهنئته ومدحه قال : —
إن الله أحلك أيها الملك محلا رفيعا صعبا منيعا شامخا باذخا ، وأنبئك منبتا طابت أرومته وعزت جرثومته وثبت أصله وبسق فرعاه ، فى أكرم موطن وأطيب معدن ، وأنت أبيت اللعن ملك العرب وريعها الذى تخصب به ، وأنت أيها الملك رأس العرب الذى إليه تنقاد وعمودها الذى عليه العباد ومعقلها الذى تلجأ إليه العباد ، سلفك خير سلف وأنت لنامنهم خير خلف ، فلن نخمل ذكر من أنت سلفه ولن يهلك من أنت

خلفه ، ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجننا لكشف الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد التهئة لاوفد المرزئه .

ومن خطب الأملاك خطبة أبي طالب بن عبد المطلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في تزوجه خديجة بنت خويلد رحمة الله عليها ، وهي من أقصد خطب الجاهلية قال : —

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكم على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله بن أخي ، من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان في المال قل ، فأنما المال ظل زائل وعارية ، مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلي .

ومن وصايا السادة لعشائره ، وصاة أكرمهم بن صيفي التميمي لقومه قال : —
يا بني تميم لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي . إن بين حيزومي وصدري لسكلاما لا أجده مواقع إلا أسماعكم ولا مقار إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية وقلوب واعية تحمدوا مغبته . الهوى يقظان والعقل نائم والشهوات مطلقة والحزم معقول والنفس مهملة والروية مقيدة . ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم ، ولن يعدم المشاور مرشدا والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل ، ومن سمع سمع به ، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ، ولو اعتبرت مواقع الحزن ما وجدت إلا مقابل السكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سلك الجدد أمن العثار ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ويؤثر غيظه ولا تجاوز مضرته نفسه . يا بني تميم الصبر علي جرع الحلم أعذب من جناء ثمر الندامة ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للدم ، وكلم اللسان أنسكى من كلم السنان والسكامة مرهونة ما لم تنجم من الفم فاذا نجمت فهي أسد محرب أو نار تلهب ، ورأى الناصح اللبيب دليل لا يحوز . ونفاذ الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب .

ومنها أيضا وصاة عامر بن الظرب العدواني الذي تقدمت الإشارة إليه في الحكم مع أكرمهم ، إذ قال له قومه وقد خشوا موته . إنك سيدنا وقائلنا وشريفنا فاجعل لنا شريفا وسيدا وقائلا فقال .

يامعشر عدوان كلفتمونى بغيا ، إن كنتم شرفتمونى فاني أريتكم ذلك من نفسى
فأتى لسكم مثلى ، افهموا مأ أقول لسكم .

إن من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به ، وإن الحق
لم يزل ينفر من الباطل ولم يزل الباطل ينفر من الحق .

يامعشر عدوان — لاتشمتوا بالدلة ولا تفرحوا بالعزة فبكل عيش يعيش الفقير
مع الغنى . ومن يريوما يربه ، وأعدوا لكل أمر جوابه . إن مع السفاهة الندامة
والعقوبة نكال وفيها ذمامة . ولليد العليا العاقبة . والقود راحة لا عليك ولا لك .
وإذا شئت وجدت مثلك إن عليك كما إن لك . وللكثرة الرعب وللصبر الغلبة .
ومن طلب شيئا وجدة وإن لم يجده يوشك أن يقع قريبا منه .

ومن وصايا الآباء للابناء وصاة ذى الاصبع العدواني حين احتضر لابنه أسيدقال :-
يابنى إن أباك قد فنى وهو حى وعاش حتى سئم العيش ، وإني موصيك بما إن
حفظته بلغت فى قومك ما بلغت ، فاحفظ عني . ألن جانبك لقومك محبوبك وتواضع لهم
يرفعوك وابسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشئ يسودوك ، وأكرم صغارهم
كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك واحم
حريمك وأعرز جارك وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك وأسرع النهضة فى الصريح ،
فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا فبذلك يتم سؤددك (١) .
ومن وصايا النساء لبناتهن ما ذكره الميداني عن المفضل الضبي فى المثل « ما وراءك
ياعصام » ولن نروى منه إلا محل الاستشهاد به قال :

لما أرادوا أن يحملوا ابنة عوف بن محم الشيباني الى زوجها الحارث بن عمرو
ملك كندة ، قالت لها أمها توصيها : —

أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة
للعافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما
اليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال . أى
بنية ، إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم
تعرفيه وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا ، فكونى له أمة يكن

لك عبدا وشيكا . يابنية احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرا — الصحبة
 بالقناعة — والمعاشرة بحسن السمع والطاعة — والتعهد لموقع عينه والتفقد لموضع
 أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيّب ريح ، والكحل أحسن
 الحسن والماء أطيّب الطيب — والتعهد لوقت طعامه والهدوء عنه عند منامه فإن
 حرارة الجوع ملهيه وتنغيص النوم مغضبه — والاحتفاظ ببيته وماله والأرعاء على
 نفسه وحشمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التدبير والأرعاء على الحشم والعيال
 جميل حسن التقدير — ولا تفشى له سرا ولا تعصى له أمرا فانك إن أفشيت سره
 لم تأمنى غدره وإن عصيت أمره أو غرت صدره — ثم اتقى مع ذلك الفرح ان كان
 ترحا والا ككتاب عنده ان كان فرحا فان الحصلة الأولى من التقصير والثانية من
 التكدير — وكونى أشد ماتكونين له إعظاما يكن أشد مايكون لك إكراما —
 وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مراقبة — واعلمى أنك
 لا تصلين إلى ماتحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت
 وكرهت والله يخير لك .

هذا وكتب الأدب ملأى بأخبار الخطباء والحكماء والموصين وضاربى الأمثال
 وذوى الأسجاع من السكينة والعرافين ، ولا محل للمزيد عما سقناه ففيه الغناء لما
 أردنا من نماذج على سبيل التمثيل لأنواع النثر وأقسامه فى آن .

الشعر الجاهلي

أولية الشعر عامة ولدى العرب خاصة . طبيعة الشعر الجاهلي وفنونه . تسجيله كثيراً من أحوال العرب . تأثيره ومنزلة رجاله . طبقات الشعراء ومنزلة أصحاب المعلقة فيهم وسبب هذا الاسم . منزلة المعلقة من الشعر الجاهلي وتحليلها .

١ — أولية الشعر عامة ولدى العرب خاصة

ليس للشعر باعتباره تلك المعاني المؤثرة التي تتصل بالشعور وتعبّر عن خبايا النفوس وتنساق لهوى الغرائز والميول أولية تعرف . فانه بهذا المعنى يكاد يكون مخلوقاً مع الانسان منذ أن هبط إلى هذا الوجود مجموعة غرائز فطرية يخضع لها في كل أعماله خضوعاً لا يحد منه عقل ولا يقف في سبيله فكر ، لأن العقل والتفكير لم يوجد إلا بعد حقب طال أمدها . اكتسب الانسان خلالها من التجارب ما أوجد له عقلاً بجوار الغريزة ، فصارت إرادته مرتكزة عليه ، بعد أن كانت مسخرة دون تفكير للغرائز الحافزة والميول الدافعة . ولكن ليس مما يسيغه عقل ولا تسمح به سنة أن تكون تلك المعاني قد ظهرت أول ما ظهرت فيما نسميه شعراً بالمعنى الاصطلاحي ، أي في قوالب محدودة من الأوزان والقوافي ، فان هذه القوالب في كل اللغات أثر من آثار حضارتها ، والحضارة لا يمكن أن تكون إلا بعد قرون طويلة تقطعها اللغة منذ نشأتها إلى حيث تظهر بها أمثال هذه الآثار .

فالمعاني الشعرية وجدت حيث وجدت مطلقة الأسلوب من كل قيد ، وأخذت في التدرج إلى أن بلغت الغاية التي نرى من قيود ، ثم جهلت هذه الخطوات الأولى كما جهلت سائر أوائل الأشياء . على أن العقل يكاد يجزم في لغتنا العربية ، أن أول خطوة خطاها شعرها كانت متمثلة في الأسجاع ، وبعدها كان تساوى القواصل فيها ، ثم خضوع هذا التساوى شيئاً فشيئاً لأقيسة التفاعيل ، وبذلك تحقق الوزن في البيت الواحد مع اتحاد الحرف الأخير في الشطرين كما نراه في منظومات العلوم والفنون وهذا أهون أنواع الشعر . وتلا هذه الحالة التقيد بحرف القافية في الأعجاز مع التحلل منه

في الصدور ، وفي خلال ذلك وعلى توالى القرون تنوعت الأوزان وطالت القوافي وبلغ الاقتدار علي التقيد مداه حتى وصل إلى الأراجيز وهي أصعب أنواع الشعر ، ومن هذا يفهم أن الشعر العربي لا بد له في معناه من التأثير المعتمد علي الشعور ، وفي لفظه من التقيد بالوزن والقافية ، وإذا ما خلا من هذين معاً أو من أحدهما سمي نثراً ، فحسب أو نثراً شعرياً ، فالشعر على إطلاقه هو ما عنيينا ، وعلى هذا القصد ذكرنا ما ذكرنا آنفاً من أن النثر أسبق منه إلى الوجود .

ولما كان المعنى الشعري فطرياً تهدي إليه الطبيعة البشرية — إذ لا بد منه للانسان في التسرى عن نفسه وقت الشدة والتسلى به حين الوحدة — ظهر الشعر على السنة الأمم جمعاء ولم تختص به أمة دون أخرى ؛ ولكنها لم تكن فيه سواء ، فكانت أكثرهن فيه قولاً أصلحها له بيئة وأوقفها له لغة ، ومن ثم كانت العرب في جاهليتها من أقدر الشعوب عليه إن لم تكن أقدرها جميعاً ولكن في النوع الذي تهيات له وهو الغنائى كما سيأتى . فقد قالت له رجالا ونساء شبانا وشيبا سادة وسواداً ، ولم يعدم أقلهم فيه شأنًا الأبيات يقدمها في حاجته أو يعبر بها عن معنى في نفسه وإن لم يك من الملقبين بالشعراء ، لأن طبيعة العيش البدوى تهادى إلى الشعر وتدعو إلى الغناء به . فمن حياة بسيطة ساذجة لاشئ فيها يطغى على الفطرة أو يميت الوجدان بل كل ما فيها ينميها ويزيد من قوتها ، فالسما صافية الرقة متألفة السكواكب ، والأرض منبسطة الأديم لامعة الرمال متصلة بالعائش فيها تمام الاتصال متجالية له بكل ما عليها من حيوان ونبات . إلى رحلة طويلة دائبة لا يفارق العربي فيها راحلته ، فلا يزال يسوقها وهي تقطع المفاوز والقفار بتلك الحركة المرقصة كأرجوحة الطفل لا تسكاد اليد تهزها حتى ينطلق اللسان فيغنيها ، ولذلك انطلق لسانه لراحلته فلم يزل يحدوها بألحان الشعر ويرفع من ورائها عقيرته بأهازيج ، ولقد قالوا إن أول مانشأ من الأوزان الرجز ، وما الرجز إلا قياس رسمه في محيطة العرب سير الابل في الصحراء ؛ ففاض الشعر علي ألسنتهم أول مفاض ، بألفاظ هي وتفاعيل الرجز في الواقع سواء .

تهيات للعرب إذن — منذ كانت العرب — دواعى الشعر ، بما تهيات لهم من سلامة فطرة وملاءمة بيئة . ثم كنف عيشهم ما كنفه من ضنك ومشقة وتفرد وعزلة ، فهرعوا

إليه يتخذونه لدى الشدائد عوناً وفي الوحدة أنيساً. حتى كان لحنهم وهجيرهم، شأن ذوى الأعمال المتعبة والحلوة الموحشة لاغنى لهم عن الغناء به ولا محيص. ولقد ذل من مطاوعته لهم حتى صار سلسبيلًا جارياً، تلك اللغة الدلول ذات الغنى الكبير في مفرداتها ومرادفاتها، والتصرف الأكبر في أساليبها وتراكيبها، فنبغوا فيه نبوغاً عدد من أوزانه وأطال في قوافيه وجعله في هذين الأمرين ذا منزلة لم يدانه فيها سواء، وأنى لغيره هذى المدانة دون أن تنهياً لغته في مفرداتها وأسلوبها، لما تنهيات له لغة الضاد في التصرف البعيد البديع، الذى مكن لذوى الصناعة اللفظية من الاتيان بأشياء لولاه كانت من المعجزات. وفي مقامات الحريرى من هذا الضرب فنون وألوان، فمن مقامه تتضمن رسالة إحدى كلماتها معجزة والأخرى مهمة، إلى مقامه تتضمن أخرى كل كلمة فيها أحد حروفها معجم والآخر مهملة، إلى مقامه تتضمن رسالة تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه، إلى مقامه تتضمن عبارات تقرأ طردا وردا فلا يغيرها عكس حروفها، إلى غير هذا مما ليس له نظير ولا شبيه في أية لغة أخرى.

وكما كانت العرب في جاهليتها ذات قدرة على الشعر فائقة وشاملة معاً، كذلك كانت من أقدم الأمم المعروفة به فأولية الشعر عندها تسكاد ترجع إلى أوليتها، وهى أمة قديمة العهد ذات صلة بفجر التاريخ. غير أن بدواتها وأميتها حالتا بينها وبين تدوينه بنقش على أثر أو كتب في كتاب، فلم يك لها حيلة إلا تعليقه بالحفظ والادكار، فأخذ يطوى بطن الحقب ويذهب بذهاب الحفظة، وهيهات للحفظ وحده أن يبقى معه مأثور على تلك القرون الطوال، لذلك كان الضياع حليف الشعر الجاهلى، فلم يسلم لنا منه وراء قرنين قبل الهجرة شيء، كما لم يسلم منه في هذين القرنين بالنسبة لما ضاع إلا القليل.

وأول مأثور عرف كان في قبائل ربيعة بنجد والعراق وبخاصة تغلب وبكر أيام حرب البسوس، ومن أقدم شعرائها — ويقال إنه أول من قصد القصيد والصواب أول من عرف له القصيد — المهلهل وهو عدى بن ربيعة التغلبى أخو كليب الذى هاجت بمقتله بين القبيلتين السالفتين الحروب السابقة فكان لها فى إذكاء الشعر بريعة الأثر الكبير. ثم تحول إلى قيس عيلان، وكانت شعوبها تملأ نجاداً

وأعلى الحجاز ، ومن قبائلها عبس وذيان وبينهما بدأت حرب داحس والغبراء وتناولت معهما الكثير ، فكان لها من إذكاء الشعر في قيس ما كان في ربيعة لحرب البسوس . ومن قيس انتقل إلى تميم - وتيم مسعر الحروب - فاستقر فيها وكانت أول نشوئها في تهامة ثم نزحت إلى شرق نجد وبادية العراق . ولم يظهر في مدركة إلا في بطون سكنت البادية منها كهذيل وأسد وبعض كنانة وقريش ، وبهذا غلب الشعر على أكثر أهل البادية من مضر وربيعة كما غلب على من ساكنهم بها من نازح قبائل اليمن القدماء كطيء وكندة وغيرهما مما تقدم بيانه في القبائل والبطون ، أما الحواضر فكانت قليلة في ذاتها وكذلك كانت قليلة الشعراء .

وإذا قلنا إن الشعر كان أقدم مما أثر منه بكثير ، فإننا نستند في قولنا هذا إلى العقل وإلى المأثور . فأما إلى العقل فلا أنه يأتي على الشعر الأبناء كله أن يظهر طفرة بذلك المظهر الذي كان عليه أيام حرب البسوس ، وما قصائد مهلهل في وصف تلك الحرب وفي رثاء كليب أخيه إلا نتيجة حقب طويلة درج فيها الشعر حتى تم صقاله وتعددت أوزانه واستطالت قوافيه ، ولا بد أن تكون تلك القصائد مسبوقة بأمثالها في العهد القريب وبشبهات لها في البعيد ، وهكذا القهقري إلى عهود سحيقة كان الشعر فيها في صور المقطعات الصغار . وأما إلى المأثور فلا نأزى في أقدم الشعراء المروى عنهم وهو امرؤ القيس من يقول .

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حذام وابن حذام أقدم من امرئ القيس ، ولم يصل إلينا من شعره شيء ولا بد أن يكون قد وقف على الاطلال وبكى الديار ، كما يريد أن يقف ويبكى امرؤ القيس ، ثم لا بد أن تكون له قصائد افتتحها بالوقوف والبكاء وضرب القول فيها بعد إلى غير ذلك من الأغراض ، وبهذا كان يدين الشعراء كامرء القيس للقدماء ، ألا ترى إلى عنبرة يفتتح معلقته فيقول :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
فنحن إذا انحزنا في دراسة الشعر الجاهلي إلى القرنين السابقين للإسلام تفعل ذلك مضطرين . لاقطاع الرواية الصحيحة عما قبل هذا التاريخ ، فإن ما روى منه أقرب إلى الوضع والاختلاق ومن العبث التعرض له بكلام ، فقد أفرط القصاصون في التوغل

بالشعر الى القديم حتى أوصلوه الى العرب البائدة فنسبوا اليها منه الكثير فيما ذكروه عنها من أساطير ، ناسين أنهم روه بلغة مضر قبيل الاسلام ومحال أن تتحد ولغة عاد ، علي أن ذلك ليس بالغريب عليهم وقد نسبوا الشعر إلى آدم وأولاده وإلى الجن والملائكة والشياطين .

تلك نبعة الشعر عامة ولدى العرب خاصة ، وإنا لسائقو القول بعدها على الشعر الجاهلى من حيث طبيعته وفنونه ، وتسجيله كثيرا من أحوال العرب ، وتأثيره ومنزلة رجاله ، وطبقات الشعراء ومنزلة أصحاب المعلقة فيهم مع السبب في تسميتها بهذا الاسم ، ثم منزلة المعلقة نفسها منه وتحليلها ، إن شاء الله .

٢ — طبيعة الشعر الجاهلى وفنونه

زانا مضطرين قبل التكلم فى طبيعة الشعر الجاهلى أن نسوق القول عاما فى طبائع الشعر القديم كله . حتى يمكن أن نرجع الشعر المذكور الى الطبيعة التى تلامه والتى اليها ينتمى .

١ — فان من الشعر ما هو قصصى ينصرف إلى القصص ، فيذكر الحروب والأبطال ولكنه لا يقتصر فى ذكرها عليهما ، بل يعزج بهما مناداة الآلهة واستيحاءها . فهو شعر اجتماعى تفتى فيه شخصية الشاعر إلى حيث لا يراها الانسان ، ثم هو فى لفظه طويل بالغ فى الطول تصل القصيدة الواحدة منه الآلاف من الأبيات ، دون أن تتقيد بلون واحد من الوزن أو التفقيه ، وكثيرا ما تعتمد فى إنشادها على الموسيقى . وهذا النوع من الشعر يلائم كل أمة فى فطرتها الأولى إذا تضامت برابطة اجتماعية تصل بين أفرادها فى الدفاع والاغارة ولكن مع سلب الفرد حريته ، وأخرى دينية توحد بينهما فى العقيدة ولكنها تعدد من آلهتهم ومعبوداتهم ، كأمة اليونان فى القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد .

٢ — ومنه ما هو تمثيلى يعتمد على الحوار المصحوب بالحركة والعمل ، الصادر عن كثير من الأشخاص دون اشتغال على أمثال سأل وأجاب أو قال وقلت . فترى المتحاورين فيه يتحدثون وهم يغدون ويروحون ، ويأتون من الأعمال ما يستلزمه

هذا الحوار ، معتمدين في أقوالهم على ما هنالك من غناء وموسيقى ورقص . وهو في موضوعه أوسع دائرة من القصصى ، لأنه يتناول القصة وغيرها ثم القصة فيه غير مقصورة على الأبطال والحروب ولا مقيدة باستيحاء الآلهة وخطابها ، ولذلك لم يظهر في أمة قديمة إلا نتيجة لرقى عقلي كبير وحياء ديموقراطية صحيحة ، توجد الرابطة الاجتماعية مع الإبقاء على حرية الفرد ، كأمة اليونان في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد .

٣ - ومنه ما هو غنائى يخرج عن الدائرة الاجتماعية للقصص والتمثيل إلى شخصية الفرد أولا وقبل كل شيء ، فلا يزال يصور نفسية الشخص وما يتصل بها من وجدان وميل ، ولا يفتأ صاحبه يعنى نفسه بحبه وبغضه ولذته وألمه . وهو نتيجة لرقى الشخصية الفردية وتحررها من قيود الاجتماع المسيطرة من غير رأى للفرد ، ومن شوائب العقيدة المشتركة للآلهة في كل عمل ، ولذلك كان المرحلة الوسطى لأخويه في الأمم التي وجدت بها المراحل الثلاث كأمة اليونان أيضا في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد .

فطبائع الشعر ثلاثة ، ونحن إذا عرضنا لأسبابها ومميزاتها نطبقها على العرب في جاهليتها ، لانجدها تهيأت إلا للشعر الغنائى فحسب . نعم كان لها ذكر قوى لأبطالها ووصف معرف بحروبها ، ولكنه لم ينهض أن يسمى شعرا قصصيا ، لأنها قالت غير مطيلة فيه دون أن تنسى شخصيتها أو تستوحى آلهتها . كما كان لها حوار يظهر في القصيدة بين عاشقين أو متخاصمين ، ولكنه لم ينهض كذلك أن يسمى تمثيلية ، لأن الحوار فيه على ضيق دائرته وقلته ، لم يتجرد من أمثال قلت وقال ، ولم يصحب من المتحاورين بالحركة والعمل ، كما لم يعتمد على ما اعتمد عليه التمثيل في رقص وموسيقى وغناء

وإذن فالشعر العربى غناء كله ، ولكنه في جاهليته عن طبيعة وبيئة ، وفي إسلامه عن محاكاة وتقليد ، وليس يضير العرب من ذلك ضير ، لأن شاعرية الأمة لا تقاس بأنواع الشعر ، بل بالدرجة التي بلغت إنتاجا وقدرة في النوع الذي تهيأت له . والأمة العربية قد بلغت في الشعر الغنائى مبلغا لم تشاركها فيه أمة أخرى . فقد قالت في كل

عصورها . فجاء في عمومها معبرا عن الجمال الفنى المطلق ، الذى تنشده الإنسانية جميعا ، ليكون صلة بين شعوبها وأجناسها على اختلاف بيئها وعصورها ، كما جاء في خصوصه مرعاة تمثل أصدق تمثيل ، شخصية الشعراء وحالة البيئات وحياة الأفراد والجماعات ، حتى إنه ليعد من أصدق مصادر التاريخ على اختلاف الأمكنة والعصور . وحسبه أن أدى رسالته بقوة في هاتين الناحيتين ، حتى قيل أنه ديوان العرب ، وليس بعد ذلك منال .

هذه طبيعة الشعر الجاهلى فاذ قلنا «طبيعته وفنونه» فإنما نقصد الى الفنون الداخلة في هذه الطبيعة الغنائية ، من نسيب وفخر ورثاء ومدح وهجاء ووصف . لا الى أى نوع من النوعين الآخرين وهما القصصى والتمثيلى ، على أن له فنونا أخرى ، ولكن هذه الفنون الستة أهمها ، إذ هى الأصلية فيه واليه يركع غيرها ، من وعيد وإنذار . واستعطاف واعتذار . واقتضاء واستنجاز . وملامة وعتاب . إلى غير هذه مما يعده الأدباء . أما الحكم والأمثال فلم تك بالكثيرة فى الشعر الجاهلى ، كما لم تك تأتى فيه وحدها قصدا بل عفوا وفى ثنا غيرها ، إلا فى القليل .

وهذى كلمة عن كل فن من الفنون الستة متبوعة بنماذج له .

١- النسيب

النسيب ويرادفه التشبيب والغزل . وكلها راجعة إلى المرأة فى وصفها حسا ومعنى ، وإظهار الميل اليها والسكف بحبها ، مع ما يتبع هذا من التألم لفراقها والتشوق للقاءها الى غير ذلك مما يدل على شدة الصباة وفرط الوجد ، وتصورها فى كل ذى صلة بها أو مشابهة لها ، من الديار والآثار والنبات والحيوان والرياح والبروق . وقد شغل النسيب فى الجاهلية مكانا عليا من الشعر ، ولا يبعد أن يكون أقدم فنونه لقدم علاقة الرجل بالمرأة ، ولأن حياة البداوة تجعل مشاركتها له محسمة بارزة ، هذا إلى ما كان للحل والارتحال الدائمين بتقلب الفصول والأيام ، من خلق أسباب الهوى والهيام لما فيهما من قرب وفراق وتواصل وبعاد ، ولذا كثر فى العرب العشاق المقيمون أمثال المرقش الأكبر من بكر وائل واسمه عوف بن سعد . وعبد الله

ابن العجلان من نهيد من قضاة . ومالك بن الصمصامة من بني جعدة ومسافر بن أبي عمرو من قريش ، ثم عروة بن حزام العذري وقد أدرك الاسلام ، فهو لاء — ولهم أمثال وأشباه — عاشوا للمرأة وفي المرأة ماتوا وخلص لها شعرهم كما خلس لها حبهم ، ثم لم تعد من غيرهم الكثير من الاشعار إن لم يكن قصدا وبالذات في مطالع القصيدة وكثيرا ما كانت تراجع الغرض منها أو تزيد . ويحسن أن نختص تلك المطالع باسم التشبيب ، وهذا فرق ما بينه وبين الغزل والتسبيب . أما الفرق بين هذين فعلى تعذر حده يمكن أن يقال إن الغزل ما عمد فيه الشاعر إلى وصف المرأة مدفوعا إلى ذلك بعقيدة أو مسوقا فيه بصناعة ، والنسب ما توجه فيه إلى ذكر الصبابة والوجد وألم الهوى والفراق ، صادرا في ذلك عن وجدان وشعور لا يكونان إلا للمحبين المغرمين . ومن هنا كانت كلمة النسب أنسب الكلمات الثلاث لاطلاقها على هذا الفن من الشعر كما اخترناه .

نماذجه

١ - قال المرقش الأكبر وهو من الشعراء المتيمنين .

سرى ليلا خيال من سليمى	فأرقنى وأصحبانى هجود
فبت أدير أمرى كل حال	وأذكر أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفى لنار	يشب لها بنى الأرطى وقود (١)
حواليها بها ييض التراقى	وآرام وغزلان رقود
نواعم لا تعالج بؤس عيش	أوانس لا تروح ولا ترود
يرحن معا بطاء المشى بدءا	عليهن المجاسد والبرود (٢)
سكن ببلدة وسكنت أخرى	وقطعت الموائق والعهود
فما بالى أفى ويخان عهدى	وما بالى أصاد ولا أصيد

٢ - وقال فى ابنة عمه أسماء وهى التى مات بحبها

(١) ذو الأرطى مكان والأرطى شجر

(٢) جمع مجسد كبرد ، الثوب بلى الجسد ، وجمع برد كقفل كساء ، مخطط يلتحف به

أغالبك القلب اللجوج صباية وشوقا إلى أسماء أم أنت غالبه
 يهيم ولا يعيا بأسماء قلبه كذاك الهوى أمراره وعواقبه (١)
 أيلحنى امرؤ في حب أسماء قد نأى بغم من الواشين وازور جانبه
 وأسماء هم النفس إن كنت عالما وبأدى أحاديث الفؤاد وغائبه
 إذا ذكرتها النفس ظلت كأننى يزعزعى قفقاف ورد وصالبه (٢)

٣ - وقال سويد بن أبي كاهل في رابعة وظيفها

بسطت رابعة الجبل لنا فوصلنا الجبل منها ما اتسع
 حرة تجلو شتيتا واضحا كشعاع الشمس في الغيم سطع (٣)
 صقلته بقضيب ناضر من أراك طيب حتى نصنع
 أبيض اللون لذيذاً طعمه طيب الريح إذا الريق خدع
 تمنح المرءاة وجهاً واضحاً مثل قرن الشمس في الضحوار ترفع
 صافى اللون ، وطرفا ساجيا أ كحل العينين ما فيه قمع (٤)
 وقرونا سايعا أطرافها علمتها ريح مسك ذى فنع (٥)

هيسج الشوق خيال زائر من حبيب خفر فيه قدع (٦)
 شاحظ جاز إلى أرحلنا عصب الغاب طروقا لم يرع
 آنس كان إذا ما اعتادنى حال دون النوم منى فامتنع
 وكذلك الحب ما أشجعه يركب الهول ويعصى من وزع
 فأبيت الليل ما أرقده ويعينى إذا نجم طلع
 وإذا ما قلت ليل قد مضى عطف الأول منه فرجع

(١) أمرار جمع مر، ضد الحلو (٢) الورد بكسر الواو الحمى، وقفقافها ذو الرعدة منها يذهب ويحجى، فإذا استمر فهو الصالب (٣) الشتيت، الثغر المتفرق الاسنان لما بهما من فليج. (٤) القمع احمرار موق العين أو كدمه وورمه أنا أوقلة نظار العين عشا أو هو جمع قعة فيكون البشور تخرج في أصول الاشجار (٥) فنع المسك دكاء ريحه (٦) القدع في المرأة الحياء وقلة الكلام.

- يسحب الليل نجوما ظلما فتواليها بطيئات التبع (١)
 ٤ - وقال النابغة الذبياني من قصيدته في المتجردة امرأة النعمان بن المنذر
 نظرت بمقلة شادن متربب أحوى أحم المقلتين مقلد (٢)
 والنظم في سلك يزين نحرها ذهب توقد كالشهاب الموقد
 قامت تراءى بين سجنى كلة كالشمس يوم طلوعها بالاسعد (٣)
 أو درة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد
 أو دمية من مرمر مرفوعة بنيت بأجر يشاد وقرمد (٤)
 سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد (٥)
 ٥ - وقال أبو صخر الهذلي ، ويقال إنه أغزل شعر قالته العرب
 أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر
 لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الذعر
 فياحبها زدني جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعداك الحشر
 عجبت لسعى الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
 وما هو إلا أن أراها فجاءة فأبتهت لا عرف لدى ولا نكر

٢ - الفخر

هو تمجيد الشاعر بنفسه وقومه وذكر ما أثرهم ومفاخرهم ، وأكثر ما تناول
 الفخر تناول الشجاعة والنجدة والبأس والقوة وإجارة الجار ومنع الحريم وإكرام
 الضيف وإيواء الطارقين ، وهى خير ما كانت تقدر العرب من صفات وأكثر ما
 كان يظهر فى حياتهم ويتطلبه عيشهم . وأنسب ما كان يقع الفخر كان يقع من السادة

- (١) الظلم جمع ظالمة وهى العرجاء كفى بها هنا عن عدم سير النجوم وبقاء الليل لذلك.
 (٢) الشادن ابن الظبية اذا شذن أى ترعرع ، والمتربب المدرك ، والاحوى الاحمر
 الشفة فى سواد ، والاحم المقلتين الشديد سوادهما ، والمقلد اللابس القلادة وهو مبالغة فى
 تزيينه بما تزين به النساء (٣) السجف الشق من الكفة وهى الستارة ، والأسعد برج الحمل
 وهو أضواء البروج للشمس (٤) الآجد الجص ، والقرمد الخزف (٥) النضيف الخمار
 وقيل الخمار من نصف ثوبه فقط أى الصغير

الأشراف والأبطال والفرسان ومن جرى مجراهم من الصعاليك المغيرين. فمن السادة زهير بن جناب الكلبي من قضاة، والحصين بن الحمام من قيس، والمهلهل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم من تغلب، والأفوه الأودي من مذحج، وعبد يغوث من كهلان، وعامر بن الطفيل من قيس، وأبو قيس بن الأسلت من الأوس، وقيس بن عاصم من تميم وقد أدرك الإسلام. ومن الفرسان علقمة الفحل من تميم، وعنزة العبسي، وحاتم الطائي، وسلامة بن جندل التميمي، وقيس بن الخطيم الأوسي، والاعلب العجلي، وعمر بن معد يكرب الزبيدي، ثم أبو محجن الثقفي، وزيد الخيل الطائي وقد أدركا الإسلام. ومن الصعاليك المغاوير عروة بن الورد العبسي، وتأبط شرا القيسي، والسليك بن السلكة التميمي.

نماذجه

١- قال عمرو بن الأطنابة أحد بني الخزرج يفتخر بقومه وهو ممن ملك الحجاز

في الجاهلية (١)

إني من القوم الذين إذا انتدوا	بدءوا بحق الله ثم النائل (٢)
المانعين من الخنا جاراتهم	والحاشدين على طعام النازل (٣)
والخالطين فقيرهم بغيرهم	والباذلين عطاءهم للسائل
والضاربين الكبش يبرق بيضه	ضرب المهجج عن حياض الآبل (٤)
والقاتلين لدى الوغى أقرانهم	إن المنية من وراء الوائل (٥)
والقائلين فلا يعاب كلامهم	يوم المقامة بالقضاء الفاصل
خرز عيونهم إلى أعدائهم	يمشون مشي الأسد تحت الوابل
ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا	ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل (٦)

(١) الأطنابة المظلة وبها سميت أمه (٢) انتدوا اجتمعوا في ناديتهم (٣) الخنا الفحش (٤) الزاجر الأبل بقوله هجج هجج (٥) الوائل طالب النجاة (٦) جمع نكس كقردة الضعيف، وجمع أميل، الاعزل

٢ — وقال حصين بن الحمام المرى في الصبر

ولما رأينا الصبر قد حيل دونه وأن كان يوم ذا كواكب مظلمها
صبرنا وكان الصبر مناسجية بأسيا فنا يقطعن كفا ومعصما
نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلمها
ولما رأيت الود ليس بنافعي عمدت إلى الأمر الذي كان أحزما
فلمست بمتاع الحياة بذلة ولا مرتق من خشية الموت سامها

٣ — وقال حاتم الطائي في الكرم وما اتصف به من مكارم الأخلاق

فاني لا آلو بمالي صنعة فأوله زاد وآخره ذخر
يفك به العاني ويؤكل طيبا وما إن تعريه القداح ولا الخمر (١)
ولا أظلم ابن العم ان كان إخوتي شهودا وقد أودى بأخوته الدهر
غنيانا زمانا بالتصعلك والغنى وكلا سقناه بكأسيهما العصر (٢)
فما زادنا بأوا على ذي قرابة غنانا ولا أزرى باحسانا الفقر (٣)
وما ضر جارا يا ابنة العم فاعلمى يحاورني ألا يكون له ستر
بعيني عن جارات قومي غفلة وفي السمع مني عن حديثهم وقر

٤ — وقال عتيبة بن بجير المازني من بني الحارث بن كعب في إيواء الطارق

ومستنجح بات الصدى يستتيهه الى كل صوت فهو في الرحل جانح (٤)
فقلت لأهلي ما بغام مطية وسار أضافته الكلاب النواج (٥)
فقالوا غريب طارق طوحت به متون الفياق والخطوب الطوارح
فقممت ولم أجتهم مكاني ولم تقم مع النفس علات البخيل الفواضح
وناديت شبلا فاستجاب وربما ضمنا قرى عشر لمن لانصافح (٦)
فقام أبو ضيف كريم كأنه وقد جد من فرط الفكاهة مازح
الى جذم مال قد نهكنا سوامه وأعراضنا فيه بواق صحائح

(١) العاني الاسير (٢) غنيانا أقمننا (٣) البأو التكبر (٤) الجانح المائل

(٥) البغام صوت الناقة في حنين (٦) يريد عشر ليال

جعلناه دون الدم حتى كأنه اذا عدا مال المكثرين المنائح (١)
لنا حمد أرباب المؤمنين ولا يرى الى بيتنا مال مع الليل رائح

٥ — ومن أحسن ما قيل في الصعلكة قول عروة بن الورد العبسي المعروف
بعروة الصعاليك

لما الله صعلوكا اذا جن لياله مصافى المشاش آلفا كل مجزر (٢)
يعد الغنى من نفسه كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينام ثقيلًا ثم يصبح قاعدا تحت الحصى عن جنبه المتعفر (٣)
يعين نساء الحى ما يستغنه فيضحى طليحا كالبعير المحسر (٤)
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه كضوء سراج القابس المتثور
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر (٥)
وإن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المنتظر
فذلك إن يلق المنية يلقها حميدا وإن يستغن يوما فاجدر
يريح على الليل أضياف ماجد كريم ومالى سارحا مال مقتر

٣ — الرثاء

هو بكاء الميت وتعدد محاسنه وصفاته ، فى ثوب من التفجع والحسرة والتلهف
والأسى ، مع استعظام المصيبة واستشعار الجزع إن كان الميت من ذوى الرياسة والأقدار .
وقد كان من عادة القدماء فيه ، أن يضربوا الأمثال بمن سلف من الأنبياء والملوك
والأمراء والعظماء ، وبما هلك من العول المعصمة بقن الجبال والأسود الخادرة فى

-
- (١) المنائح جمع منيحة وهى الناقة او الشاة تدفع الى الجار بقتنق بلبنها مادام بها لن
(٢) المشاش بضم الميم رأس العظم ، ومصافيه آخذه كله
(٣) يحث يفرك (٤) الطليح المعبي ، والمحسر ساقط الوبر من الأعياء
(٥) المنيح القدح لا نصيب له

في ثنايا الغياض وجر الوحش الضاربة في مجاهل القفار ثم بالنسور والحيات ذات البأس
القوى والعمر المديد ، وأن يخلوه من التشيب الذي اعتادوا أن يفتتحوا به القصيد في
سائر فنون ماعداء ، وكان في الجاهلية ذا شأن كبير لما كان بها من حروب ذات بال
لاتفتأ تغتال الشجعان وتلتهم الأبطال ، وقد شاركت النساء فيه الرجال أكثر مما شاركهم
في سائر الأنواع ، لأنهن أشجى قلوبا وأشد جزعا ، لما ركب في طباعهن من رقة العاطفة
وضعف الاحتمال . ولعل أول من أكثر فيه وأطال المهلهل في رثائه لسكيب أخيه ،
ومن مشهورات المراثي من النساء قصائد الحنساء في أخويها معاوية وصخر ولاسيما
الأخير ، على أن هذا الباب قد عم وفاض حتى لم يختص به شعراء — كما هي الحال في غيره
من الأبواب — لأن الموت شامل والمصيبة على تحريك النفوس بالبكاء ذات قوة واقتدار .

نماذجه

١ — من أقدم المراثي وأجودها ما كان من مهلهل في أخيه كليب ، وقد تقدمت
بالأيام ثلاث مقطعات منها .

٢ — ومن أقدمها أيضا قول أوس بن حجر الأسدي من بني أسيد بن عمرو بن
تميم يرثي فضالة بن كعدة أحد بني أسد بن خزيمة .

أيتها النفس أجملی جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

إن الذي جمع السباحة والنجدة والحزم والقوى جمعا

أودى فما تنفع الأشاحه من شيء لمن قد يحاول النزعا (١)

الألمی الذي یظن بك الظن كأن قدرأى وقد سمعا (٢)

المخلف المتلف المرزأ لم یمتع بضعف ولم یمت طبعأ (٣)

والحافظ الناس فی تحوط إذا لم یسلوا خلف عائد ربعا (٤)

(١) الاشاحه الانصراف والتروع الانتزاع (٢) الألمی فی الأصل الحديد اللسان والقلب
وقد فسر مايعنيه بالبيت (٣) المخلف المتلف الذي يتلف ماله كرما ويخلفه نجدة ، والمرز
الذي تناله الرزاثات فی ماله لما يعطى ويحتمل ، ولم یمتع بضعف لم یقم عليه ، والطبع أسوأ
الطمع (٤) تحوط كتحوط اسمان للسنة الجدة ، والعائد الناقة الحديثة النتاج ، والربيع
ابنها فی الربيع ، وعدم إرساله خلفها كناية عن نحره ضنا بلبنها .

- وعزت الشمال الرياح وقد أمسى كميع الفتاة ملتفعا (١)
 وشبه الهيدم العباء من الأ قوام سقبا ملبسا فرعا (٢)
 وكانت الكاعب الممنعة الحسناء في زاد أهلها سبعا (٣)
 ليكك الشرب والمدامة والفتيان طرا وطامع طمعا
 وذات هدم باد نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعا (٤)

٣ — ومن جيد الرثاء مرثي الحنساء بنت عمرو بن الشريد السامي في أخويها معاوية وصخر ، فمن مرثيها في معاوية قولها .

- أريق من دموعك واستفيق وصبرا إن أظقت ولن تطيق
 وقولي إن خير بنى سليم وفارسها بصحراء العقيق
 ألا هل ترجعن لنا الليالى وأيام لنا بلوى الشقيق
 وإذ نحن الفوارس كل يوم إذا حضروا وفتيان الحقوق
 وإذ فينا معاوية بن عمرو على أدماء كالجلل الفنيق (٥)
 فبكيه فقد أودى حميدا أمين الرأى محمود الصديق
 فلا والله لاتسلاك نفسى لفاحشة أتيت ولا عقوق
 ولكنى رأيت الصبر خيرا من النعلين والرأس الحليق (٦)
 ومنها في صخر قولها :

- (١) الشمال ريح الشمال ، وعزها الرياح غلبتها أياها ، كناية عن شدة البرد ، وكميع الفتاة ضجيعها ، وإمساؤه ملتفعا بردائه كناية عن شدة البرد أيضا والمراد بالكنايتين الجذب (٢) الهيدم المتهدم الفاني ، والعباء العتيق ، والسقب ولدانة عقب الولادة ، والفرع بالتحريك جلد فصيل يسلخ ويلبسه آخر لتعطف عليه غير أنه ، والمراد هنا سوء حال الشيوخ للضعف من الجذب (٣) يعنى أنها خرجت عن تمنعها الى التهام زاد أهلها كالسبع لشدة الجوع وخوف نفاد الطعام للجذب (٤) يقول وكما يبيك هؤلاء من الشارين ومن ذكر بعدهم تبكيك المرأة ذات الهدم أى الكساء الخلق الرث التي بدت نواشرها أى عروق ساعدها من الهزال ، والتي تسكت تولبها الجدع أى ابنها الصغير السوء الغذاء بالأيقاد على الماء لتوهمه أنها تصنع طعاما فيسكت انتظار آل (٥) الفنيق الضخم (٦) كان من عادة النساء خلق الرأس وتعليق النعلين حزنا

أعني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى
 ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفق السيدا
 طويل النجاد رفيع العما دساد عشيرته أمردا
 إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا
 فنال الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
 يكلفه القوم ما عالهم وإن كان أصغرهم مولدا
 ترى الحمد يهوى إلى بيته يرى أفضل الكسب أن يحمدا
 وإن ذكر المجد ألفيته تآزر بالمجد ثم ارتدى

٤ — وقال أبو ذؤيب الهذلي وقد تتابع له بنون — قيل ثمانية وقيل عشرة —
 وقيل هلكوا بالطاعون والصواب المتتابع .

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يحزع
 قالت أميمة ما لجسمك شاحبا مندا بتذلت ومثل مالك ينفع (١)
 أم ما لجسمك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذاك المضجع
 فأجبتها أما لجسمي أنه أودى بني من البلاد فودعوا
 أودى بني فأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة ما تطلع
 سبقوا هوى وأعنعقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع
 فعبرت بعدهم بعيش ناصب وإخال أني لاحق مستتبع (٢)
 ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المنية أقبلت لا تدفع
 وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمية لا تنفع
 فالعين بعدهم كأن جفونها سملت بشوك فهي عور اتدمع (٣)
 وتجلدى للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعع
 حتى كأني للحوادث مروءة بصفا المشقر كل يوم تفرع (٤)

(١) أهملت نفسك فلبست المبتذل من الثياب (٢) غبرت بقيت ومضيت فهو من الاضداد
 (٣) سملت فقتت (٤) المروءة حجر أبيض براق ، والصفاء واحدة صفاء وهي الحجر
 الصلد الضخم ، والمشقر الجبل تضرب حجارته إلى الشقرة

لا بد من تلف مقيم فانتظر أبأرض قومك أم باخرى المضجع
ولقد أرى أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكا من يفع
وليأتين عليك يوم مرة يبكي عليك مقنعا لا تسمع
والنفس راغبة اذا رغبها واذا ترد الى قليل تقنع
كم من جميعي الشمل ملتئمي الهوى كانوا بعيش ناعم فتصدعوا
فلئن بهم فجمع الزمان وريبه إني بأهل مودتي لمفجع
وهي طويلة ولكنه بعد هذا أخذ يضرب الأمثال بما لم يتركه الموت من أنواع
الوحوش ذات القوة والاعتصام .

٤- المدح

وطريقه التنويه بفضائل المدح والتعريف بصفاته ، إشادة بذكره ورفع
لشأنه ، بيان في ذلك وصفه على سبيل العموم والأجمال بأهميات الفضائل كالشجاعة
والعفة والعدل والعقل ، أو تخصيصه على سبيل التفصيل بما هو به أشبه وله أميز ، كالأقدام
والرأى في القائد ، والكرم والمساواة في السيد ، إلى غير ذلك من الصفات النفيسة
اللائقة ، التي ليس للمادح أن يتجاوزها إلى غيرها من الجسمية كالأجمال ، أو العرضية
كالغنى الا معها وقاصدا . على هذا كان مدح العرب في جاهليتهم ، ثم إن ما ركب
في نفوسهم من عزة وأنفة وإباء وكرامة ، جعلهم يضيقون دائرة المدح فلم يتعدوا
فيه لدايمهم وذوى الرياسة من عشائريهم . غير أن السؤال بالمدائح وطلب الاستجداء
بالشعر لم يلبث أن ظهر فيهم آخر عهدهم ، فكان منهم من تكسب بمدحه في ترفع
كزهير ، أو تنزل كالأعشي ، أو بين بين كالنابغة ، ولكن قلة هؤلاء ولو أنهم
شهروا وبعد صيتهم لم تخرج بالمدح في جملته عما رسمنا .

نماذجه

١ — قال المسبب بن علس وهو من معاصري طرفة يمدح مالك بن سلمة الخير القشيري .

ولدى الرقية مالك فضل	ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم
وعطاؤه متخرق جزل (١)	كفاء مخلقة ومثلقة
جرد أطار نسلها البقل (٢)	يهب الجياد كأنها عسب
تقرو دكادك بينها الرمل (٣)	والضامرات كأنها بقر
وسط الأشياء مكهم جعل (٤)	والدهم كالعبدان آزرها
رتكا فليس لمالك مثل (٥)	وإذا الشمال حدت قلائصها
طفل التريك كأنه رأل (٦)	للضيف والجار الغريب ولا
فأصابني من ماله سجل (٧)	ولقد تناولني بنائله
مغرورب تياره يعلو (٨)	متبعج التيار ذو حذب
حتى أموت وفضله فضل	فلا أشكرن فضول نعمته

٢ — ولزهير في هرم بن سنان المرى وبنيته ، مدائح سارت بها الأمثال .
ومن ذلك قوله .

ونال كرام المال في الجحرة الأكل (٩)	إذا السنة الحمراء بالناس أبحفت
قطينا لهم حتى إذا نبت البقل (١٠)	رأيت ذوى الحاجات عند بيوتهم
وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغفلوا (١١)	هنالك إن يستخبلوا المال نخبلوا

(١) متخرق نافذ، وجزل عظيم (٢) جمع عسيب وهو الجريدة لا خوص فيها، ونسيل الخيل شعرها، والبقل يطيره من الشبع به (٣) تقرو وتتبع ، والدكادك المرتفعات جمع دكادك (٤) الأشياء النخل الصغير واحده أشاء ، والمكهم ذو الأكام ، والجعل الكثير (٥) الرتك بالنحريك تقارب الخطأ (٦) الرأل ولد النعام ، والتريك المتروك (٧) السجل الدلو المظيمة (٨) متبعج التيار منفرجه ، والحذب الارتفاع ، ومغرورب متبالا ينقطع سيله (٩) الجحرة كنبقة السنة الشديدة المجدبة (١٠) جمع قاطن المقيم «وحى إذا نبت البقل» كناية عن أنهم يبقون مقيمين ولو جاء الحصب (١١) إن يستقر ضوه يقرضوه ، وإن ييسروا أى يلعبوا المبسر يغفلوا .

وفيه مقامات حسان وجوههما وأندية ينتابها القول والفعل
وإن جثتهم ألفت حول يوتهم محاسن قد يشفى بأحلامها الجهل
وإن قام فيهم قائم قال قاعد رشدت فلا غرم عليك ولا خذل
على مكثريهم حق من يعترهم وعند المقلين الساحة والبذل
فما كان من خير أتوه فأنما توارثة آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل (١)

٣ — وقال الأعشى يمدح الأسود بن المنذر أخا النعمان من قصيدة طويلة
والخطاب للناقة .

لا تشكى إلى واتجعي الأ سود أهل الندى وأهل الفعـال
فرع نبع يهتز في غضن المجـد غزير الندى شديد المحال (٢)
عنده البر والتقى وأسا الصد ع وحل للمعضلات الثقال
وصلات الأرحام قد علم النـا س وفك الأسرى من الاغلال
وهوان النفس الكريمة للذكـر إذا ما التقت صدور العوالى
أريحي صلت يظل له القو م ركودا قيامهم للهِلال
إن يعاقب يكن غراما وان يع ط جزىلا فانه لا يبالى

٤ — ومن مدائح النابغة للنعمان وفيها اعتذار واستعطاف

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب
فبت كان العائدات فرشن لى هراسابه يعلى فراشى ويقشب (٣)
حلقت فلم أترك لنفسك ربية وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى وشاية لمبلغك الواشى أغش وأ كذب
ولكننى كنت امرأ لى جانب من الأرض فيه مستراد ومذهب

(١) الخطي شجر الرماح ووشيجه أصله (٢) الغضن الثنى

(٣) الهراس الشوك ، ويقشب يخلط

ملوك وإخوان اذا ما أتيتهم أحكم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركى بالوعيد كأنى إلى الناس مطلى به القار أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
فانك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب
ولست بمستبق أخا لائمه على شعث أى الرجال المهذب
فان أك مظلوما فبعد ظلمته وإن تك ذا عتي فمثلك يعتب

هـ - الهجاء

ويكون على عكس المديح ، بتجريد المهجو من الفضائل والصفات المرغبة ، كما يكون
بوصفه بالذائل الشائنة والأوصاف المنفرة ، وأشد ما وقع كان بالموازنة والتفضيل .
ولم يتجاوز هجاء الجاهليين القبائل إلى الأفراد ولا العف من القول إلى الأفذاع ،
إلا حيث صار الشعر آلة للتكسب عند بعض الشعراء ، وأصبح من الحتم عليهم أن
يهجوا ليخيفوا أو ينتقموا ، وأن يخرجوا في هجوهم من القبائل إلى الأشخاص ، ثم
منتهكين بأقوالهم سياج العفة والاعتدال ، ولعل أول من عرف بذلك الأعشى ، ثم
جاء بعده الخطيئة من المخضرمين فأفرط وزاد حتى إنه لم يعف عن هجو نفسه بما
لا يرضي أن يهجو به إنسان ، وكذلك فعل مع أمه وأبيه ، غير أن ذلك لم يندس
العصر الجاهلى كله لقصره كما تقدم على آحاد .

نماذجه

١ — قال بشر بن أبى خازم الأسدي يهجو أوس بن حارثة بن لأم الطائي .

ألا أبلغ بنى لأم رسولا فبئس محل راحلة الغريب
إذا عقدوا لجار أخفروه كما غر الرشاء من الذنوب (١)

(١) الرشاء حبل الذنوب وهى الدلو

وما أوس ولو سودتموه بمخشي العرام ولا أريب (١)
 أتوعدني بقومك يا بن سعدى وذلك من ملات الخطوب (٢)
 وحولى من بني أسد عديد مبن بين شبان وشيب (٣)
 هم ضربوا قوائس خيل حجر بنجب الرده في يوم عصيب (٤)
 وهم تركوا عتبية في مكر بطعنة لألف ولا هيوب (٥)
 وهم تركوا غداة بني نمير شريحا بين ضبعان وذيب (٦)
 وهم وردوا الجفار على تميم بكل سميدع بطل نجيب (٧)
 وأفلت حاجب تحت العوالى على مثل المولعة الطلوب (٨)
 وحى بني كلاب قد شجرنا بأرماع كأشطان القلب (٩)
 إذا ما شمرت حرب سمونا سمو البرل في العطن الرحيب (١٠)

٢ - وعلى هذا العز الوطيد لبني أسد يقول عبيد بن الأبرص الأسدى لامرئ القيس ، بعد قتل قومه لأبيه يهجوهم في شعر بالغ ، من الاستخفاف به وتهديده .

يا ذا الخوفنا بقتل أييه إذلالا وحيننا
 أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذبا ومينا
 هلا على حجر بن أمم قطام تبكى لا علينا
 إنا إذا عض الثقا ف برأس سعدتنا لوينا (١١)

(١) سعدى أمه (٢) العرام كفرام الحدة والشدة والسكثرة ، والأريب ذو الرأى الداهية .
 (٣) المبن المقيم (٤) القوائس أعالي الرءوس ، وحجر والد امرئ القيس ، والردده مكان
 (٥) عتبية بن الحارث طعنه ذؤاب الأسدى ، والألف البطيء ، والهيوب الرعديد
 (٦) شريح من سادات نمير (٧) الجفار ماء لتميم (٨) حاجب بن زرارة ، والمولعة
 العقاب ، والطلوب الشديدة الطلب للصيد (٩) شجر نادفنا وفرقنا ، والقلب البرء ، والأشطان
 جبالها واحدها شطن (١٠) جمع بازل وهو من بلغ التاسعة من الأبل (١١) الثقا خشبة
 تقوم بها الرماح ، والصعدة القناة

نحمى حقيقتنا وبه ض القوم يسقط بين بينا
هلا سألت جموع ك ندة إذ تولوا أين أيننا
أيام نضرب هامهم يواتر حتى انحنينا
وجموع غسان الملو لك أتينهم وقد انطوينا (١)
لحقا أياظهن قد عاجن أسفارا وأينا (٢)
ولقد صلقن هوازنا بنواهل حتى ارتوينا (٣)
نعليهم تحت الضبا ب المشرفي إذا اعترينا
نحن الألى فاجمع جموعك ثم وجههم اليينا
واعلم بأن جيانا آلبن لا يقضين دينا
ولقد أبخنا ما حميت ولا مبيح لما حميننا
هذا ولو قدرت عليك رماح قومي ما اتھينا
حتى تنوشك نوثة عاداتهن إذا انتوينا
كم من رئيس قد قتلناه وضم قد أبينا
وأوانس مثل الدمى حور العيون قد استبينا
ولرب سيد معشر ضخم الدسيعة قد رمينا
حتى تركنا شلوه جزر السباع وقد مضينا
إنا لعمري ما يضا م حليفنا أبدا لدينا

٣ - وقال المتلمس - وهو جرير بن عبد المسيح من آل بهثة من ضبيعة النزارية،
وكان يعيش في أخواله من بني يشكر الربيعين ، حتى كادوا يغلبون على نسبه - قال
يعاتب الحارث بن التوأم اليشكري ، وكان عمرو بن هند سألته عن نسب المتلمس فقال،
أوانا يزعم أنه من بني يشكر وأنا يزعم أنه من بني ضبيعة :-

(١) الضميران للخيال ، والألف للاطلاق بعد نون النسوة (٢) الأياطل الخواصر
(٣) الصلق الضرب على الهامه .

أحارث إنا لو تشاط دماؤنا تزيلن حتى لا يمس دم دما (١)
أمتقلا من آل بهشة خلتنى ألا إني منهم وان كنت أينما
ألا إني منهم وعرضي عرضهم كذى الأنف يحمنى أنفه أن يكشما (٢)
وان نصابى ان سألت وأسرتى من الناس حتى يقتنون المزمعا (٣)
وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوما
لدى الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا وما علم الانسان إلا ليعلمنا
ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فوق العرايين ميسما (٤)
وهل لى أم غيرها إن تركتها أبى الله إلا أن أكون لها ابنما
وما كنت إلا مثل قاطع كفه بكف له أخري فأصبح أجذما
فلما استعاد الكف بالكف لم يجد له دركا فى أن تبين فأحجما
يداء أصابت هذه حتف هذه فلم تجد الأخرى عليها مقدا
فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى مساعا لنايه الشجاع لصما (٥)

٦ - الوصف

معناه الكشف والظهار ؛ وأبلغه ما قلب السمع بصرا ، والشعر إلا أقله راجع
إليه فهو باب فى عمومته واسع النطاق ، ولكنه قصر فى عرف الأدباء على غير ما اندرج
من أوصاف تحت غيره من فنون ، وقد طرقة العرب قديما فى كل ما شملته باديتهم
وتناولته حاجاتهم ، من أرض وسماء وأحداث جو ، وألوان نبات وحيوان يدب على
الأرض وطير يصعد فى الهواء ، ولكنهم تفاضلوا فيه كما تفاضل الناس فى سائر الأشياء ،
فمنهم من أجاد فى كثير من الأوصاف وإن غلبت عليه الاجادة فى بعضها ، كأمريء
القيس ، ومنهم من قصرت إجادته على وصف شيء دون غيره كأبى داود الايادي
وطفيل الغنوى والنابعة الجعدى فى نعت الخيل ، وكطرفه بن العبد وأوس بن حجر

(١) تشاط دماؤنا تخط بعضها ببعض ، وتزيلن تفرقن (٢) كشم الأنف قطعه
بالاستئصال (٣) المزمع الكريم من الأبل يخش بقطع شيء من أذنه يترك معلقا
(٤) كناية عن هجوهم هجاء ينال مكان الأنفة منهم (٥) الشجاع الحية .

في نعت الابل - وان كان أكثر العرب يحيد وصفها - وكالشماخ في وصف الحر الوحشية والقسى، وكالأعشي في وصف الحر وهكذا، ومن ثم عرف فريق من الشعراء باسم الشعراء الوصافين كهؤلاء.

نماذجه

١ - قال النمر بن تولب يصف أبدال الشيب

لعمري لقد أنكرت نفسي ورابنى	مع الشيب أبدالى التى أتبدل (١)
فضول أراها فى أديمى بعد ما	يكون كفاف اللحم أو هو أفضل (٢)
كأن محطاً فى يدي حارثية	صناع علت منى به الجلد من عل (٣)
وقولى إذا ما غاب يوماً بعيرهم	يلاقونه حتى يؤوب المنخل (٤)
وأضحى ولم يذهب بعيرى غربة	وأشوى الذى أشوى ولا أتخلل (٥)
وظلعى ولم أكسر وأن ظعنيتى	تلف بنيتها فى البجاد وأعزل (٦)
وزهدى فيكفينى القليل وأنى	أؤوب إذا ما أبت لا أتعلل
وكنت صفى النفس لاشئ دونه	فقد صرت من إقصاحيبي أذهل
بطيء عن الداعى فلست بأخذ	إليه سلاحى مثل ما كنت أفعل
تدارك ما قبل الشباب وبعده	حوادث أيام تضر وأغفل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة	ينوء إذا رام القيام ويحمل (٧)

(١) جمع بدل، وهى التغيرات (٢) كفاف اللحم أى مثله وهو أفضل أى اللحم (٣) حط الجلد صقله بالمحط وهو حديد لذلك، وحارثية أى امرأة من بلحرت بن كعب من اليمن أشهر بلاد العرب فى صناعة الجلود (٤) يقصد المنخل الشاعر ويضرب المثل بعدم أوبته، ويلاقونه منى بلا محذوفه، والبيت كناية عن عدم قدرته على البحث عن البعير ومن ثم يضيع. (٥) أضحى أبقي مقبها فى الصحاء فما أذهب وراء بعيرى وإن لم يذهب بعيداً لعجزى، بل أشوى من الشمس ولا أقدر على مفادرتها إلى الظل (٦) الظلع العرج والبجاد اللعاف وهذا كناية عن أنه يعرج للكبر من غير كسر، وعن أن امرأته زهدت فيه لشدة ضعفه فهى تعزله بعيداً عنها وعن أولادها (٧) ينوء يقوم فى ثقل بل يعجز عن ذلك أيضاً فيحمل.

يود الفتى طول السلامة والبقا فكيف ترى طول السلامة يفعل
دعاني الغواني عمهن وختني لى اسم فلا أدعى به وهو أول
٢ — وقال المرقش الأكبر يصف فرسا غدا به للصيد .

غدونا بضاف كالعسيب مجلل طويناه حتى عاد وهو ملوح (١)
أسيل نبيل ليس فيه معابة كمت كلون الصر ف أرجل أقرح (٢)
على مثله تأثي الندى مخايلا وتعبر سراً أى أمريك أفلح
وتسبق مطروداً وتلحق طاردا وتخرج من غم المضيّق وتخرج
تراه بشكات المدجج بعدما يقطع أقران المغيرة يجمع (٣)
يجم جموم الحسى جاش مضيقه ويردى به من تحت غيل وأبطح (٤)
شهدت به فى غارة مسيطرة يطاعن أولاهها سواء ويطرح (٥)

٣ — وقال الشماخ بن ضرار يصف قوسا

تخيرها القوس من فرع ضالة لها شذب من دونها وحزاز (٦)
نمت فى مكان كنها فاستوت به وما دونها من غيلها متلاحز (٧)
فما زال ينجو كل رطب ويابس ويوغل حتى نالها وهو بارز (٨)
فأنجى عليها ذات حد غرابها عدو لأوساط العضاء مشاوز (٩)
فلما اطمأنت فى يديه رأى غنى أحاط به وازور عمن يحاوز (١٠)
فأمسكها عامين يطلب درأها وينظر منها ما الندى هو غامز (١١)

(١) الضافى الطويل الذيل، والمجلل ذو الجلل، والعسيب الحريدة لاخوص فيها، وملوح
مغير من الطوى (٢) الأسيل الطويل، والنبييل الغليظ، والصرف الخمر خالصة غير ممزوجة
والأرجل المحجل، والأقرح الاغر (٣) الشكات جمع شكة وهى السلاح، والمدجج المستور
فى سلاحه، والمغيرة الخيل وبشكات متعلق بيجمع (٤) الحسى البثر، ويجم يفيض، وجاش
قار، ويردى يسير الرديان، والغيل الماء الجارى، والأبطح المسيل فيه دقاق الحضا
(٥) المسيطرة الممتدة

(٦) الضالة السدرة البرية، والشذب العيدان، والحزائر قطع الشجر (٧) من غيلها
أى فى منبتها، ومتلاحز متضايق داخل (٨) ينجو يقطع، ويوغل يدخل
(٩) ذات الحد القاس، وغرابها حدها، والعضاء جمع عضاهة شجر، والمشاوز
المشاكس . (١٠) ازور مال، ويحاوز يجمع (١١) درأها دفعها

- أقام الثفاف والطريدة متنها كما أخرجت ضغن الشموس المهامز (١)
فواقى بها أهل المواسم فانبرى لها بيع يغلى بها السوم راثز (٢)
فقال له بايع أخاك ولا يكن لك اليوم عن ربح من البيع لاهز (٣)
فظل يناجى نفسه وأميرها أرضى الذي يعطى بها أو يجاوز (٤)
فلما شراها فاضت العين عبرة وفى الصدر حزاز من الوجد حامز (٥)
فذاق فأعطته من اللين جانباً كفى ولها أن يفرق السهم حاجز (٦)
إذا أنبض الرامون فيها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجناثز (٧)
متوف إذا ما خالط الظبي سهمها وإن ربح منها أسلمته النوافز (٨)
كأن عليها زعفرانا تيمره خوازن عطار يمان كواثر (٩)
إذا سقط الأنداء صينت وأشعرت حبيرا ولم تدرج عليها المعاوز (١٠)

٤ — وقال النابغة الجعدي يصف ذئبا افترس جوذرا

- فأمسى عليه أطلس اللون شاخيا شجيحا تسميه النباطى نهسرا (١١)
طويل القرا عاري الأشاجع مارد كشق العصافوه إذا ماتصورا (١٢)
فبات يذكيه بغير حديدة أخو قنص يمسي ويصبح مقفرا (١٣)
إذا ما رأى منه كراعا تحركت أصاب مكان القلب منه وفرفرا (١٤)
٥ — وقال أعشى قيس — وهو الأكبر — يصف الحمر ومجلسها وتابعه إليه

- (١) الثفاف خشبة التقويم والطريدة قصبة التعديل ، والمهامز جمع مهماز (٢) الراثز
المجرب الحبير (٣) لاهز صاد (٤) أميرها حاكمها (٥) شراها باعها ، وحامز ممض محرق
(٦) فذاق أى المشتري ، ولها أن يفرق السهم حاجز أى لها حاجز من أن يفرق السهم
(٧) أنبض فى القوس أصابها أو حرك وترها لقرن (٨) النوافز القوائم وأسلمته
ضعفت عن حمله ذعرا (٩) تيمره تسيله (١٠) أشعرت حبيرا ألبسته ، والحبير نوع من
الحرير ، والمعاوز جمع معوز وهو الثوب الخلق البالى . (١١) شاخيا فاتجا فاه
(١٢) القرا الظهر ، والأشاجع السيقان
(١٣) يذكيه يذبحه ، ومقفر جائع (١٤) السكراع بضم الكاف الساق أو . مستدقة ،
وفرفر كمر وحرك ونفض ، والألف للاطلاق .

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مشل شاول شلشل شول (١)
 في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يخفى وينتعل
 نازعهم قصب الرياحان متكئا وقهوة مزرة راووقها خضل (٢)
 لا يستفيقون منها وهى راهنة إلابهات وإن علوا وإن نهلوا
 يسعى بها ذوزجاجات له نطف مقلص أسفل السربال معتمل (٣)
 ومستجيب تخال الصنيج يسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضل (٤)
 والساحبات ذيول الريط آونة والرافلات على أعجازها العجل (٥)
 من كل ذلك يوم قد لهوت به وفى التجارب طول اللهو والغزل
 ٦ — وقال الصمة بن عبد الله وقد فارق وطنه نجدا وحبيته ربا إلى الجزيرة
 يصف حنينه إليهما :

حننت إلى ربا ونفesk باعدت مزارك من ربا وشعبا كما معا (٦)
 فما حسن أن تأتى الأمر طائعا وتجزع أن داعى الصباية أسمعنا (٧)
 قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى وقل لنجد عندنا أن يودعا (٨)
 بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمترعا (٩)
 وليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا (١٠)

(١) الحانوت بيت الخمار ، والشاوى الذى يشوى ، والشل والشلول والشلشل الحسن
 الصعبة الطيب النفس ، والشول الخفيف السريع فى العمل والخدمة (٢) منازل قصب الرياحان
 إما حقيقة للتحية وإما مجاز لمبادلة الأحاديث ، وراووق الخمر إناؤها ، وخضله دوام نداء
 (٣) النطف محركا القرط ومعتمل نشيط (٤) المستجيب هنا العود من آلات الطرب
 كالصنيج ، والقينة الفضل المغنية فى مبادل ثيابها (٥) الريط جمع ربطة وهى الملاءة أو ثوب
 لين رقيق ، والعجل جمع عجلة وهى المزاودة كناية عن ضخامة الأعجاز .
 (٦) الحنين ألم الشوق ، والشعب هنا الحمى (٧) يأخذ على نفسه هذا الجزع للصباية
 مع أنه سافر طائعا (٨) يقصد حمى نجد ، وأصل الحمى كل موضع يحمى لما فيه من ماء وكلاء
 (٩) المصطاف مكان الصيف والمتربع مكان الربيع (١٠) تدمع مجزوم بخذف النون
 جوابا لحل

ولما رأيت البشر أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحن نزعا (١)
 بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا (٢)
 تلفت نحو الحى حتى وجدتني وجعت من الأصغاء ليتا وأخذعا (٣)
 وأذكر أيام الحمى ثم أنثى علي كبدي من خشية أن تصدعا (٤)
 هذا وإذ قلنا ونحن نتكلم على فنون الشعر العربي آنفا إن الحكمة قلما كانت
 تأتي فيه عن قصد مستقلة بقصيد ، فلا يفوتنا هنا أن تأتي بنموذج من هذا القليل
 لأحد الحكماء الشعراء وليكن ذا الاصبع العدوانى فى قصيدته التى نصحب بها ابنه أسيدا
 بعد وصاته الثرية السابقة ، وهى

أسيد إن مالا ملكت فسر به سيرا جميلا
 أسيد إن أزمعت من بلد إلى بلد رحىلا (٥)
 فاحفظ وإن شحط المزرا ر إخا أخيك أو الزمىلا (٦)
 آخ الكرام إن استطعت إلى إخوانهم سيلا
 واشرب بكأسهم وإن شربوا بها السم الثمىلا (٧)
 وصل الكرام وكن لمن ترجو مودته وصولا
 إن الكرام إذا توا خيم وجدت لهم قبولا
 أهن اللئام ولا تكن لأخوانهم حملا ذلولا
 واركب بنفسك إن هممت بها الخروثة والسهولا
 واعزم إذا حاولت أمرا يفرج الهمم الدخىلا
 ودع التواني فى الأمور وكن لها سلسا ذلولا
 ودع الذى يعد العشير ة أن يسيل ولن يسىلا (٨)
 أبى إن المال لا ييكى إذا فقد البخىلا
 فابسط يمينك بالندى وامدد لها باعا طويلا

(١) البشر جبل بالجزيرة ، وأعرض دوننا اعترضنا بعرضه ، وحالت بنات الشوق
 تحركت نوازع الحنين (٢) الضمير فى أسبلتا للعينين اليمنى مع اليسرى (٣) اليت صفحة
 العنق والاخذع عرق فيها والأصغاء هنا الميل (٤) أنثى على كبدي أعطى عليها ،
 (٥) أزمعت انتويت وعزمت (٦) شحط المزرا بعد (٧) الثمل الناقع أى القاتل
 (٨) يعد أن يعطى الكثير ولا يفعل

وابسط يديك بما ملكت وشيد الحسب الأثيلا (١)
وابذل لضيئك ذات نفسك مكرما حتى يزولا (٢)
واحلل على الأيفاع للعافين واجتنب المسيلا (٣)
وإذا القروم تخاطرت يوما وأرعدت الخصيلا (٤)
فاهصر كعصر الليث خضب من فريسته الثليلا (٥)
وانزل إلى الهيجا إذا أبطالها كرهوا النزولا
وإذا دعيت إلى المهم فكُن لفادحه حمولا (٦)

هذا وباب الوصف حافل لاتفيه النماذج حقها مهماطال إيرادها ، فلنتركه على هذا القدر ، على أن نستكمل بعض نقصه منى المعلقة التي حدثنا عن الاختيار منها هنا لأن لها دراسة بعد ، والتي جعلنا المختارات السابقة من غير الأنماط الواردة فيها ، إلا ما كان من وصف الفرس ومنع ذلك نحا المرقش فيه غير ما نحا عترة وامرؤ القيس .

٣ - تسجيله كثيرا من أحوال العرب

لم تدع فنون الشعر الجاهلي - ما ذكرنا منها وما نذكر - خلقا من أخلاق العرب في ذلك العهد إلا صورته ، ولا وجدانا من وجداناتهم إلا أظهرته ، كما لم تدع في بيئتهم كائنا محسادون وصف ، ولا في عرفهم شيئا من عادة أو عقيدة دون ذكر ، وحسبنا ما تقدم من نماذج في الخلق والوجدان والوصف .

أما الأوابد وهي ماجرى عليها العرف العربي عن عقيدة أو عادة ، فإنا عاطفون عليها هنا بذكر الشواهد الشعرية على الكثير منها ، دون أن نفصل الكلام في العادة عن العقيدة ، لأن معظم العادات كان منشؤه الاعتقاد ، حقا كان أم باطلا

١ - قال رجيل في الاستقسام بالأزلام - وكان ذو الخلصة من الأصنام التي

(١) الأثيل الأصيل (٢) ذات رحلك ، يعني بالرحل هنا الناقة وهي آخر ما يبذل
(٣) الأيفاع المرتفعات ، والمسيل المنخفض ونار القرى تظهر في الأول دون الثاني .
(٤) القروم جمع قرم وهو السيد البطل ، والحصيل الذي من شأنه الغلب (٥) الثليل
القم لما يقع به من ثلث الاسنان أي سقوطها . (٦) الفادح النقيب الحمل ، يعني به هنا المغارم
والديات ونحوها .

يستقسم بأزلامها بين مكة والمدينة - قتل أبوه فأراد الطلب بثأره فذهب اليه فاستقسم عنده فخرج السهم بنهيه فقال

لو كنت إذا الخلس الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

٢ — وقال ابن مقبل يفتخر بالأيثار والنحر لها - والأيثار قداح الميسر

واحد يسر -

يأبنت آل هشام هل علمت إذا أمسى المراضيع في أعناقها خضع (١)

أنى أتمم أيسارى بنى أود من فرع شوحط ضاح ليطة قرع (٢)

يحدو قتائله بيض غطارفة شم الأنوف مغاليق الضحى ضلع (٣)

أولو وفاء ولو أدوا قداحهم ولا يزال لهم من لجها قنع (٤)

٣ — وقال جريبة بن الأشيم الفقعسي لابنه يوصيه بالعقر على قبره إذا مات

إذا مت فادفنى بحراء ما بها سوي الأصرخين أو يفوز راكب (٥)

فإن أنت لم تعقر على مطيقى فلا قام في مال لك الدهر حالب

ولا تدفنى في صوى وادفنى بديمومة تنزو عليها الجنادب (٦)

٤ — وجريبة هذا هو الذى يقول لابنه أيضا فى البلية وهى الناقة تحبس على قبر

الميت وعلى رأسها غطاء يقال له البلية يربطه فى ذيلها وتترك حتى تفك نفسها أو تموت.

ياسعد إما أهلىكن فانى أوصيك ، إن أخا الوصاة الأقرب

لا أعرفن أباك يحشر خلفكم تعباً يخر على اليدين وينسكب

فاحمل أباك على بعير صالح وتق الخطيئة إنه هو أصوب

ولعل لى مما جمعت مطية فى الحشر أركبها إذا قيل اركبوا

(١) المراضيع المرضعات وهى هنا النوق ، والخضع التطامن والخضوع

(٢) ذوالأود القدح ، والشوحط النبع ، والليط جمع ليطة وهى القشرة ، والقرع المزروع

(٣) الضلع جمع ضليع وهو القوى ، والمغاليق جمع مغلاق وهو الشديد الحبس

(٤) القنع القناعة (٥) الأصرخان الصوت وصداه ، ويفوز يهلك (٦) الصوى الصخور

المرتفعة ، والديمومة الغلاة الواسعة

٥ — ومن أشعارهم في ضرب الثور لتشرب البقر قول نهشل .

كذلك الثور يضرب بالهراوي إذا ما عافت البقر الظاء

ومثل ذلك أشعارهم في كي الصحيح ليرأ الاجرب قال النابغة :

للكفتني ذنب امرئ وتركنتي كذى العريكوى غيره وهوراتع (١)

وقد استخدم الشعراء هذين المعنيين كثيراً في الرجل يعاقب وغيره الجاني

قال الشاعر :

فلا تجعلوها كالبقير وخطها يكسر ضرباً وهو للورد طائع (٢)

وما ذنبه أن لم ترد بقراته وقد فاجأها عند ذاك الشرائع

وقال آخر :

فألزمتني ذنباً وغيرى جره حنانيك لاتسكو الصحيح بأجرها

٦ — وفي مذهبهم في تعليق الحلى والجلال على اللديغ — ويسمونه سليماً تفاؤلاً —

ليراً يقول شاعرهم :

كانى سليم ناله كلم حية ترى حوله حلى النساء موضعاً

ويقول آخر :

فبت معنى بالهموم كأننى سليم نفى عنه الرقاد الجلال

٧ — وقالت امرأة في زوال حلاً الشفة — وهو بثورها بعد المرض — بوضع

المنخل على رأس المصاب بها :

ألا حلاً فى شفة مشقوقة فقد قضى منخلنا حقوقه (٣)

٨ — ويروون أن جنية أرادت صبى قرم بسوء فلم تقدر عليه ، فلامها قومها

فقال تعذر اليهم :

كأن عليه نقره ثعالب وهرره

والحيض حيض السمرة

(١) العر الجرب (٢) البقير اسم جمع البقر كالبقور (٣) كتب بالألف لأنه مسمل حلاً

وهذا على بعده من الحقيقة يوضح عقيدة بعض العرب في أن تعليق سن الثعلب والهرة وسمغ السمرة على الصبي يقيه شر الجنة ، وكذلك كانوا يعتقدون في تعليق كعب الأرنب وأشياء أخرى ، قال امرؤ القيس .

أيا هند لاتسكحي بوهة عليه عقيقته أحسبا (١)

مرسعة بين أرساغه به عسم يدغني أرنبا (٢)

ليجعل في رجله كعبها حذار النية أن يعطبا (٣)

٩ — وقال طرفة في تبديل الشمس أسنان الاثغار بخير منها إذا قذفت في عينها

بادن تجلو إذا ما ابتسمت عن شتيت كأقاحي الرمل غر

بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الأشتر

١٠ — ومن عقائدهم التي يكادون يجمعون عليها ، الهامة ، وهي طائر يزعمون

خروجه من رأس كل ميت ، فاذا كان قتيلا لا تزال تقول اسقوني اسقوني فاني صدية

حتى يؤخذ بثأره ، وفي ذلك يقول بعضهم يوصي ابنه

ولا تزقوني هامة فوق مرقب فان زقاء الهام للمرء عائب

تنادي ألا اسقوني وكل صدى به وتلك التي تبيض منها الدوائب

وقال آخر يهجو ويعير

وان أخاكم قد علمت مكانه بسفح قبا تسقى عليه الأعاصر (٤)

له هامة تدعو إذا الليل جنبها بنى عامر هل للهلالى نائر

١١ — وقال بعضهم في رثاء شريف تتخطاه المقاتل لكى تعيش أولادهن (٥)

بنفسى الذى تمشى المقاتل حوله يطأن له كشحا هضيا مهشما

(١) البوهة الاحمق والعقيقة شعر الولادة ، والاحسب الأشقر شعر الرأس . (٢) مرسعة مشدودة ، والعسم يمس في مفصل الربيع (٣) تعتقد العرب أن الجن تجتنب الأرنب لمكان الحيض منها . (٤) قبا ، جبل (٥) جمع مقلات وهي المرأة التي لا يعيش لها ولد

١٢ — وقريب من هذا ما كانوا يعتقدونه من أن دم الشريف يشفى من الكلب، قال عبد الله بن الزبير الأسدي

من خير بيت علمناه وأكرمه كانت دماؤهم تشفى من الكلب
١٣ — ومن أشعارهم في كى ألقى العاشق ليذهب عشقة ويشفى منه قوال الشاعر
شكوت إلى رفيقى اشتياقى فجاءانى وقد جمعا دواء
وجاء بالطيب ليكويانى ولا أبغى عذمتكما اکتواء
ولو أتيا بسلى حين جاءا لعاضتى من السقم الشفاء

١٤ — أما شق الرجل برقع المرأة، وشق المرأة رداء الرجل ليدوم جبهما،
فما ورد فيه قول سحيم عبد بنى الحساس .

إذا شق برد شق بالبرد برقع دوايك حتى كلنا غير لابس
نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى وإلف الهوى يغرى بهذه الوسوس
١٥ — ومن أشعارهم في إذهاب خدر الرجل بذكر محبوب، قول الشاعر
صب محب إذا مارجله خدرت نادى كيشة حتى يذهب الخدر (١)
١٦ — ومما يقرب من هذا أن الرجل منهم كان إذا خلجت عينه توقع رؤية من
يحب غائبا أو بعيدا، وفي ذلك يقول بعضهم

إذا اختلجت عيني تيقنت أننى أراك وإن كان المزار بعيدا
١٧ وأشعارهم في النيران المتنوعة التي اعتادوا إيقادها لما تقدم كثيرة متنوعة
أيضا (٢) نذكر منها الشواهد على نارين غريبتين، إحداها نار البقر أو الاستمطار،
وذلك أنهم كانوا إذا حبس عنهم الحيا عمدوا إلى خزم من السلع والعشر — وهانوعان
من النبات شديدا بالتهاب — فعقدوهما في أذنان البقر وأصعدوها في جبل وعر، ثم

(١) كيشة اسم محبوبته . (٢) كان ذلك حيث الكلام في الأوابد على نيران
العرب وأشهرها كاسبق نار القرى والتي عنها الأعشى بقوله
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمخلق

أوقدوا فيها وساقوها قبل المغرب ، قال أعرابي وقد فعلوا ذلك فلم يطرروا ثم أمطرهم الله بعد .

شفعنا ببيقر الى هاطل الحيا فلم يغن عنا ذلك بل زادنا جدبا
فعدنا الى رب الحيا فأجارنا وصير جذب الأرض من عنده خصباً
والثانية نار السعالى - والسعالى أخبث الغيلان وأحدثها سعالاة - وهى نار
يقولون إنها كانت تقع للمتغرب المتقفر فيأنس ويهتدى ، وفي ذلك يقول عبيد بن أبى
ولله در الغول أى رفيقه لصاحب دو خائف متقفر

أرنت بلجن بعد لحن وأوقدت حوالى نيرانا تلوح وتزهر
١٨ - وعلى ذكر الغيلان - وهى السحرة من الجن والشياطين كما كانت العرب
تعتقد - تقول إنها تعتقد أيضاً أن الجن والشياطين تساكينهم فى بلادهم ، ولذلك كانوا
يعوذون بها ، يؤيد ذلك قوله تعالى « وأنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال
من الجن فزادوهم رهقا » ، وقد سجل الشعر ذلك بافاضة ، قال بعضهم :

قد بت ضيفا لعظيم الوادى المانعي من سطوة الأعادى

راحلتى فى جاره وزادى

وقال آخر :

أعوذ من شر البلاد البيد بسيد معظم مجيد

أصبح يأوى بلوى زرود ذى عزة وكاهل شديد

وقال غيرها

ياجن أجزاء اللوى من عالج عاذ بكم سارى الظلام الدالج

لا ترهقوه بغوى هائج

وقال رابع

هيا صاحب الشجرأ هل أنت مانعى فأتى ضيف نازل بفنائك

وإنك للجنان فى الأرض سيد ومثلك آوى فى الظلام الصعالكا

واستعاذ رجل ومعه ولد بعظيم واد فأكل ابنه الأسد فقال
قد استعذنا بعظيم الوادى من شرما فيه من الأعادى

فلم يجرنا من هزير عادى

١٩ - ولقد تمادى العرب فى هذه العقيدة حتى ادعى بعضهم محالطة الجن
ومكالمهم واستضافتهم بل والتزوج منهم وتناسلهم ، ولهم فى ذلك أشعار وأقاصيص ،
هذا جذع بن سنان يقول

أتوا نارى فقلت منون أتم فقاوا الجن قلت عموا صباحا
وهذا سمير بن الحارث الضبي يقول

أتوا نارى فقلت منون قالوا سراة الجن قلت عموا ظلاما
وهذا عمرو بن ربوع يزعم أنه تزوج من غول وولده بنون منها عرفوا ببني السعلاة
وفى ذلك يقول شاعر يهجوهم

يا قبح الله بنى السعلاة عمرو بن ربوع شرار النات

ليسوا بأبطال ولا أكيات (١)

وتأبط شرا يدعى أنه قابل غولا اعترضته فقتلها فقال

لهان على جهينة ما ألقى من الروعات يوم رعى بطن
لقت الغول تسرى فى ظلام بسهب كالعباءة صحصحان
فقلت لها كلانا نضو أرض أخو سفر نخلي لى مكافى
فشدت شدة نحوى فأهوى لها كفى بمصقول يمان

٢٠ - ومن هذه الناحية من الاتصال ، ما كان يزعمه العرب وشعراؤهم من
أن لكل شاعر شيطانا يلتقى اليه بالشعر ، وكانوا يعتقدون بوجه عام أن للشعر شيطانين ،
الهور وهو مجيد والهو جل وهو مفسد . روى أن رجلا من تميم أتى الفرزدق فقال له
إنى قد قلت شعرا فانظره قال أنشدنى فقال

ومنهم عمر المحمود نائله كأنما رأسه طين الحواتيم

(١) يريد الناس وأكياس وهو على أبدال الناء من السين كما سبق

فضحك الفرزدق ثم قال ، يا ابن أخي إن للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر
والآخر الهوجل ، فمن انقرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه ومن انقرد به الهوجل
فسد شعره ، وإنهما قد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الهوبر في أوله فأجبت
وخالطك الهوجل في آخره فأفسدت .

ومن هنا كانوا يسمون الشعر رقى الشياطين قال جرير :

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقيا
ولهذه العقيدة كانوا يسمون لكل مجيد من الشعراء شيطانا خاصا ، وكانوا
يتحاضرون إلى الجنة إذ ظفروا بهم ، في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض ، ولهم في
ذلك حكايات وأقاصيص أسوق بعضها على سبيل التمثيل .

١ — ذكر مطرف السكناني عن ابن دأب عن رجل من أهل زرود عن أبيه
عن جده ، أنه خرج على فحل له في طلب لقاح ضالة ، حتى دفع إلى خيمة بفنائها شيخ
كبير ، فدارت بينهما مسكالة انتهت بطلبه من هذا الشيخ أن ينشده من
أشعاره ، فأنشده .

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فلما فرغ قال له لو أن امرأ القيس ينشر لردعك عن هذا الكلام ، فقال له أنا
والله منحتة ما أعجبتك منه ، قال فقلت له ما اسمك قال « لافظ بن لاحظ » قلت اسمان
منكران قال أجل ، فعلت أنه من الجن ، فقلت له من أشعر العرب فأنشأ يقول
ذهب ابن حجر بالقريض وقوله ولقد أجاد فما يعاب زياد
لله هاذر إذ يجود بقوله إن ابن ماهر بعدها لجواد
قلت من هاذر بن ماهر ، قال صاحب زياد الدياني وهو أشعر الجن وأضخم
بشعره فالعجب منه كيف سلسل لأخي ذييان به ، ولقد علم بنية لى قصيدة له من فيه
إلى أذنها ، ثم صرخ بها اخرجي فدى لك من ولدت حواء ، فخرجت فأنشدتني .
نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانة والفؤاد بها حزين
حتى أتت على قوله منها :

فألفت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون
فقال والله لو كان رأى قوم نوح فيه كراى هاذر ما أصابهم العرق ، قال الرجل
فحفظت البيتين ثم نهض بن الفحل فعدت إلى لقاحى

ب - وحدث مظعون بن مظعون الأعرابي عن أبيه ، أنه خرج على بعير له حتى
إذا كان فى سفح جبل ، رأى على قمته رجلا عليه أطمار بالية ونجمت بينهما محاوره
انتهت بقوله للرجل ، أترى من أشعار العرب ، قال نعم أروى وأقول قولاً فائقاً
مبرزاً ، قال فقلت أرنى من قولك ما أحببت فأنشأ يقول

ظاف الخيال علينا ليلة الوادى لآل أسماء لم يلهم لميعاد
حتى فرغ منها ، فقلت ، لهذا الشعر أشهر فى معدن عدنان من ولد الفرس الأبلق فى
الدهم العراب ، هذا لعبيد بن الأبرص الاسدى ، فقال ومن عبيد لولا هبيد قلت ومن
هبيد فأنشأ يقول

أنا ابن الصلادم أدعى الهبيد حبوت القوافى قرمى أسد
عبيدا حبوت بمأثوره وأنطقت بشرا على غير كد
ولا قى بمدرك رهط الكم ت ملاداعزى ومجدوا وجد
منحناهم الشعر عن قدرة فهل تشكر اليوم هذا معد

فقلت أما عن نفسك فقد أخبرتنى ، فأخبرنى عن مدرك فقال هو مدرك بن واغم صاحب
الكميت وهو ابن عمى

ج - وذكر شيخ من أهل البصرة أنه خرج فى ليلة مقمرة على جمل له الى الصحراء ،
فأبصر شبحاً كهيئة إنسان على ظهر ظليم قد خطمه وهو يقول
هل يبلغنيهم إلى الصباح هقل كأن رأسه جماح (١)

قال فعلمت أنه جنى فقلت له من أشعر الناس قال الذى يقول

(١) الهقل الظليم وهو ذكر النعام ، وتزعم العرب أن الجن كانت تغرم بركوبه ،
والجماح سهم مدور الرأس بلا فصل يتعلم به الرمى ، أو تمره تجمل على رأس خشبه يلعب
بها الصبيان .

وما ذرفت عيناك إلا لتضر بني بسهميك في أعشار قلب مقتل
فعلمت أنه يريد امرأ القيس : قلت ثم من قال الذي يقول

وتبرد برد رداء العـرو س في الصيف رقرقت فيه العيـرا
وتسخن ليـالة لا يستطيع نباحها السـكـب إلا هـريرا
فعلمت أنه يريد الأعشى ، قلت ثم من قال الذي يقول

تطرد القر بحر صادق وعـكـيك الصـيـف إن جاء بـقر
فعلمت أنه يريد طرفه واطـقـع الحـديـث

د - وحدث الأعشى أنه خرج يريد قيس بن معد يكرب بخضر موت ، فضل حتى
وقعت عينه على خباء بياض شيخ ، فانتسب له وأفهمه أنه يقصد قيسا ، فقال له حيالك
الله أظنك امتدحته بشعر قال نعم ، قال فانشديه فأنشدته

حلت سمية غدوة أجمالها غضبا عليك فما تقول بدا لها
فقال حسبك هذا البيت ، أهذه القصيدة لك ، قلت نعم قال من سمية ، قلت لا أعرفها
أما هو اسم ألقى في روعي ، فنادى باسمية اخرجي أنشدي عمك قصيدتي التي مدحت
بها قيس بن معد يكرب ، فاندفعت تنشد حتى أتت علي آخرها لم تخرم فيها حرفا ،
ثم قال ، هل قلت شيئا غير ذلك ، قلت نعم كان بيني وبين ابن عم لي يقال له
يزيد بن مسهر ما يكون بين بني العم ، فهجاني فهجوته فأثخنته ، قال ماذا قلت فيه ،
قلت ، قلت

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل
فقال حسبك من هريرة قلت لا أعرفها وسيلها سبيل التي قبلها ، فنادى ياهريرة
أنشدي عمك قصيدتي التي هجوت بها يزيد بن مسهر فأنشدتها كسابقتها ، فسقط في
يدي وتحيرت وتغشيتني رعدة ، فلما رأى ما تزل بي قل ليفرخ روعك يا أبا بصير أنا
هاجسك مسجل بن أمانة الذي ألقى على لسانك الشعر ، قال فسكنت نفسي ثم دلني
الطريق وأراني سمت مقصدي . وفي مسجل هذا يقول الأعشى

وما كنت شاحوذا ولكن حسبتي إذا مسجل يسدي لي القول أعلق
شريكـان فما بيننا من هوادة صفيان إنسى وحن موفق
يقول فلا أعيا بقول يقوله كفاني لاعي ولا هو أخرق

ويقول فيه وفي جهنم شيطان فرو بن قطن
دعوت خليلي مسحلا ودعوا له جهنم جدعا للهجين المذمم
وهذا مذهب شائع . قال حسان بن ثابت
ولى صاحب من بنى الشيصا ن فظورا أقول وطورا هو
وقال أبو النجم
إني وكل شاعر من البشر شيطانه أثنى وشيطاني ذكر
وقال آخر :

إني وإن كنت صغير السن وكان في العين نبو عني
فإن شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن

والرأى في هذا وأمثاله ، أن الجن مع وجودها لا يقع منها للأنس ما تدعى
العرب ، وإنما هذه تخيلات صوروها ، ليرفعوا بها من قيمة الشعر وليوهموا أنه كالسحر
لا ينبغي صدوره إلا عن الجن ، الذين هم في اعتقادهم مصدر العبقرية في كل شيء ،
ولذلك يقولون عن كل معجب « عبقرى » نسبة إلى عبقر ، وما عبقر في زعمهم إلا
واد للجن . وليس هذا الخيال مقصورا على العرب وحدهم ، فإن الأمم القديمة
تشاركهم فيه جميعا ، بل إن معظمها كان يعبد هذه القوى الخفية - الخيرة طمما في
خيرها والشريرة خوفا من شرها - أما تلك القصص فهي أساطير حاكوها كما حاكوا
مضارب الأمثال الفرضية ، وكما وضعت سائر الأمم أساطيرها ، وليس عليم في ذلك
ما يعاب ، ففي الناحية الأدبية ينبغي أن يطلق من عنان الخيال ما شاء الخيال

٤ — تأثيره ومنزلة رجاله

لقد كان للشعر في العرب تأثير ما أبلغه من تأثير ، ولرجالها بينهم مكانة ما أرفعها من مكانة ، ذلك بأنهم كانوا ذوى فطر سليمة ونفوس حساسة ، وكان الشعر طبيعة فيهم يخرج منهم بالدم واللحم . لا يزالون يقولونه ويستوحون سماءه ، فينقادون لحيلاله ويخضعون لأحكامه . وكان للشعراء عليهم نفوذ وسلطان ، لا يقل شأنًا عن نفوذ الصحف السيارة الآن على الأفراد والجماعات ، فكانت كل قبيلة تغتبط بكثرة شعرائها وتمتخز من بينهم أقواهم حجة وأبلغهم قولاً ، ليكون المشيد بحسانتها ومفاخرها الذاب عن أحسابها وأعراضها ، أثر فيما أثر أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى لتنهشها ، فصنعت الأطعمة ومدت الموائد ، وتباشر الرجال والولدان ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يفعلن في الأعراس . ولشدة ما كان للشعر من تأثير جاوز فيه المنطق وتعدي العقول ، نسبته العرب إلى الجن وسموا الشعراء بالساحرين ، قل رؤية

لقد خشيت أن تكون ساحرا راوية مرا ومرا شاعرا

وكان ذلك التأثير عاما ، ففي كل باب من أبوابه كان يبلغ الشاعر ما لا يبلغ غيره ، فإذا نسب رقق القلوب القاسية واستنزل العصم العاصية ، وإذا وصف أراك ما لم تر كأنه المرئي ، وقد يكون تمثيلا لا يستند إلا إلى الخيال والتصوير ، وإذا رثى أثار الشجون وحرك مكانم الذكريات ، فإذا مافخر بالحماسة والاستبسال حجب إلى الجبناء القتال ، وأرخص الموت على مغلى الحياة . قل معاوية بن أبي سفيان اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر أدبكم ، فلقد رأيتني ليلة التحرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأوض أريد الهرب من شدة البلوى ، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الأظنابة (١) .

أبت لي همتي وأبى بلائي	وأخذني الحمد بالثمن الريمي
وإقحامى على المكروه نفسي	وضربني هامة البطل المشيع
وقولى كلما جشأت وجاشت	مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات	وأحمى بعد عن عرض صحيح

أما شعراء المديح والهجاء فقد كانوا شفاء أقوامهم وسموم أعدائهم ، لا يزالون لقبائلهم يحمون سلطانها ويرفعون بنيانها ، كما يذبون عن حياضها ويدافعون عن وردها ، وأمر احتفاء القبائل بشعرائها وخوفها من هجو الشعراء كثير الحوادث مروى الأشعار ، وهذا بعض منها : —

١ — هم الفرزدق بهجاء عبد القيس فبلغ ، ذلك زيادا الأعجم وهو منهم ، فبعث إليه لا تعجل وأنا مهدي إليك هدية ، فانتظر الفرزدق الهدية فإذا هي هذه الأبيات :

فما ترك الهاجون لي إن هجوته مصحبا أراه في أديم الفرزدق
ولا تركوا عظما يرى تحت لحيه لكاسره أبقوه للمتعرق
سأ كسر ما أبقوا له من عظامه وأنتك مخ الساق منه وأنتق
فانا وما تهدي لنا إن هجوتنا لكالبحر مهما تلق في البحر يغرق

فكف الفرزدق عما كان يريد ، وقال لا سبيل إلى هجاء هؤلاء ما عاش هذا العبد فيهم .

٢ — وهجا الأحوص بن محمد ، النعمان بن بشير الأنصاري وكان ميسورا ، فاشتري هدية ووفد بها على الفرزدق ليشكو إليه ، فقال له الفرزدق — قبل ذكر المشكوفيه — وأين أنت من الأحوص ، فقال هو الذي أشكو ، فأطرق الفرزدق ساعة ثم قال أليس هو الذي يقول :

ألا قف برسم الدار فاستنطق الرسا فقد هاج أحزاني وذكرني نعمي
قال بلى قال والله لا أهجو شاعرا هذا شعره . فاشتري ابن بشير أنفاس من تلك الهدية وقدم بها على جرير لذلك ، فقال جرير أليس القائل :

تمشى بشتى في أكاديس مالك يشيد به كالكلب إذ ينبع النجا
قال بلى ، قال والله لا أهجو شاعرا هذا شعره . فاشتري ابن بشير أنفاس من الهديتين وذهب بها إلى الأحوص فصالحه .

٣ — ونالت جريرا من أبيه وجده نبوة ، فقال يعاتبهما ويدل على قومه بماله من فضل عليهم ومكانة يهابها غيرهم .

ألا لا تخافا نبوتى فى ملة وخافا المنايا أن تفوتكما بيا
فقد كنت نارا يصطليها عدوكم وحرزا لما ألتأم من ورائيا
وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكما بشماليا
وانى لعف الفقر مشترك الغنى سريع إذا لم أرض جارى انتقاليا
جرى الجنان لأهbab من الردى إذا ما جعلت السيف من عن شماليا
وليس لسيفى فى العظام بقية ولا السيف أشوى وقعة من لسانيا

على أن الذى زريده أقوى حجة فى الاستدلال على تأثير الشعر ، أن الشاعر كان إذا تعرض لقبيلة بهجاء ، وفيها مي الشعراء من يخشى لسانه ويتقى هجوه ، لم يك أمام قبيلته فى دفع ما تحذر الا حمله إلى من هجأهم متبرئة منه ومسلمة فيه ، وهذا ما حدث حين هجأ عبد الله بن الزبير السهمى بنى قصى ، فقد رفعه السهميون إلى عتبة بن ربيعة خوفا من هجاء الزبير بن عبد المطلب ، وكان شاعرا شديدا عارضا قذع الهجاء ، فلما وصل عبد الله إليهم أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه فقال عبد الله غير مستنكر ما فعلت عشيرته

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتى وإن صاحت إخوانها لا ألومها
فان قصيا أهل مجد وعزة وأهل فعال لا يرام قديمها
هم منعوا يومى عكاظ نساءنا كما منع الشول الهجان قرومها

وكان الزبير غائبا بالطائف فلما وصل إلى مكة وعلم الخبر قال

فلولا نحن لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا
ثيابهم سمال أو طمار بها ودك كما دسم الحبث
ولكننا خلقنا إذ خلقنا لنا الحبرات والمسك الفتيت

وهجأ رجل من بنى حرام الفرزدق ، فجاء به قومه يقودونه إليه فقال الفرزدق

ومن يك خائفا لأذاة شعرى فقد أمن الهجاء بنو حرام
هم قادوا سفيهم وخافوا قلائد مثل أطواق الحمام

وكان الشاعر إذا رضى لنفسه أن يتجاوز بمدحه وهجائه قبيلته وأعداءها ،

تطلعت اليه القبائل الأخرى ، فأخذت تقر به رجاء مدحه فيها وهجائه لمناظرها ،
كما كان من الحظيئة إذ استضافه الزبرقان بن بدر من بني بهدلة وقصرت امرأته في
إكرامه وهو غائب ، فأخذه بغيض بن عامر من آل لؤى بن شماس وبالغ في إكرامه
فكان خير ما قاله من شعر هجاء ومدحا في هذين الحين ، ومن ذلك قوله .

وإن التي نكبتها عن معاشر	على غضاب أن صددت كما صدوا
أت آل شماس بن لؤى وإنما	أتاهم بها الأحلام والحسب العد
فإن الشقي من تعادى صدورهم	وذا الجد من لانوا اليه ومن ودوا
يسوسون أحلاما بعيدا أناتها	وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم	من اللوم أوسدوا المكان الذي سدوا
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى	وان عاهدوا أوفوا وان عقدوا شدوا
وان كانت النعماء فيهم جزوا بها	وان أنعموا لأكدروها ولا كدوا
وان قل مولاهم على جل حادث	من الدهر ردوا فضل احلامكم ردوا
وتعذلى أفتاء سعد عليهم	وما قلت إلا بالذي علمت سعد

على أن التحاسد على الشعراء لم يك قصراً على القبائل ، بل تعداها الى الملوك .
فهذا النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، تبصر كيف كان اجتذابه للنابعة يمدحه ويمدح
آل بيته ، وكيف حسده عليه الغساسنة ملوك الشام فأعظموا حباه حتى مدحهم ،
ثم كيف غضب عليه النعمان لذلك غضبا سارت باعتذارات النابعة منه الأمثال ، ومع
ذلك لم ينل من النعمان رضا ، لأن الشركة في هذا الباب بين متناظرين ليست
مما يطاق (١)

(١) تقدمت للنابعة في فنون الشعر نبذة من إحدى قصائده في الاعتذار للنعمان ،
ومن خيار قصائده فيه داليتها التي مطلعها
يادار رمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
ومنها في مدحه قوله
فتلك تبلغني النعمان إن له فضلا على الناس في الأدنى في البعد

ومن غريب تأثير الشعر ، أن الشاعر كان اذا وصم سييدا لم يجد اليد من يغسل

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه
إلا سليمان إذ قال الآله له
وخيس الجن إني قد أذنت لهم
فن أطاعك فأنفعه بطاعته
ومن عصاك فعاقبه معاقبة
إلى أن قال

الواهب المائة الأبكار زينها
والآدم قد خيست فتلا مراقبها
والخيل تمزع غربا في أعنتها
والساحبات ذول الريط فأنقها
ومن جياذ قصائده في آل جفنة قصيدته التي مطلعها

كلية-تى لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطيء الكواكب
ومنها قوله يمدح عمرو بن الحرث الأصغر بن الحرث الأعرج بن الحرث الأكبر بن أبي
شمر النساني .

على لعمرو نعمة بعد نعمة
وثقت له بالنصر إذ قل قد غزت
بنو عمه دنيا وعمرو بن عامر
إذا ما غزوا بالجيش خلق عرفهم
لهن عليهم عادة قد عرفها
على عرفات للطعام عوايس
إذا استزلوا عنهن للطعن أرقلوا
فهم يتساقون المنية بينهم
ولا عيب فيهم غير أن-يو فهم
تورثن من أزمان يوم حليلة
لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم
مخافتهم ذات الآله ودينهم
رقاق المسال طيب حجزاتهم
تحبيهم يبيض الولائد بينهم
يصونون أجسادا قديما نعيمها
ولا يحسبون الخير لا شر بعده

لوالده ليست بذات عقارب
كتائب من غسان غير أشائب
أولئك قوم بأسهم غير كاذب
عصائب طير تهتدي بمصائب
إذا عرض الخطى فوق السكواكب
بين كؤوم بين دم وجالب
إلى الموت إرقال الجمال المصاعب
بأبد بهم يبيض رقاق المضارب
بين فلول من قراع الكتائب
إلى اليوم قد جرب كل التجارب
من الجود، والأحلام غير عواذب
قويم فما يرجون غير العواقب
يحجون بالريحان يوم السباب
وأكسية الأضريح فوق المشاجب
بخالصة الأردن خضر المناكب
ولا يحسبون الشر ضربة لازب

عنه ذلك الا هذا الشاعر نفسه ، ذكروا أن بشر بن أبي خازم الأسدي لما حمل علي هجاء أوس بن حارثة بن لأم الطائي ، فهجاه بما تقدم بعضه في فنون الشعر ووقع بشر أسيرا عند بني نبهان من طيء ، اشتراه أوس بمائتي بعير ، ولما أخذه قال له هجوتني ظلما ، فاختر بين قطع لسانك وحبسك في سرب حتى تموت ، وبين قطع يديك ورجليك وتخلية سيملك ^(١) قالوا فسمعت أمه وهي سعدى بنت حصن من سادات طيء ، فقالت لأوس ، يا بني لقد مات أبوك فرجوتك لقومك عامة فأصبحت والله لا أرجوك لنفسك خاصة ، أزعمت أنك قاطع رجلا هجاك ، فمن يمجو إذن ما قال فيك ، قال فما أصنع به قالت تكسوه حلتك وتحمله علي راحتك وتأمر له بمائة ناقة حتى يغسل مديحه هجاءه ، ففعل فامتدحه بشر فأكثر ، قال أبو محمد الأخفش ، مدح بشر أوسا وأهل بيته مكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة ، وكان هجاهم بخمس فمدحهم بخمس .

ومن مدائحهم فيه قوله من قصيدة والخطاب للناقة .

الى أوس بن حارثة بن لأم لربك فاعملى إن لم تخافى
فما صدع بخبة أو بشرج على زلق زوالق ذى كهاف ^(٢)
تزل اللقوة الشغواء عنها مخالبها كأطراف الأشافي ^(٣)
بأحرز موثلا من جار أوس اذا ما ضم حيران الضعاف
وما ليث بعثر في غريف تغنيه البعوض علي النطاف ^(٤)
مغب ما يزال على* أكيل يناغي الشمس ليس بنى عطاف ^(٥)

(١) هكذا قال الرواة ، والظاهر ، أن سياق القول يقتضى قرن التخلية بقطع اللسان وقرن الحبس بتقطيع اليدين والرجلين ، حيث لا يخشى من التخلية هجوا إذا قطع اللسان ولا ترجى منها فائدة إذا قطعت الأطراف .

(٢) الصدع بالنحو يك الشاب الفتى من العول والظباء والجر .

(٣) اللقوة الشغواء العقاب وسميت شغواء لاختلاف نبتة أسنانها طولا وقصرا ، والأشافي جمع أشفى وهي الخراز (٤) الغريف القصباء والخلفاء أو الاجمة ، والنطاف جمع نطفة وهي الماء الصافي (٥) المطاف اللين والسهولة

بأبأس سورة بالقرن منه اذا دعيت نزال لدى النفاق (١)
وما أوس بن حارثة لأم بغير في الأمور ولا مضاف
ومن ذلك ما كان من حسان بن ثابت في بني عبد المدان ، فقد هجاهم ببسطة
أجسامهم وكانوا يفخرون بها فقال .

لابأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير
فلم يزالوا يحجلون منها حتى محاذ ذلك عنهم بقوله .

وقد كنا نقول اذا التقينا لدى جسم يعد وذى بيان
كأنك أيها المعطى لسانا وجسما من بني عبد المدان
وأغرب مما تقدم في تأثير الشعر ، أنه كان إذا تعرض لئابه أنزله من ذروته فإذا
أعان خاملا رفعه من وهدهته

فمن قضي علي مكاتهم الربيع بن زياد وكان من خواص النعمان ، لا يزال ينادمه
ويؤاكله ، حتى سمع فيه وهما ياكلان ، أرجوزة لبيد التي يقول فيها
مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه إن استه من برص ملعه
وأنه يولج فيها إصبه يولجها حتى يوارى أشجعه
كأنما يطلب شيئا أودعه

وفيهما كرايت إقذاع ، فرفع يده عن الطعام فقال الربيع أبيت اللعن كذب الغلام ،
وأراد الاعتذار فقال النعمان

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا فما اعتذارك من قول اذا قила
ثم حجه بعد ذلك فسقطت منزلته

وممن رفعهم بعد خمول الحلق الكلابي ، وكان مملقا كثير البنات قد رغب عن
مصاهرته الأزواج ، فأشارت عليه امرأته أن يضيف الأعشى وهو قادم الى الموسم ،
فيكرمه بكل ما يملك ليقول فيه قولاً تترزوج به بناته وتحسن حاله ، ففعل ،
وعرف الأعشى ذلك ، فلما أصبح بعكاز أشد قافيته المشهورة التي يقول فيها فيما
نحن بصده .

نفي الدم عن آل المحلق جفنة بكاية الشيخ العراقي تفهق
 ترى القوم فيها شارعين وبينهم مع القوم ولدان من النسل دردق
 لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
 تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمخلق
 رضيعى لبان ندى أم تحالفا بأسحهم داج عوض لا تفرق
 تري الجود يجرى ظاهر افوق وجهه كما زان متن الهندوانى رونق

فما أتم القصيدة إلا والناس يتسألون إلى المخلق يهنؤونه ويخطبون بناته ،
 فلم تمس واحدة منهن إلا فى عصمة رجل بين الفضل على أبيها .

بل لقد بالغ من تأثير الشعر أنه كان بيت واحد يجعل مفخرة القبيلة مسبة
 ومسبتها مفخرة .

كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم لأبيهم ، لما روى من أنه لقب به لتعجيله
 قرى الأضياف ، فلما هجأهم النجاشى بأبيات منها .

وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد والعجل

صاروا يستحيون منه (١)

وكان بنو أنف الناقة ينجحون من هذا الاسم ويتجاوزونه في نسبهم حتى
 قل الحطيئة .

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الدنيا

(١) الأبيات هي : —

إذا الله عادى أهل لؤم ورفة فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل
 قبيله لا يندرون بدمه ولا يظلمون الناس حبة خردل
 ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوارد عن كل منهل
 تغاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل
 وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد والعجل

فصاروا يتناولون به ويمدون فيه أصواتهم بجهارة (١)
بل لقد بلغ من تأثيره أيضا أنه كان كما قل فيه أبو تمام بعد ،
يرى حكمة مافيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
وقديما نفر عامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة مع تسوية الحكم — وهو
هرم بن قطبة — بينهما بقول الأعشي .

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر
إن تسد الخوص فلم تعدهم وعامر ساد بنى عامر
ساد وألقى قومه سادة وكابرا سادوك عن كابر
ولست بالأكثر منهم حصا وإنما العزة للكابر
إلى أن قل يذكر ما تحاكما من أجله والحكم الذى قضي بينهما
إن الذى فيه تحاربتا بين السامع والناظر
ما جعل الجد الظنون الذى جنب صوب اللجب الماطر (٢)
مثل الفراتى إذا ما طما يقذف بالبوص وبالماهر (٣)
حكمتوه فقضى بينكم أزهـر مثل القمر الباهر
لا يقبل الرشوة فى حكمه ولا يبالى غبن الخاسر

من ذلك كله وغيره ، كان الشعراء ذوى منزلة ترجى وترغب كما تخاف وترهب ،
لا يزالون يستخدمون للوعيد والأغراء ويستعان بهم فى الاستعطاف والاستشفاع ،

(١) هذا البيت من قصيدة يقول فيها : —

سرى أمام قات الأكثرين حصا والأكرمين إذا ما ينسبون أبا
قوم دم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا
قوم يبيت قرير العين جارهم إذا لوى بقوى أطناهم طنبا
قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم شدوا العناح وشدوا فوقه الكربا
ردوا على جار مولاهم بمهلكة لولا الإله ولو عطفهم عطيا
فوفروا ماله من فضل ما لهم لولا الإله ولولا سعيهم ذهبيا
لن يتركوا جار مولا دم عتلفة غرباء ثم يطووا دونه السببا
لا بد فى الجد أن تلقى حفيظتهم يوم اللقاء وعيضا دونهم أشبا

(٢) الجد البئر الشحيح (٣) الماهر هنا السامع

ففي الجاهلية أغرى أوس بن حجر عمرو بن هند على بني سحيم ومرارة بن سلمى من بني حنيفة ففكّل بهم (١) واستشفع علقمة الفحل الحارث الغساني في أخيه شاس وتسعين أسيرا معه من تبم فأطلقهم له جميعا (٢) وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم كان ما كان للمسلمين والمشرّكين على ألسنة الشعراء من الفريقين ، وأمر رسول الله في ذلك وفي قبول الشفاعات من الشعراء ثابت معروف ، كما أن ما بعده في سائر العصور كثير مشهور ، ولكن لاداعي ونحن في العصر الجاهلي ، أن نجاوزه إلى ما خلفه من عصور ، فيما كان للشعر من أثر ، وللشعراء من مكان .

(١) كان الأغراء بهذه الأبيات

نبئت أن بني سحيم أدخلوا
فلبئس ما كسب ابن عمرو رهطه
زعم ابن سلمى مرارة أنه
منع اليمامة حزنها وسهولها
إن كان ظني بابن هند صادقا
حق يلف نخيلهم وزروعهم
(٢) وقع هذا الاستشفاع بقصيدة طويلة جاء منها

إلى الحرث الوهاب أعملت ناتي
لتبلغني دار امرئ كان نائبا
وأنت امرؤ أفضت إليك أمانتي
فأدت بنو كعب بن عوف ريديها
فجالدتهم حتى اتقوك بكبشهم
وقاتل من غسان أهل حفاظها
تمجود بنفس لا يجاد بمثلها
وفي كل حي قد خبطت بنعمة
وما مثله في الناس إلا قبيلة
فلا تحرمني نائلا عن جنابة
بكل كلبها والقصر بين وجيب
فقد قربتني من نذاك قروب
وقبلك ربة نى فدعت ربوب
وغودر في بعض الجنود ريب
وقد حان من شمس النهار غروب
وهنب وقاس جالدت وشيب
وأنت بها يوم اللقاء تطيب
فحق لشاس من نذاك ذنوب
مساو ولا دان لذك قريب
فأني امرؤ وسط القباب غريب

٥ — طبقات الشعراء ومنزلة أصحاب المعلقات فيهم

ثم سبب تسميتها بهذا الاسم

ليس في طبقات الشعراء من حيث عصور التاريخ خلاف ، فالكل مجمعون على أنهم أربع طبقات ، جاهليون لم يدركوا الاسلام كامرئ القيس أو أدركوه ولم يقولوا فيه شعراء كليد ، ومخضرمون أدركوه وقلوا فيه شعرا كحسان والخطيئة ، وإسلاميون وهم من لم يدركوا الجاهلية ونهايتهم آخر العصر الأموي ، كالفرزدق وجري والأخطل ، ثم مولدون وهم الذين اختلطوا بشعوب الأمم الأخرى من الفرس والروم والمصريين وغيرهم منذ الدولة العباسية وهم من الكثرة بحيث لا يمكن لهم إحصاء .

ولكن الخلاف كبير في تقسيمهم من حيث الشعر والشهرة في كل عصر من هذه العصور ، والذي يعيننا الآن العصر الجاهلي ، وأقصد القول فيه ما كان لأبي عبيدة معمر بن المثنى فقد جعله ثلاث طبقات ، وضع في أولها امرأ القيس وزهيرا والنابعة ، وفي ثانيها الأعشى ولييد وطرفة ، وفي ثالثها عنتره وعمرو بن كلثوم وعروة ابن الورد ودريد بن الصمة والمرقش الأكبر وحاتم الطائي ، وكأنه سكت عن طبقة رابعة أو أكثر يوضع فيها الحارث بن حلزة الباقي من رجال المعلقات ، وسائر الشعراء ، وبذلك نفهم طبقة كل واحد من رجال المعلقات .

ولعل أطول تقسيم للطبقات ما فعل ابن سلام ، فقد أوصل طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين معا إلى عشر ، غير شعراء المراثي ، وغير شعراء القرى العربية الخمس ، وهي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين ، وغير شعراء اليهود في المدينة وأكنافها ، ووضع في كل طبقة أربعة شعراء ، على ما في اتحاد العدد من تحكم لا يتفق وطبيعة التقسيم ، فكان امرؤ القيس وزهير في الأولى ومعهما النابغة والأعشى ، وكان لييد في الثالثة ومعها نابغة بني جعدة وأبو ذؤيب الهذلي والشمخ بن ضرار ، وكان طرفة في الرابعة ومعها عبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة الفحل وعدى بن زيد ، وكان عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنتره في السادسة ومعهم سويد بن أبي كاهل ،

وليس فيما لم نذكر من باقى الطبقات وهى الثانية والخامسة والسابعة والثامنة والتاسعة
والعاشرة أحد من رجال المعلقات (١) .

فابن سلام على طول تقسيمه يتفق مع أبى عبيدة فى أن المتقدمين على جميع الشعراء أربعة ،
هم امرؤ القيس وزهير والنابعة والأعشى ، وهذا الذى يكاد ينعقد عليه الأجماع ،
غير أن الخلاف فى أيهم المقدم بالغ أشده ، فعلماء البصرة يقدمون امرؤ القيس ،
وأهل الكوفة يقدمون الأعشى ، والحجازيون يقدمون زهيراً والنابعة ،
والذى يجدر بالباحث اتباعه هو عدم الاعتداد بهذا الخلاف ، لأنه لفظى أكثر منه
فى الصميم ، إذ لكل ناقد وجهة نظر تخالف وجهة الآخرين .

فمن احتج لامرؤ القيس نظر إلى سبقه فى ابتداء أشياء استحسناها العرب واتباعه
فيها الشعراء ، كاستيقاف الأصحاب وبكاء الأطلال والأكثر من التغزل وتشبيه
النساء بالبيض والظباء ، والخيل بالعقبان والوحوش وأنها قيد الآوابد وغير هذا .

ومن احتج لزهير نظر إلى أنه أحكمهم شعراً وأبعدهم من السخف وأجمعهم
لكثير من المعانى فى قليل من الألفاظ ، وأنه كان لا يعاظم بين الكلام ولا يتبع حوشيه
وأنه مع بلوغه فى المدح لم يمدح أحداً بغير ما هو فيه .

ومن احتج للنابعة قال إنه أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم
بيتاً وكان شعره منشور لا تكلف فيه .

أما أصحاب الأعشى فقالوا إنه أكثرهم عروضاً وأذهيهم فى الشعر فنونا
وأكثرهم طويلة جيدة ومدحاً وهجاء ونظراً وصفه .

هكذا قال ابن سلام وذكر أنه شهد خلفاً وقد قيل له من أشعر الناس فقال
ما ينتهى هذا إلى واحد يجتمع عليه كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس
وأجمل الناس وهكذا .

والذى عليه أكثر الرواة فى المعلقات أنها كما جمعها حماد وأوردها الزوزنى سبع ،

(١) يمكن الوقوف على شعراء كل طبقة لم نذكرها - لعدم وجود أحد من رجال
المعلقات فيها - بالرجع إلى كتاب ابن سلام « طبقات الشعراء »

وهي بالترتيب ، قفانبك ، لامرىء القيس ، لحولة أطلال ، لطرفة ، أمن أم أوفى ،
لزهير ، عفت الديار ، للبيد ، ألاهي ، لعمر بن كلؤم ، هل غادر الشعراء ، لعنرة ،
أذنتنا بينها أسماء ، للحارث بن حنظلة .

وقد جعلها صاحب الجهرة ثمانيا بأسقاط ابن حنظلة وزيادة النابغة فالأعشى بعد
زهير ، ومعلقة الأول « عوجوا خيوا لنعم دمنة الديار » ومعلقة الثاني « ما بكاء
الكبير بالأطلال » وبعدهم لبيد فعمر بن فطرفة فعنرة .

أما التبريزي فجعلها عشرا زيادة ثلاث على السبع ، اثنتين للنابغة والأعشى كما
فعل صاحب الجهرة ولكنهما « يادار مية بالعليا فالسند » للنابغة ، و « ودع هريرة
ان الركب مرتحل » للأعشى ، وواحدة لعبيد هي « أقفر من أهله ملحوب » ثم
ألقى بالمعلقات قصيدة ثانية للأعشى هي « ألم تغتمض عينك ليلة أرمدا »

وفي سبب تسميتها بالمعلقات خلاف . فابن عبد ربه يقول إنه تعليقها على أستار
الكعبة مكتوبة بماء الذهب في القباطي المدرجة وهذا كلامه (وقد بلغ من كلف
العرب بالشعر وتفضيلها له أن عدت سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبها
بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها بأستار الكعبة ، فمنه يقال مذهبة امرئ القيس
ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع يقال لها المعلقات) وقد وافقه علي ذلك ابن رشيق وابن
خلدون إلا أن الأخير لم يقيّد التعلق بالأستار ولا الكتابة بماء الذهب ولا في القباطي
وقال بقوله صاحب الخزانة .

وأبو جعفر النحاس وكان معاصرا لابن عبد ربه ينكر التعليق على الكعبة ويقول إنه
لا يعرفه أحد من الرواة ، مستندا في ذلك على أن حمادا حين جمعها قال هذه هي
المشهورات فسميت القصائد المشهورة ، ولو كانت علقت على الكعبة لأعطاها هذا الاسم ،
وقد أخذ المستشرقون بهذا الرأي ، لأنه لم يوجد للتعليق أثر ولا ذكر ، حين تهدمت الكعبة
وجدت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأن العرب لا تدنس الكعبة بتعليق
أمثال شعر امرئ القيس عليها ، ولكن هذين ليسا بالدليلين القاطعين ، فإن
التدنيس ليس ما تراه العرب في الشعر ، لماله عندهم من عظيم المسكنة ، فهذا عبد الله بن
عباس على منزلته ، كان يجلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع شعر

ابن ابى ربيعة فلا ينكر عليه ذلك ، وأما عدم وجود أثر أو ذكر فسببه أن التعليق لم يك دائما بل فى فترات غير طويلة لاتعدو الموسم الذى قيلت فيه المعلقة ، وقد ذهب كل ذلك قبل الاسلام ، هذا على أن تعليق الأشياء الهامة على الكعبة كان من دأب العرب جاهلية وإسلاما ، فقد علق قريش الصحيفة التى تأمرت فيها على قطعة بنى هاشم ، وعلق الرشيد عهده بالخلافه للأمين والمأمون .

والذين ينكرون هذا التعليق على الكعبة ويقولون بوجود هذه التسمية من القديم ، يتلمسون لها سببا غيره ، فمنهم من يقول إن الأشعار حينما كانت تشد بعكاظ وتستحسن ويبلغ ذلك ملك الحيرة ، يقول علقوا لنا هذه بمعنى أثبتوها فى خزانتنا ، وقد روى أنه كان عند ملوك الحيرة ديوان مكتوب جمع فيه شعر الفحول على مارواه ابن سلام . ومنهم من يقول إن العرب كانت فى الجاهلية اذا كتبت شيئا فى الرقاع المستطيلة من الحرير أو الجلد أو نحوهما ، وخافت عليه قرض فأرة أو تأكل عثة ، طوته على عود أو خشبة وعلته فى جدار البيت أو الخيمة بعيدا عن الأرض وأنهم لحرصهم على المعلقة فعلوا بها هذا .

ذاك مجمل ما قيل فى أسباب التسمية بالمعلقة وعندى أن هذه تسمية مستحدثة بعد اختيار حماد ، أوحى بها ضمنا ما كانت تتجوز فيه العرب من تسمية القصيدة الجيدة سمطا ، والسمط العقد النفيس ومن شأنه أن يعلق فى الجيد ، وهدى اليها صريحا ما ذكره أبو زيد فى جمهرته حيث قال «هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب السموط» ثم جاء بعده من قال المعلقة بدل السموط من باب الترادف أو التعبير عن اللفظ بما يدل عليه لازم معناه ، فشهرت بهذا الاسم الأخير.

٦ — منزلة المعلقة من الشعر الجاهلى

أما منزلتها من الشعر الجاهلى فى الذروة من منازلها ، لما امتازت به من طول القافية ، وتنوع الأغراض ، وكثرة ما ابتكر فيها من ضروب المعانى والتشبيهات ، هذا على ما لأسلوبها من القوة والمتانة . وهذه نبذة عن مشتملات كل معلقة ، وبعض النماذج لهذه المشتملات ، تبين ما ذكرنا من ميزات ،

١ — معاقبة امرء القيس

سلك امرؤ القيس في معلقته مسلحاً كصور فيه حياته ، فأرانا كيف كان يعيش
لا هبالاً عاباً ، تدأرخي لنسبه العنان الى غير حد ، لم يتعنع في إحساس ولم يتستور وراء
تعبير ، بل ترك بيانه طوع شعوره ، لا سلطان لعقله على هواه ولا فيكاك للسانه عما
يريد ، وكل ذلك في أغراض متجاسسة وأساليب يأخذ بعضها بحجز بعض .

بدأها بخير مطلع عرف ، على غير مثال سابق ، هو الوقوف على الاطلاق للبكاء
من ذكرى أحبابها الراحلين ، وقد تصور مرارة البين والفراق فوقف أصحابه
يؤسونه وهو لا يرى من شفاء في غير سفع العبرات ، قل

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال (١)
تري بعز الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلذل (٢)
كانى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرة الحى ناقف حنظل (٣)
وقوفا بها صجي على مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجمل
وإن شفاى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

بهذا بدأ ثم انسل الى أن ذلك دأبه من أمى الحويرث والرباب ، وأخذ يصفهما
ويذكر أياما له معهما حتى خلص الى يوم الدارة مع فاطمة ابنة عمه ، فاعطال في ذلك ،
وكان ختام محاورته معها هذا العتاب الرقيق

أفظم مهلا بعض هذا انتدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجمل
وإن تك قد ساءتلك منى خليقة فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

(١) قد حد منزل حبيته في سقط اللوى . بتلك الأماكن الأربعة التي ذكرها بعده وكلها
من منازل كلاب في نجد ، ونسب الأصمعي عدم عفاء الرسم إذا اعتورته ريحان إلى أن
إحداها ذسفت عليه ففطنه عبت الأخرى فكشفت عنه ماسفت الأولى (٢) الآراء الظباء
البيض واحدا رعم ، والعرضات الساحات جمع عرصة ، والقيعان مواضع استنقاع الماء جمع
قاع (٣) المسر شجرة ، ونقف الحنظل شقة عن حبه

أغررك منى أن حبك قاتلى وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عينك الا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل (١)
وكأنه عز على نفسه أن يكون الدليل أمامها ، فأخذ يريها عزته مع غيرها وكان
من ذلك ديبه الى ربة خدر هو ذو منزلة منها على ما أوتيت من منعة وجمال أخذ
يصف آياته ويعدد محاسنه قل

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تتمعت من لهُو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا اليها ومعشرا على حراصا لو يسرون مقتل
إذا ما الثريا ما فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المنفصل
ثم أخذ يفيض فى وصف محاسنها وترفها إلى أن قل خاتما قوله بأنه لذلك لن
يسلوها ولو تسلى غيره عن هواهم .

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدي الستر إلا لبسة المنفصل (٢)
هصرت بغودى رأسها فتمايلت على هضم الكشح ريا المخلخل (٣)
تضى الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل
الى مثلها يرنو الحليم صباة اذا ما اسبكرت بين درع ومجول (٤)
تسلث عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادى عن هواها بمنسلى
وقد دفع به الديب الذي كان ليلا حيث قل
إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المنفصل
إلى ذكر الليل وطوله على ذوى الهموم ، فبلغ فى ذلك مبلغا كان آية الاعجاز ،
اسمع اليه يقول

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليتلى

(١) السهمان هما الملقى بسبعة والرقب بثلاثة وأخذهما لا يبق من أقسام البعير شيئا لأنها عشرة (٢) نضت خلعت ، المنفصل الذى لم يبق على جسمه الا لبسة النوم وتسمى الفضل (٣) هصرت جذبت وثنية ، والغودان فرعا الشعر ، وهضم الكشح ناحلة الخصر وريا المخلخل مكان المخلخل (٤) اسبكرت استطالت ، والدرع الثوب الكبير والمجول الثوب الصغير

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل (١)
 ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الاصبح منك بأمثل
 فيالك من ليل كان نحومه بكل مغار القتل شدت ييذب (٢)
 كان الثريا علقت في مصامها بأمراس كستان الى صم جندل (٣)
 وهناك ليل آخر قد أحياء ساهرا غير ليل الدييب - والحديث ذو شجون -
 بقطع الأودية سمعا لعواء الذئب ، مشبها نفسه بها الى أن ولى ، فغدا إلى الصيد
 بفرس أتى في وصفه بما لم يسبقه اليه سابق ولا أدركه فيه لاحق ، قل

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوايد هيك (٤)
 مكر مفر مقبل مدبر معا كجامود صخر حظه مسيل من عل
 كمت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل (٥)
 مسح إذا ما السابحات على الونى أثرن الغبار بالكديد المركل (٦)
 درير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بنحيط موصل (٧)
 له أيطلا ظي وساقا نعامه وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٨)

وما إن عن له سرب حتى حمل عليه بفرسه الذى أجاد نغته فقال
 فعن لنا سرب كان نعاجه عذارى دوار فى ملاء منديل
 فعادى عداء بين ثور ونعجة درا كا ولم ينضح بماء فيغسل
 فظل طهاة اللحم من بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل (٩)
 وهكذا قضى يومه مع صحبه ، ثم راحوا وكانت العشية عشية برق ينذر بمطر
 وابل لم يلبث أن هطل فقال يصفه .

(١) الصلب الظهر ، والمجز المؤخر . والكلكل الصدر (٢) مغار القتل شديده ،
 ويذب جبل (٣) مصامها سكونها ، وفي مصامها حال من الثريا ، والأمراس الحبال .
 (٤) المنجرد القصير الشعر ، والأوايد جمع آيدة وعى الوحوش ، فهو يلجئها كأنه قيدها ،
 والهيكل الضخم (٥) الكيت الحمري اللون ، وحال متنه وسط ظهره (٦) يقول إذا
 فترت الخيل السريعة من التعب فأثارت الغبار بقى هو سرعا . (٧) الدرير الكثير الدر ،
 والخذروف نحلة الصبي (٨) أيطلا الظبي خاضرته ، والسرحان الذئب ، والتفل الثعلب
 (٩) القدير ما يطبخ فى القدر .

فأضحى يسح الماء حول كتيفة يكب على الأذقن دوح السكتهيل (١)
ومر على القنان من نقيانه فأنزل منه العصم من كل منزل (٢)
وتباء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطما إلا مشيدا بجندل

ولما لم يترك جذع نخلة الا قعره ولا أطما الا جدله ، غدا ثير ورأس المجير وهما
جبلان كما قل .

كأن ثيرا في عرائن وبله كبير أناس في بحاد مزمل (٣)
كأنه ذرا رأس المجير غدوة من الليل والغناء فلكة مغزل (٤)

وما أجمل موازنته بين حالى المسكاكى والسباع غب هذا السيل ، حيث يقول
وبه ختم المعلقة

كأن مسكاكى الجواء غدية صحن سلافا من رحيق مفلفل (٥)
كأن السباع فيه غرق عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل (٦)

٢ — معلقة طرفة

بدأ طرفة معلقته كما بدأ امرؤ القيس بالوقوف على الدمن وتذكر أهلها الظاعيتين فقال
لحولة أطلال بيرقة نهمد تلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد
واتفق معه لولا القافية فى البيت

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجلد

ولكنه خالف فى ذكر الهوادج وفى تشبيهها بالسفن وتشبيهه حيازيم السفن بيد
المفايل قال .

(١) كتيفة موضع ، والسكنبل شجر ، ودوحه عظيمة (٢) القنان جبل ، ونقيان
المطر ما يتطاير منه ، ومن زائده (٣) ثير جبل ، وعرائن الوبل أوائله ، ومزمل صفة لبجاد تجوزا
(٤) المجير جبل ، والغناء الثبت . وفلكة المغزل رأسه (٥) المسكاكى نوع من الطيور
والسلاف الجر ، والمفلفل المخلوط بالفلفل (٦) الأنوش الأصل ، والعنصل البصل البرى ،
وغرق حال من السباع .

كأن حدوج المالكية غدوة خلایا سفین بالنواصف من دد (١)
عدولية أو من سفین ابن یامن یجور بها الملاح طوراً ويهتدى (٢)
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد (٣)
ومنها انتقل الى التشبيب بفتاة تشبها لم ينطلق فيه ولكنه أجاد ،
فكان مما قال في الثغر والوجه .

وتبسم عن ألمى كأن منورا تخلل حر الرمل دعص له ندى (٤)
سقته أية الشمس إلا لثائه أسف ولم تكدم عليه بأمد (٥)
ووجه كأن الشمس ألت رداءها عليه نقي اللون لم يتحدد (٦)
وكل ذلك لم يكن له بالمقصود ، فقد مر عليه مرا قضاء لحق المطالع عند العرب ،
ثم انتقل إلى ما يريد ، وأوله وصف الناقة الذى بدأه بقوله

وإني لأمضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتعدى
واستمر في وصفها حتى سلخ فيه أربعة وثلاثين بيتاً ، فلم يترك شيئاً من أوصافها
الحسية إلا وفاه بدقة وحسن أداء ، ولا من ضروب سيرها نوعاً إلا أجراه في لباقة
ورصف كلام ، وكان آخر ما أفرغ عليها من صفة ، جعله إياها أداة نجدته
للمستصرخين ولو لم يقصدوه ، قال :

على مثلها أمضى إذا قال صاحبي ألا ليتني أفديك منها وأفندي (٧)

(١) جمع حدج ، وهو مركب النساء . والخلایا العظام . والنواصف المتسعات ،
ودد وإد عظيم . (٢) نسبة إلى عدول قبيلة بالبحرين . وابن یامن رجل صانع
سفن مجيد . (٣) الحباب الأمواج . والحيزوم الصدر . والمفايل لاعب الفیال أو المفايلة ، وهى
لعبة كان صبيان الأعراب يلعبونها ، فيكومون كومة تراب أو رمل ويخبثون في أحد جوانبها
خبثاً ثم يشقها المفايل قسمين ويقول الخبيء في هذا الجانب أو ذاك ، فإن أصاب ظفر بالرهان
والا ظفر به خصمه .

(٤) الألمى الضارب إلى السواد . والمنزور الأقحوان . والدعص الكتيب . (٥) أية
الشمس شعاعها . والاسفاف الخلط ، والسكدم الغض . (٦) اتخذدالتشقق (٧) الضمير
في منها يعود على الفلاة التى يمضى فيها وهى موطن الخوف والهلاك

وجاشت اليه النفس خوفاً وخاله مصاباً ولو أمسى على غير مرصد (١)
إذا القوم قالوا من فتى خلت أنى عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ثم ذكر سيرها وشبهها متبخترة فيه بالوليدة التي ترى ربها أذيال ثوبها الطويل
حيث يقول :

فذالت كما ذالت وليدة مجلس ترى ربها أذيال سحبل ممدد
فكان التشبيه الثالث والعشرين في الناقة ، مما انفرد به دون سائر الشعراء ،
ومن ثم عد من وصافي الأبل المبرزين .

وقد وصل هذه المفخرة التي انتهى إليها في هذا الوصف بمفاخر تنبيء عن صفاته
وأحواله ، فذكر أنه فوق نجدته وطيب أرومته تلقاه في حلقة السادة إذ تكون
المقامة ، كما تصطاده في حوانيت اللاهين حين اللهو ، وقد توسط نداماه ومعه قينة تغنيهم ،
وأن عشيرته لذلك قد تحامته ، ولكن ذلك التحامى لم يطعن في بقائه معروفاً
للجميع ، قال :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد
فان تبغى في حلقة القوم تلقى وان تلتمنى في الحوانيت تصطد
متى تأتني أصبحك كأساً روية وإن يلتق الحى الجميع تلاقى
إلى ذروة البيت الرفيع المصمد تروح الينا بين برد ومجسد (٢)
ندامى بيض كالنجوم وقينة بحس الندامى بضة المتجرد (٣)
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة إذا نحن قلنا أسمعنا انبرت لنا
على رسلها مطروفة لم تشدد (٤) تجاوب أظآر على ربع ردى (٥)
ومازال تشرابى الخمر ولدنى ويبيع وإتفاق طريقي ومتلدى

(١) الضمير في إليه للصاحب الذي جاشت إليه نفسه من خوف الهلاك بالمفازة ولو لم
يرصد له أحد لما يتوقع في القلاة من ظلم

(٢) المجسد ما بلى الجسد أو ما صعب بالجساد وهو الزعفران (٣) قطاب الجيب
مخرج الرأس منه، والمتجرد الجسم (٤) المطروفة الفاترة الطرف (٥) الأظآر ذوات
الولد، والربع ابن الربع

إلى أن تخامتني العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد (١)
 رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذا الطرف الممدد (٢)
 فهذه نفسية طرفة اللاهى قد حللها لنا في هذه الأبيات ، وأخذ بعدها يولم من
 يزجره أن يحضر الوغى ويشهد اللذات ، مادام لا يستطيع عنه دفع المنون ، ويدكر
 أن العيش ثلاث ، الحمر والنجدة والنساء ، ومن حرمها كان بخيلا لا يلبث أن يترك
 ماله ويموت ، فلا يكون لقبره فضل على قبور الكرماء ، وهذا بعض ما قل :

ألا أيهذا اللائى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلصى
 فان كنت لا تستطيع دفع منيق فدعنى أبادرها بما ملكت يدي
 فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
 فمنهن سبقى العاذلات بشرية كمت متى ما تعل بالماء تزيد
 وكرى إذا نادى المضاف مجبنا كسيد الغضا نهته المتورد (٣)
 وتقصير يوم الدجن والدجن معجب بهكنة تحت الطرف المعبد (٤)
 فذرني أروى هامتي في حياتها مخافة شرب في الحياة مصرد
 كريم يروى نفسه في حياته ستعلم إن متنا غدا أينما الصدي
 أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى في البطالة مفسد (٥)
 أرى الموت يعتام الكبار ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
 أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
 لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكا لطول المرخى وثنياه في اليد (٦)
 منى ما يشأ يوما يقده لحقه ومن يك في جبل المنية ينقد

ومن هنا خرج إلى مالك ابن عمه يعاتبه على لومه إياه في طلبه حمولة أخيه معبد
 وفي استعائته به في الطلب ، ويدكر أنه فعل ذلك تقريبا للقربى مع قدرته على مقابلة

(١) المعبد المطلي بالقطران لجربه (٢) الغبراء الأرض ، وبنوها الفقراء والطراف البيت
 والممدد الذى مد بالأطناب (٣) الفرس المجنب ذو الجنب وهو بعد ما بين الرجلين من غير
 فحجج (٤) البهكنة التامة المخلق (٥) النعام السعال سمي به البغيل لأنه يكثر سعاله إذا طلب
 منه شيء (٦) الطول الجبل الذى يطال للدابة لترعى

الجميل بجميل ، وفي هذا فاضت عاطفته بما تترك التعبير عنه له حيث يقول :

فمالي أراني وابن عمي مالكا متى أدن منه ينأ عني ويبعد
على غير ذنب جثته غير أنني نشدت فلم أغفل حمولة معبد
فلو كان مولاي امرأ هو غيره لفرج كربى أو لأنظرني غدى
ولكن مولاي امرؤ هو خانقي على الشكر والتسأل أو أنا مفتدى
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة علي المرء من وقع الحسام المهند
فذرني وخلقى إننى لك شاكر ولو حل يتيق نائيا عند ضرغد (١)
فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد
فأصبحت ذا مال كثير وزارنى بنون كرام سادة لمسود
على أنه لم يلبث أن سرى عن نفسه فاخرا بقوته وشجاعته وفتكه وإغارته ،
بآيات يقول في أولها :

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش كراش الحية المتوقد (٢)
ويقول في آخرها على لسان من يقصد أبله فيغتصب منها ما شاء فيدعه خوفا
منه وفرقا :

وقال ذروه إنما نفعمها له وإلا تسكفوا قاصى البرك يزد (٣)
ذاك نغره بنفسه ، ومن كان هذا شأنه كان جديرا إذا مات أن يبكى ، ولذلك
ساق القول بعد الى ابنة عمه طالبا منها أن تنعاه بما هو أهلها ، قال :

فان مت فانعنى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلينى كامرىء ليس همه كهمنى ولا يغنى غنائى ومشهدى
ثم أخذ يجمع لها صفاته الى أن اختتم المعلقة بهذه الآيات الثلاثة الخالدة .

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد
ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له كف موعد

(١) ضرغد اسم جبل ناء عنهم (٢) الضرب الخفيف الجسم ، والخشاش الدخال
في الأمور غير الهباب (٣) البرك جماعة الابل .

هذه معلقة طرفة ، وهى على ما رأيت منها شديدة الأسر ، قوية المعنى ، جيدة التشبيه ، ذات أمثال سائرة وحكم بالغة . ولذلك اعتبرت أجود المعلقة ، ولو كان لطرفة من الشعر ما يقارب فى الكثرة شعرا الأربعة المقدمين - امرئ القيس وزهير والنابعة - والأعشى - لوضع معهم كما قال أبو عبيدة ، أو لفضلهم جميعا كما قال الكثير من الشعراء والرواة والأدباء ، وإنما لم يكثر شعره لأنه مات فى العشرين .

٣ - معلقة زهير

لم يسبق زهير معلقته ، كما ساق زميلاه السابقان معلقتهما ، لغير ما سبب ظاهر سوى حفرة الشعر القاهرة ، تعبيراً عما فى النفس من ضروب الأحاسيس والوجدانات ، بل قالها فى غرض معين هو مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف على تداركهما عبساً وذياباً بالصلح بينهما فى حرب داحس والغبراء ، وتحملها فى ذلك على غير جنابة منهما الكثير من الديات ، وتلك يد تقاس عظمتها بما كان لتلك الحرب من شيوع ذكر وطول زمان ، ولكنه لم يجردها فى ابتدائها من ذكر الدمن والأطلال ووصف الظعان إذا تحملن للأسفار ، فقد وقف على الدمن حيث قال :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بخومانة الدراج فالتثلم (١)
ديار لها بالرقمتين كأنها مراجع وشم فى نواشر معصم (٢)
بها العين والآرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم (٣)
وقفت بها من بعد عشرين حجة فلا يا عرفت الدار بعد توهم (٤)

وقد أطل هذا الوصف فأجاد ، ووقع له من خيار التشبيهات وهو يصف الظعان الكثير ، وهذا بعض ما قال :

تبصر خليلي هل ترى من ظعان تحملن بالعلياء من فوق جرثم (٥)
كأن فتات العهن فى كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم (٦)

(١) أم أوفى حبيته ، والخومانة الأرض الغليظة . والدراج والمتلم ، موضعان بالعالية
(٢) الرقتان موضعان ، وأصل الرقة المكان يختلط برمله حجارة (٣) العين البقر ، والآرام
الظباء ، والإطلاء أولادها (٤) فلا يا أى بعد لاى وهو الجهد والمشقة (٥) جرثم موضع
(٦) العهن الصوف ، والفناء غيب الذئب .

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن ووادي الرس كاليد للهم
فلما وردن الماء زرقا جمامه وضمن عصي الحاضر المتخيم
وفيهن ملهى للطيب ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

ثم تركهم مقيمين الى ما أراد من تسجيل يد هرم والحارث فقال .

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما تبزل ما بين العشيرة بالدم (١)
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم (٢)
يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سجيل ومبرم (٣)
تدار كتما عبسا وذيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (٤)
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأتم
عظيمين في عليا معد هديتا ومن يستبح كنزا من المجد يعظم

وبعد أن أفاض فيما احتمله هذان السيدان من مغارم أصبحت مغنم لدوى الديات
انتقل الى المحالفين يسألهم الأخلاص للصلح ويحذرهم مغبة الحرب ، واصفا سوء
عواقبها وهو من خير ما قيل فيها ، قال

ألا أبلغ الأحلاف عنى رسالة وذيان هل أقسمتم كل مقسم (٥)
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يكتن الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
وما الحرب الا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
مقى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضرى اذا ضريرتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحي بثفالها وتلقح كشافا ثم تنتج فتتم (٦)

(١) تبزل اشتد واختلط ، والساعيان هرم بن سنان والحارث بن عوف ، وكلاهما من غيظ بن مرة (٢) ذكر جرهم لأنهم كانوا ولاية البيت قبل قريش (٣) السجيل المفتول على حبل واحد ، والمبرم المفتول على اثنين ، وذلك كناية عن سهولة الأمر وصوبته (٤) منشم امرأة كانت تتبع عطر التحالف للحرب وحنوط الميت فصارت يقشاهم بها (٥) الأحلاف أسد وعطفان وطبيء (٦) ثفال الرحي جلد يبسط تحتها ليقع عليه الطحين ، وتلقح كشافا تحمله مرتين في السنة والأثام ولادة توأمين

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد سم ترضع فتفطم (١)
فتغلل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم (٢)

ولم يفته في هذا المقام أن يعيب على حصين بن ضمضم تخلفه عن الصلح على
نية الأخذ بثأر أخيه ، وأن يحمد لمن ثأر فيهم على بعد الوتر منهم ، قبولهم الدية
احتراما للصلح دون أن يجاروه القتال ، كما لم يفته أن يذكر قصد حصين في القتل
على قوته وشدة بطشه ، وكان ورد بن حابس قتل أخاه هرم بن ضمضم ، وذلك قوله .

لعمري لنعم الحى جر عليهم بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم
وكان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم (٣)
وقال سأقضى حاجتى ثم أتقى عدوى بألف من ورأى ملجم
فشدوا ولم يفزع يوتا كثيرة لدى حيث ألفت رحلها أم قشعم (٤)
لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم (٥)
جرى متى يظلم يعاقب بظلمه سريعا والا يبد بالظلم يظلم

وكان زهيرا صفت نفسه وقد عالج هذا كله ، فأمدته روحانيته بتلك الحكم
الفذة الكثيرة التى ختم بها معلقته ، فكانت فى بابها أبلغ دليل على أن الفطرة إذا
صفت أدركت ما يقف العقل أمامه حائرا لا يدري كيف كان لها إليه السبيل ، وهامى
ذى ، وليست فى حاجة الى شرح لما بها من نصاعة ووضوح

سمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم
وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد دعم

(١) المراد بعاد هنا ثمود لأن عاقر الناقة من ثمود ، وإنما ساغ ذلك لأنه كان يقال لثمود
عاد الثانية ولعاد الأولى كما قال تعالى «وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقي (٢) يقصد
بقوله من قفيز ودرهم ، أن لحرب تغل لهم دماء وشرا كما تغل قرى العراق لأهلها من حب
يكال بالقفيز ويقدر بالدرهم (٣) السكشح الجنب ، والمستكنة النية المستترة وهى أن تخلفه عن
الصلح كان لنية الأخذ بالثأر (٤) أم قشعم للنية ، والقشعم النسر ، وكان يظهر فى الحرب للنيل
من جثث القتلى (٥) شاكى السلاح أى سلاحه ذو شوكة ، فأصله شائك وقلب كما قيل
جرف حار أى هائر .

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
ومن لم يصانع في أمور كثيرة
ومن يعص أطراف الزجاج فانه
ومن لم يند عن حوضه بسلاحه
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
ومن يجعل المعروف في غير أهله
ومن يك ذا فضل فيدخل بفضله
ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه
ومن يغترب بحسب عدوا صديقه
ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وكائن ترى من صامت لك معجب
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم يبق الا صورة اللحم والدم (٦)

٤ - معلقة لبید

جاءت معلقة لبید قطعة صادقة في تصوير البادية أصدق تصوير من النواحي
التي قصد إليها ، فانه بدأها بذكر الدمن في عفاها ، وكيف تحولت الى مراعى عشب
ونبات ومراتع ظباء ونعام ، ولكنها مع هذا قد جلت أطلالها السيول ، فوقف
يسألها وبقيت هي صما خوالد لاتبين ، فجاوزها الى تذكر أهلها الراحلين وأخذ
يصف الظعن ويتذكر نوار ، ولكنه عاد يقول لنفسه وما تتذكر من نوار وقدنأت
الى ديار لا أمل مع بعدها في لقاء ، وذلك كله حيث يقول مما قال .

-
- (١) العشواء الناقة ذات العشاء ، وخطبها ضربها بيديها ورجليها على غير هدى ، وليس
الأمر في الواقع كذلك لأن المنايا بقضاء من الله وقدر كما يؤيده البيت بعده (ومن هاب الخ)
(٢) يعضض بضرس ويوطأ بخف (٣) الزجاج جمع زج وهي الحديد في أسفل الرمح ،
واللهزم السنان في عاليته (٤) لا يتجمجم لا يتزعزع (٥) كائن هنا بمعنى كثير
(٦) هذا البيت في معنى الحكمة الجامعة « المرء بأصغريه قلبه ولسانه »

- عفت الديار محلها فقامها بمعنى تأبد غولها فرجامها (١)
فدافع الريان عرى رسمها خلقا كماضمن الوحي سلامها (٢)
رزقت مرايع النجوم وصاها وودق الرواعد جودها فراهما (٣)
فعلا فروع الأيهقان وأطفلت بالجلهتين ظباؤها ونعامها (٤)

ومن جميل التشبيه بعد هذا الذى تقدم

- وجلا السيول على الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها (٥)
أو رجع واشمة أسف نوورها كقفا تعرض فوقهن وشامها (٦)
فوقفت أسألها وكيف سؤلنا صا خوالد مايين كلامها (٧)
وقد أخذ على نوار إيغالها فى رحلتها وأعلن عزمه علي قطع لباتها بأبياته

التي يقول فيها

- شأقتك ظعن الحى يوم تحملوا فتكنسوا قطنا تصر خيامها (٨)
بل ما تذكر من نوار وقد نأت وتقطعت أسبابها ورمامها (٩)
فاقطع لبانة من تعرض وصله ولخير واصل خلة صرامها (١٠)
واحب المجامل بالجزيل وصرمه باق إذا ظلمت وزاغ قوامها (١١)
بطليح أسفار تركز بقية منها فأحنق صلبها وسنامها (١٢)

- (١) منى مكان معروف ، والغول والرجام موضعان . وتأبد توحش
(٢) الرياود ومدافعه ومجارى مائه ، والخلق البلى مفعول لأجله . والوحي الكتب جمع وحي
والسلام الحجارة جمع سلمة (٣) مرايع النجوم أمطار السحب . وودق الرواعد مطر السحب
الراعدة (٤) الأيهقان عشب يطول . وأطفلت أنجبت أطفالا . والجلهتان جانبى الوادى .
(٥) الزبر جمع زبور ، وهو الكتاب ، والمتون السطور (٦) الثور النفس المتخذ
من دخان السراج والنار ، أى المداد ، والكفف بكسر الكاف ، جمع كفة بالكسر ،
وهى الدارة وكل مستدير ، وبالضم جمع كفة بالضم لكل مستطيل ، وأسف ذر
وتعرض ظهر (٧) صا خوالد صخورا صا باقية بعد رحلة أهلها (٨) الظعن النساء فى
الهودج جمع ظعينة . وتكنسوا قطنا ، أى دخلوا أغطية للهودج من القطن كما تدخل
الظبية الكناس . وتصر خيامها تصفر من السرعة أو من جذب الريح إياها
(٩) الأسباب الجبال ، والرامام الجبال الخلقة (١٠) اللبانة الحاجة ، وتعرض تغير ،
وصرامها قطاعها والضمير للحاجة أى قطعها أبقى للخلة (١١) ظلمت عرجت ، وزاغ مال
والضمير للخلة (١٢) الطليح للمعى ، وأحنق ضمير

ثم اندفع يصف الناقة ويطيل ، ولكنه حاد عن جعل الوصف في جسمها فجعله في سيرها ، وأخذ يشبهها في سرعتها تارة بالسحابة الجهام تطردها ريح الجنوب ، وأخرى بأتان ملع حملت من أحقب غيور وامتنعت عليه ، فراه أمرها وعلاها حذب الأكام ، حتي إذا سلخا الشتاء بعيدين عن الماء وهبت ريح الصيف اشتد بهما الظمأ ، ففزعوا إلى الورود وانحدرا إلى النهر انحداراً كان له غبار كدخان نار أوقدت اليابس والرطب من النبات . وثالثة ببقرة وحشية أكل السبع فريرها فأخذت تبحث عنه سبعا كاملة الأيام ، حتي إذا يئست وجف ضرعها أحست صوت رماة أرسلوا خلفها الكلاب فكان لمساعدو للنجاة شديد ، وذلك حيث يقول في بعض مايقول

فاذا تغالى لهما وتحسرت وتقطعت بعد الكلال خدامها (١)
فلها هباب في الزمام كأنها صهباء خف مع الجنوب جهامها (٢)
أو ملع وسقت لأحقب لاه طرد الفحول وضربها وكدامها (٣)
يعلوها حذب الأكام مسحجا قد رابه عصيانها ووحامها (٤)

إلى آخر ما قال في الأتان مما ألعنا إلى معناه وهو طويل ، ثم أعقبه بقوله في البقرة :
فكان مما قال عنها

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوارقوامها (٥)
خنساء ضيعت الفرير فلم يرم عرض الشقائق طوفها وبغامها (٦)
علته تردد في نهاء صعائد سبعا تؤاما كاملا أيامها (٧)
حتى إذا يئست وأسحق حالق لم يبله إرضاعها وفطامها (٨)

(١) تغالى ذهب وارتفع شحمه ، وتحسرت عييت ، والخدام جمع خدمة وهي السير من الجلد
(٢) الهباب النشاط ، والصهباء السحابة الحمراء لما يصحبها من برق (٣) للملع الأتان
المشرقة أطباؤها بالابن ، ووسقت حملت ، والأحقب العير في وركيه يياض ، ولاحه غره
(٤) المسحج المحدث من العض ، والوحام الوحوم ومن أجله كان العصيان
(٥) المسبوعة التي أكل السبع ولدها الذي خذلته بتركة واتباع مقدم الصوار وهو
القطيع (٦) الفرير الولد ، ولم يرم لم يبرح ، والبغام الصوت (٧) علته انهمكت ، والصعائد
موضع ، ونهاؤه غدرانه واحدها نهى (٨) الحالق الضرع ، وأسحق ذهب لبنه بجفافه ،

وتوجست رز الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها (١)
فعدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى الخفاة خلفها وأمامها (٢)

وبعد هذه الاطالة في وصف الناقة وسيرها ، أخذ يفخر على النوار بأنه قضاء لبانات ، وصال قطاع يعاف مالا يرضى من الديار ، وأنه سهار ليل غلاء سباء وزاع لغدوات الشمال ، وأنه يحمى الحى فيرتقى بفرسه المرتفعات فى منبلج الصباح ، فاذا ما أمسى أسهل وفرسه لا يزال منتصبا للحراسة فى البيات ، وأنه مع هذا حلال مشكلات فى المجامع والمقامات نهار بالقداح لجزر الأيسار ، يدعو بهن لندوى الحاجات والضيغان ممن يأوون إلى أطنايه ، فيجدون الحصب والثراء . وهذا بعض ماقال فى تلك المعانى السالفات .

فبتلك اذ رقص اللوامع بالضحي واجتاب أردية السراب إكامها (٣)
أقضى اللبانة لا أفرط رية أو أن يلوم بحاجة لوامها
أو لم تكن تدري نوار بأنى وصال عقد حبائل جذامها
تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها
أعلى السباء بكل أدكن عاتق أو جونة قدحت وفض ختامها (٤)
وغداة ريع قد وزعت وقرة قد أصبحت بيد الشمال زمامها (٥)
ولقد حميت الحى تحمل شكتى فرط ، وشاحى إذ غدوت لجامها (٦)
وكثيرة غرباؤها مجهولة ترجى نوافلها ويخشى ذامها (٧)
أنكرت باطلها وبؤت بحقها عندي ولم يفخر على كرامها (٨)

(١) الرز الصوت ، والأنيس الواحد من الناس ، وهو سقامها لانه قد يكون الصائد لها
(٢) الفرج الواسع من الأرض والطريق ، وثناه ليشمل الأمام والخلف ، والمولى هنا صاحب .

(٣) الإشارة للناقة ، ويقصد باللوامع لوامع السراب ، واجتياح الأكام أردية السراب لبسها إياها كناية عن احتدام الهواجر (٤) السباء شراء الحمر ، والأدكن والعاتق وصفان للزق ، والجونة الحاية السوداء ، وقدحت ملئت منها القداح (٥) وزعت دفعت بالطعام والكسوة
(٦) الفرط الفرس المتقدمة السريعة (٧) يقصد الدار تكثر غرباؤها (٨) هذا البيت كناية عن أن داره تقوم فيها المقامة للقضاء والفصل ، فيحق الحق ويبطل الباطل

وجزور أيسار دعوت لختفها بمغالق متشابه أجسامها (١)
أدعو بهن لعافر ، أو مطفل بذلت لجيران الجميع لحامها (٢)
فالضيف والجار الغريب كأنما هبطا تبالة مخصبا أهضامها (٣)
ذاك فخره بنفسه ، وقد أعقبه فخره بقومه ينسبهم إلى سيادة المحافل وحسن سياسة
العشيرة ، وأن تلك سجايا فيهم يجدر بالحاسد ألا يطمع فيها ، لأنها حياء لهم من المليك
لما جبلوا عليه من معالى الأمور ، قال :

إنا إذا التقت المجامع لم يزل منا لزار عظيمة جشامها (٤)
ومقسم يعطى العشيرة حتمها ومغذ مر لحقوقها هضامها (٥)
فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالمهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامها (٦)
ثم التفت يخاطب الطامع في مثل مكاتهم طالبا إليه القناعة بما قسم له ، وذلك
حيث يقول :

فاقع بما قسم المليك فأنما قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفى بأوفر حظنا قسامها
فبني لنا بيتا رفيعا سمكه فسيما إليه كهلهما وغلالمها
إلى أن ختم المعلقة بهذه الآيات يحمل فيها ما عرف به قومه من مكارم الأخلاق ،
وهى :

فهم السعاة إذا العشيرة أفضت وهم فوارسها وهم حكامها (٧)

(١) الأيسار هنا أصحاب الميسر جمع يسر ، والمغالق سهام الميسر واحدها مغلاق ، وجزورهم
الناقة تجزر من أجل مقامرتهم .
(٢) الضمير في بهن للمغالق ، ومطفل ممتطوفة على جزور وهى الناقة ذات الولد ، ومع
ذلك لا يبق عليها ، واللحام جمع لحم (٣) تبالة موضع كثير الخصب ، والأهضام جمع هضم
بالكسر والفتح بطن الوادى (٤) لزار العظيمة قرينها (٥) المفذمر الذى لا يعصى
أمره ، والهضام الذى يزيد وينقص (٦) لا يطبعون لا يلؤمون ، والفعال الفعل الحسن
(٧) أفضت نزل بها النطيع من الأمر

وهم ربيع للمجاور فيهم والمرمات إذا تطاول عامها (١)
وهم العشيرة أن يبطيء حاسد أو أن يلوم مع العدا لوايها (٢)

٥ _ معلقة عنتره

جاءت معلقة عنتره لغير غرض خاص ، كما جاءت معلقات امرئ القيس وطرفة
وليبد ، وقد بدأها بماءءوا به فوقف على الأطلال وخاطب الديار كما هي سنة الشعراء ،
ثم أبان أنه يخاطب دار عبلة وأخذ يستوحى الجواب ويصف صاحبها فقال
هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
يادار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسمى (٣)
وتحل عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصمان فالمتشم (٤)
حلت بأرض الزائر فأصبحت عسرا على طلابك ابنة مخرم (٥)
إن كنت أزمعت الفراق فأنما زمت ركابكم بليل مظلم (٦)
ولقد نزلت فلا تظنى غيره منى بمنزلة الحب المكرم (٧)

ثم عاد ثانية يذكر الدار خالسا منها إلى وصف محاسن عبلة ، وبخاصة حسن الشعر
وطيب المقبل فأجاد وذلك حيث يقول

دار لآنسة غضيض طرفها طوع العناق لذيذة المتبسم
إذ تستبيك بذى غروب واضح عذب مقبله لذيذ المطعم (٨)
وكان فارة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها إليك من الفم (٩)

(١) المرمات اللاتي مات أزواجهن وكن يمكنن بلا زوج حولا كما قال الله تعالى «والذين يتوفون
منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج» وإن كنهه نسخ بقوله
«والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا»

(٢) أى هم العشيرة المحمية من أن يبطئهم حاسدا أو يلومهم لاثم.

(٣) الجواء موضع بعينه (٤) الثلاثة الأسماء أما كن بأعيانها (٥) الزائرون جمع
زائر كالأسد غضبا (٦) أزمعت انتويت ، وزمت شدت (٧) ضمير غيره للزول المفهوم
من نزلت (٨) الغروب جمع غرب وهو الحد (٩) فارة المسك آنيته لأنه يفوز منها
والقسيمة سوق المسك

أو روضة أنفا تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم (١)
جادت عليه كل بكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكابا فكل عشية يجري عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس يبارح غردا كفعل الشارب المترنم (٢)
هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم (٣)

وبعد هذا التشبيه الطويل ، عاد إلى عبلة يذكر تنعمها على الوثير من الفراش
بينما هو علي سرج فرسه ، وأخذ يتمنى أن تبلغه إياها شذنية غير ولود ، وانساق
يصف هذه الناقة ويشبهها في قذفها الحصا ، بالظلم تأوى له قلس النعام كأنه العبد الأصلم
ذو الفرو الطويل ، وكأن هرا يخذشها في جنبها الأيمن فتزيد في سرعتها وذلك
حيث يقول :

تمسى وتصبح فوق ظهر حشية وأبيت فوق سراة أدهم ملجم
هل تبلغنى دارها شذنية لعنت بمحروم الشراب مصرم (٤)
خطارة غب السرى زيافة تطس الأكام بذات خف ميثم (٥)
وكأنما أقص الأكام عشية بقريب بين المنسمين مصلم (٦)
وكأنما تنأى بجانب دفها الـ وحشى من هزج العشى مؤوم (٧)
هر جنب كلما عرضت له غضبي اتقاها باليدى وبالقم

وما إن انتهى من صفة الناقة حتى أوغل فيما هو قصده فى معلقته من ذكر
فروسيته وبطولته وشربه ولهو ، وبدأه بقوله لعبلة ، لا ترخى دونى القناع فان من يأخذ
الفارس المستلثم مثلى ، جدير أن يحوزك وينال منك الثناء بما هو أهله ، فاني سمح المخالطة

(١) الأنف التى لم ترع وتضمن نبتها سقام

(٢) الذباب هنا النحل يهوى الروضة لزهرها (٣) الهزج المصوت بسرعة فى تدارك ، والأجذم المقطوع اليد صفة للمكب ، والمكب المقبل .

(٤) شدن موضع جيد التوق باليمن ، ولعنت طردت عن الأبل بسبب انقطاع لبنها فجعلت للركوب (٥) خطارة شائلة ذيلها مرحا ، وزيافة مسرعة عقب السرى راحة ، تكسر الحجارة برجل ذات خف كاسر (٦) كأنما أكسر الحجارة بظلم (٧) دفها الوحشى جنبها الأيمن لأنه لا يركب منه ، والهزج المصوت ، والمؤوم تم العظ الرأس

مر المذاقة شراب مدام ، لا يمنع الصحو كرمي ولا تنال النشوة عرضي ، قال :

إن تغد في دوني القناع فأنى طب بأخذ الفارس المستلثم (١)
أثنى على بما علمت فأنى سهل مخالفتي إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل مر مذاقته كطعم العلقم
ولقد شربت من المدامه بعد ما ركد الهوا جر بالمشوف المعلم (٢)
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر في الشمال مفدم (٣)
فإذا شربت فأنى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائي وتسكرومى

وهذا المعنى الأخير لم يجار فيه ، وقد أخذ بعده يعدد مواقف بطولته فيقول ،
كم من حليل غانية جندلته ، ومدجج كره السكاة نزاله طعنته ، وحامى حقيقة
معلم بمهندى قد علوته ، ولم ينس في هذه المواقف الثلاثة من حماسه أن يخلطها
بنسيبه في عبلة كما هو دأبه . فيقول مما قال :

وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريضته كشدق الأعلم
ومدجج كره السكاة نزاله لا ممعن هربا ولا مستسلم
جادت يداى له بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم
ومشك سابغة هتكت فروحها بالسيف عن حامى الحقيقة معلم

وبعدئذ عاد إلى عبلة يسألها بعد تلك المواقف أن تسأل عنه فقال :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ثم يعود إلى التغزل بها فيقول :

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم محرم
فبعثت جاريتي فقلت لها اذهى فتجسسي أخبارها لى واعلمى

(١) المستلثم لا بس الامة ، وهى الدرع

(٢) المشوف المعلم الكائن للعروف (٣) الأزهر الأبريق من فضة والمقدم الذى عليه

أقدم يصنى شرابه

قالت رأيت من الأعادى غرة والشاة ممكنة لمن هو مرتعى
وكأنما التفقت بجيد جدابة رشاً من الغزلان حرأرثم (١)
وأخيراً عاد من هذا إلى ذكر موقفه ناعياً على من لا يشكر نعمته ججود فضله،
وذاكراً أنه حريص على وصاة عمه له بالثبات في أخرج المضايق ، فكان منه في الكلام
عن فرسه هنا إبداع ليس بعده منال ، قال

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتدامرون كررت غير مذمم (٢)
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بر في لبان الأدهم (٣)
ما زالت أرميهم بغرة وجهه ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم (٤)
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى
ولقد زاد نبلا وكرما أن جعل في نداء الفوارس له بالأقدام في الشدائد ،
ما يشفى نفسه ويبرىء سقمه فقال

ولقد شفى النفس وأبرأ سقمها قبل الفوارس ويك عنتر أقدم
ثم ختم المعلقة بنخشيته الموت قبل أن ينال من ابني ضمضم لتوعدهما إياه بعد قتله
أباهما فقال

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم (٥)
الشامى عرضى ولم أشتمهما والناذرين إذا لم القهما دمي
إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزز السباع وكل سر قشعم (٦)

٦ - معلقة عمرو بن كلثوم

خالف عمرو رجال المعلقات فلم يبدأ معلقته بذكر الدمن والديار وتعرف الأطلال والآثار،

-
- (١) الجداية ولد الظبية ، والرشا الفتى ، والأرثم الذى فى شفته العليا وأنفه يياص
(٢) يتدامرون يتحاضون على القتال (٣) أشطان البئر حباله ، واللبان الصدر
(٤) ازور مال ، وتحمحم الفرس صهيله بخنين (٥) هما حصين وهرم
(٦) القشعم المسن

إنما بدأها بوصف الحُر وتأثيرها والدعوة إلى الاستصباح بها واتهايها ، ولكنه لم ينس أن يستوقف الظئنة قبل التفرق لتخبره هل أحدثت صرما وقطعاً ، وليخبرها بما له أيام الكريهة من بلاء يقر العيون ، ثم أخذ يصف وجوه محاسنها ووجده بفراقها ، في أبيات طويلة أنهى بها تشبيب قصيدته ، وذلك حيث يقول مما قال

- ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا (١)
مشعشة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا (٢)
تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ما ذاقها حتى يلينا (٣)
تري اللحز الشحيح إذا أمرت عليه لماله فيها مهينا (٤)
قنى قبل التفرق ياظعينا تخبرك اليقين وتخبرينا (٥)
يوم كريهة ضربا وطعنا أقربه مواليك العيونا (٦)
قنى نسألك هل أحدثت صرما لوشك البين أم خنت الأمينا (٧)

ثم أخذ يصف محاسنها ، فيقول :

- تريك إذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحيتا (٨)
ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا (٩)
وئديا مثل حق العاج رخضا حصانا من أكف اللامسينا
ومتنى لدنه طالت ولانت روادفها تنوء بما يلينا (١٠)

وأخيراً أخذ يصف صبايته لفراقها ووجده من أجلها فيقول

- (١) الصحن القدح الواسع الضخم . والأندرين قرية بالشام كثيرة الحُر قرب حلب
(٢) المشعشة الرقيقة . والحص نبت أحمر أصفر قيل هو الزعفران فلونها لونه ، وسخينا وصف حال من الماء لأنهم كانوا يسخنونه لها شتاء . أو فعل من سخي كفرح بمعنى جاد كما هو البيت بعده (٣) اللبانة الحاجة ، وتجور تعدل به عن هواه فيها (٤) اللحز السيء الخلق الشحيح الشديد البخل (٥) ياظعينا منادى مرخم بمحذف التاء على لغة من ينتظر والألف للاطلاق (٦) يوم الكريهة يوم الحرب ، والموالى هنا بنو العم (٧) الصرم القطيعة ووشك البين قربه (٨) الكاشح العدو (٩) العيطل الطويلة العنق . والأدماء البيضاء ولم تقرأ جنينا لم تحمل (١٠) اللدنه اللينة ، الروادف الأعجاز وتنوء تثقل

تذكرت الصبا واشتقت لما رأيت حولها أصلا مدينا (١)
فما وجدت كوجدى أم سقب أضلته فرجعت الحنينا (٢)
ولا شمطاء لم يترك شقاها لها من تسعة إلا جنينا (٣)

وبعدئذ خرج إلى الغرض الذى من أجله قرض المعلقة ، وهو التفاخر بقتله عمرو بن هند فى حادث يذكر له الرواة قصصا وحكايات ، ولا يعدو عندى أن يكون هذا القتل قد وقع باتفاق بينه وبين البيت المالك ، لما كان من طول حكم عمرو وشدة عسفه بأهله ، ولذلك أسدلوا الستار عليه فلم يشنوا حربا ولم يطلبوا بثأر ، وإنما اختير ابن كلثوم لأنه رئيس تغلب ، وكثيراً ما غاضبها ابن هند وظاهر بكرا عليها ، كما حدث بعد سماعه معلقة ابن حنزة على ماسياتى فى بعض ما كان بينهما من خلاف ، على أنى إذا لم أجزم بهذا الاتفاق فلا أقل من أن أقول ، لقد وقع القتل على قلوب المناذرة برداً وسلاماً ، وبخاصة صاحب التاج من بعده وهو أخوه النعمان ، هذا وقد بدأ ابن كلثوم خره بمخاطبة الملك القليل سخربة وتهكماً ، خطاباً يذكركه فيه بأيام لهم غر طوال ، ويقدمهم منذ القدم فى الحروب ، وعركهم من يتعرض لهم ، وحمايتهم من يستجير بهم ، وأنهم لم يعاملوه بغير ما عاملوا به الملوك من عصيان وخروج ، منذ أيام خزازى إلى حيث قتلوه ، وكان ذلك منه فى أكثر من خمسين بيتاً هذا بعضها

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا (٤)
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمراً قد رويننا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا
وسيد معشر قد توجوه بتاج الملك يحمى المحجريننا (٥)
تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا
مقن ننقل إلى قوم رحانا يكونوا فى اللقاء لها طحيننا
يكون نفالها شرقى نجد ولهوها قضاة أجمعينا (٦)

(١) جمع أصيل (٢) السقب ولد الناقة (٣) الشمطاء المعجوز المسنة
(٤) هو ابن هند لا أبوها واسمه عمرو بن المنذر (٥) المحجرون هم الذى أجنوا إلى مضيق
(٦) ائثال الرحي الجلدة تبسط تحتها لتلقى الطحين ، ولهوها القبض من الحب تلقى فيها
واحدة إثر أخرى. والبيت كناية عن اتساع دائرة حربهم وأن غيرهم لها طحن كاللهو للرحى.

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يمينا
وإن الضغن بعد الضغن يفشو عليك ويخرج الداء الدفينا
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
إلى أن قال يعاتب هازئاً ويهدد مرعداً

بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقلبكم فيها قطينا (١)
بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لأمك مقتوينا (٢)
فان قناتنا ياعمرؤ أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا
إذا عض الثقاف بها اشمأزت وولته عشوزنة زبونا (٣)
عشوزنة إذا انقلبت أرنت تشج قفا المثقف والجينا

ثم أخذ يفخر برجالهم الأقدمين ويعدد ما آثرهم وأيامهم ، مشركاً معهم بنى عمهم بكر ،
ولكنه لم يرض أن يكونوا مثلهم في هذه المفاخر ، قال

ونحن غداة أوقد في خزازى رقدنا فوق رقد الرافدينا (٤)
وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبنينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

ومن هنا أخذ يفخر على بكر ويذكرهم بما كان لهم عليهم من غلاب ،
وقد أجاد حيث يعالج ذلك ، وصف الدروع والنساء وراء الخيل يوم الروع ، فقال :
علينا كل سابعة دلاص ترى فوق النطاق لهاغضونا (٥)
إذا وضعت على الأبطال يوما رأيت لهاجلود القوم جونا (٦)
كأن غصونهن متون غدر تصفقها الرياح إذا جرينا (٧)

(١) القيل الملك التابع ، والقطين الخدم (٢) المقتوون جمع مقتوى بعد طرح ياء النسبة
لأنه منسوب إلى المقتى وهو المصدر الميمى لقنا يقتو إذا خدم الملوك (٣) العشوزنة
الصلبة الشديدة ، والزبون الدفوع ، والثقاف خشبة التقويم (٤) خزازى جبل ، ويقصد يوماً
كان عنده بين زار ويمن ، وتقدم في الأيام (٥) السابعة الدرع التامة ، والدلاص البراقة
والغصون التشنجيات جمع غصن (٦) جونا سوداً من صدئها لطول ما لبسوها (٧) قال
جرينا بكسر الراء بدل فتحها على طريق السناد من عيوب القافية وقد وقع منه بالعلقة الكثير.

٧ — معلقة الحارث بن حلزة

قيلت هذه المعلقة لغرض خاص هو استمالة عمرو بن هند إلى بكر (١) في مقاضاة كانت عنده بينها وبين تغلب قوم عمرو بن كلثوم قاتل عمرو بن هند كما سبق ، وقد احتذى حذو الشعراء في بدئها ، فأبدى تحرقه على بين أسماء ، وأخذ يذكّر عهدا السالف ومكانها النائي فيبكي وما يحير البكاء ، قال .

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شما ء فآذنى ديارها الخلصاء
لاأرى من عهدت فيها فأبكي ال يوم دلها وما يحير البكاء (٢)

وأردف ذلك بذكر الناقة يستعين بها على الهم ويصفها ، وقد بلغ في ذلك ما أراد في إيجاز ، وحسبك قوله

غير أنى قد أستعين على الهم اذا خف بالثوى النجاء (٣)
بزفوف كأنها هقالة أم م رثال دوية سقفاء (٤)
آنست نبأة وأفرعها القنص عصرا وقددنا الأمساء (٥)
فقرى خلفها — من الرجع والوقع مينا كأنه أهباء (٦)

ومن هنا انتقل إلى موضوع المعلقة فبدأ يصف ظلم بني عمهم إياهم وتبنييتهم لهم الشر ، وقد أجاد في وصف التهيؤ للحرب ما شاءت له الإجادة حيث يقول .

وأثانا من الحوادث والآباء خطب نعي به ونساء

(١) الحارث من يشكر من بكر (٢) الدله ذهاب العقل ، وما يحير ما يرجع

(٣) الهم ما بهم به ، والثوى الكثير الثواء أى الإقامة ، والنجاء السرعة .

(٤) الزفوف السريعة ، والهقالة النعامة ، والدوية نسبة إلى الدو وهو الصحراء ، والسقفاء

الطويلة فى المنحاء (٥) آنست أحست ، والنبأة الصوت الخفى ، والقنص جمع قانص ،

وعصرا عشية (٦) المنين الغبار المتقطع الرقيق ، والاهباء جمع هبوة وهى ما تطاير من

التراب ، والرجع للقوائم والوقع للاخفاف .

أن أخواننا الأرقام يغلو ن علينا في قيلهم إحقاء (١)
يخلطون البريء منا بذى الذب ولا ينفع الخلى الخلاء
زعموا أن كل من ضرب العير موال لنا وأنا الولاء (٢)
أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصهال خيل خلال ذاك رغاء

ثم أخذ يخاطب من وشى بهم الى عمرو بن هند بأنهم واثقون من عدل الملك ،
على أنهم غير خائفين ، وقديما وشى بهم فكانت مانعتهم حصونهم ، وهذا إذ يقول

أيها الناطق المرقش عنا عند عمرو وهل لذك بقاء (٣)
ملك مقسط وأفضل من يمشى ومن دون مالدیه الثناء (٤)
لا تخلنا على غراتك إنا قبل ماقد وشى بنا الأعداء (٥)
فبقينا على الشناءة تنم مينا حصون وعزة قعساء (٦)

وأتبع هذا بأنهم مع قدرتهم ذوو أهبة لقبول أية خطة فى الصلح تراء ، وأنهم
أكفاء لمقابلة ما يطلب منهم بمثله ، وأخذ يذكر ماضيهم تأييدا لما يقول ، قال

أيما خطة أردتم فأدوها لنا تمشى بها الأملاء (٧)

وبعد أن بين أنواع الخطط فى أبيات له أعقبها بقوله

هل علمتم أيام ينتهب الناس غوارا لكل حى عواء (٨)

إذرفنا الجمال من سعف البحر رين سيرا حتى نهاها الحساء (٩)

(١) الأرقام لقب لبطون من تغلب ، والأحقاء الإلحاق (٢) العير هنا السيد والمراد
كليب وقوله وأنا الولاء أى أصحاب الولاء (٣) المرقش المزخرف القول المريب المشكك
(٤) المقسط العادل والقاسط الجائر (٥) الغرارة الأغراء وخبرتمنا محذوف أى جازعين
(٦) الشناءة البغضاء وتميننا ترفعنا (٧) الأملاء جماعات الأشراف جمع ملا
وهو من يملأ العين (٨) الغوار مصدر غاور كغار

(٩) رفعنا الجمال سيرناها السير الرفيع السريع ، وسعف البحرين نخلها أى من البحرين
لأنه فيها ، والحساء جمع حصى وأصله أرض يغطيها رمل تحته صلابة تحفظ الماء ، ومن ثم لا
يمطش من فيها ، وهى على ساحل الخليج الفارسى غربا

ثم ملنا على تميم فاحرمنا وقينا بنات مر إماء (١)
لا يقيم العزيز بالبلد السم ل ولا ينفع الذليل النجاء

ثم عاد - بعد فخر باسقى بما لهم من ماض ملء بالوقائع والسيادة - الى المبلغ عنهم
ثانية يذكره بأن لهم على عمرو بن هند ثلاث آيات ، آية ردهم قيس بن معد يكرب
الحميري عنه وقد غزا الحيرة في معد كلها ، وكذا حجر بن أم قطام وقد غزاها أيضا
في فارسية خضراء ، وآية فكهم غل امرئ القيس اللخمى من العساسنة وإقاتهم بأبيه
المنذر إذ قتلوه من ربهم ، والثالثة أنه ابن أختهم فأمه منهم وهم قد ولدوه ، وفي ذلك يقول

أيها الناطق المبلغ عنا عند عمرو وهل لنداك انتهاء
إن عمرا لنا لديه خلال غير شك في كلهن البلاء
ملك مقسط وأكمل من ي شى ومن دون ما لديه الثناء
إرمى بمثله جالت الجذ ن فآبت لحصمها الأجلاء (٢)
من لنا عنده من الخير آيا ت ثلاث في كلهن القضاء
آية شارق الشقيقة إذ جا ءوا جميعا لكل حى لواء (٣)
حول قيس مستلثمين بكبش قرظي كأنه عبلاء (٤)
فجبهناهم بضرب كما نخ رج من خربة المزاد الماء (٥)
ثم حجرا أغنى ابن أم قطام وله فارسية خضراء (٦)
أسد في اللقاء ورد هموس وريع إن شنت غبراء (٧)
فرددناهم بطعن كما تنه ز عن حمة الطوى الدلاء (٨)
وفككنا غل امرئ القيس عنه بعد ما طال حبسه والعناء (٩)

(١) أحر منا دخلنا في الأشهر الحرم ، وإماء سبايا (٢) إرمى قديم الملك (٣) الشقيقة
أرض صلبة بين رملتين وشارق مضى وهى من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والمراد اسم مكان
كانت به الموقعة (٤) يريد قيس بن معد يكرب الملك الحميري ، والكبش السيد ، والقرظى
كنياه عن أنه شديد الوطأة لأن القرظ شجر يدبغ الأديم ، والعباء الهضبة البيضاء
(٥) المزاد الزقاق وخربتها ثقبها (٦) هو والدامرئ القيس (٧) ورد جرى ، وهموس
خفي الوطء والبراء السنة المجذبة ، وشنت جاءت بالشنيع من الأمر (٨) تنهز تحرك ،
وجه الطوى مأوه الكثير والطوى البئر (٩) يعنى امرأ القيس بن المنذر بن ماء السماء
أخا عمرو بن هند لا امرأ القيس السكندى

وأقدناه رب غسان بالمنذر كرها إذ لاتكال الدماء (١)
 وولدنا عمرو بن أم إياس من قريب لما أتانا الجباء (٢)
 مثلها يخرج النصيحة للقوم فلاة من دونها أفلاء (٣)
 ثم عاد الى تغلب يطلب اليهم أن يتركوا التكبر والتعامى ، ويذكروا حلف
 ذى المجاز وما قدم فيه من عهود وكفله من كفلاء ، حذر الجور والتعدى ، مثل
 ما يذكرونه ، هم قال .

فأتركوا الطيخ والتعاشى وإما تتعاشوا فى التعاشى الداء (٤)
 واذكروا حلف ذى المجاز وما قد دم فيه العهود والكفلاء (٥)
 حذر الجور والتعدى وهل ينقض ما فى المهارق الأهواء (٦)
 واعلموا أننا وإياكم فى ما اشترطنا يوم اختلفنا سواء
 وبعدئذ أخذ يعيرهم بخنايات غيرهم عليهم ، وأنه لا يحمل بهم أن يحملوهم
 جرمهم ، وهم عنه بعيد ومنه براء ، فيقول .

أعلينا جناح كندة أن يغنم غازيهم ومنا الجزاء (٧)
 وهكذا أ كثر التعداد حتى ختم المعلقة بتغلبهم عليهم يوم الحيارين ، كيلا
 يظنوا فيهم ضعفا أو أنهم ليسوا كهؤلاء ، مشهدا على ذلك اليوم ، الرب يعنى الملك
 حيث يقول :

وهو الرب والشهيد على يوم الحيارين والبلاء بلاء (٨)

(١) رب غسان ملكها (٢) الجباء المهر (٣) الضمير للقرابة المفهومة من ولدنا
 فى البيت السابق ، وفلاة من دونها أفلاء أى كأن النصيحة فى اتساعها كالفلاة التى تتصلبها فلولات
 (٤) الطيخ التكبر ، والتعاشى التعامى (٥) ذو المجاز موضع أصلح فيه عمرو بن هند
 بين بكر وتغلب (٦) جمع مهرق وهو خرقة تظلى وتصلل ليكتب عليها ، يعنى صحف
 هذا الحلف (٧) كانت كندة قد غزت تغلب فقتلت وسبت (٨) يعنى بالرب هنا
 المنذر بن ماء السماء ، والحياران موضعان كانت فيهما موقعة المنذر ومعه بنو يشكر بتغلب .

مميزات الأدب الجاهلي

إن لأدب الجاهليين سمات عامة تتناول النثر والشعر معا ، وأخري خاصة بكل منهما .

أولا — الميزات العامة

فالعامية يراها المطلع عليه في عباراته ومعانيه والغرض العام الذي يرمى إليه ، وهاهي ذى .

١ — في العبارات

أول ما يلاحظ على عباراته خلوها من اللحن لتمكن السليقة منهم وقلة اختلاطهم بغيرهم ، وليس معنى هذا أنه لم يك من أحدهم خروج على المصطلح العام ، بل معناه أن ذلك الخروج كان قليلا وعن غير الصميم ، وهو ما سمي بالشاذ والمسموع ، بخلاف الخروج في العصور الإسلامية بعد ، فقد كثر وعارض الأسس ولذلك لم يحجم واضعو أصول العربية عن تسميته لحنا وخطأ ، مفرقين في التسميه بينه وبين الشاذ والمسموع .

ثانيا — خلوها من الدخيل وسببه سبب عدم اللحن ، غير أن اختلاطهم بمن جاورهم من الأمم بعض الاختلاط بحكم الجوار ، جعلهم يأخذون من لغاتها — وبخاصه الفارسية — كات أدخلوها كلامهم ، ولكنهم أحدثوا فيها صقلا قربها من لغتهم وأعطاه جرسها ، فأصبحت كأن لم تك غربية عنها ، ولذلك لم يطلق عليها اسم المعرب كما أطلق على ما اقتبس في العصور الإسلامية بعد .

ثالثا — إيجازها ، فقد كانوا يرون البلاغة في الإيجاز ، وإذا كانوا فرسانها الأوائل فقد قدروا على تحقيق ما أرادوا دون إخلال بالمعاني ولا بما قصدوا

إليه من أغراض ، ولهذا كانوا يفضلون من الجمل القصير ، وإذا خرجوا عنه فإلى المتوسط لا الطويل .

رابعا — إرسالها علي ما تقتضى البلاغة الفطرية دون تكلف فيها ولا مراعاة لما أتت به الصناعات اللفظية بعد ، فقلما يرى لهم تأنق في انتقاء ألفاظ متناسبة الوزن متشابهة النغم ، أو صوغ عبارات ذات جناس أو طباق أو غيرها من محسنات البديع ، إلا ما أتى عفوا غير مقصود .

خامسا — إشتغالها على كثير من الألفاظ المترادفة ، على القول بأن هناك ترادفا حقيقيا جاء من اختلاط القبائل وتعرف بعضها لغات بعض ، أما على أنه لا ترادف في الواقع ، وأن لكل مرادف خصوصية كانت تعرفها العرب له على مرادفه ، وأنا نسينا ذلك نحن ، فلا ترادف إلا من حيث الظاهر فقط ، وهى على كلتا الحالين لا تخرج عن أن تسمى خاصة ومميزا .

ب - فى المعانى

كانت المعانى فى الجاهلية قصرا على الحقيقة ، وإذا جاوزتها الى غيرها فالى المجاز ذى العلاقة البارزة التى لم يلبث معها طويلا حتى صار حقيقة فى كثير من الألفاظ . أو إلى الكناية قليلة الوسائط مع قرب المنال ، أو كثرتها مع شدة اللزوم ، اللهم إلا ما كان رمزا مقصودا ، وكثيرا ما كانوا يعمدون فى الكناية إلى التعريض اتقاء التصريح بما يستهجن أو غيره لسبب ما فلا يقع فى ذلك خش ولا خفاء . وكانوا إذا تخيلوا لا يخرجون فى ذلك عن الخيال المنزع الصورة من الحس الظاهر ، والواقع فى دائرة الامكان العادى أو العقلى ، إلا ما قصدوا فيه إلى هذا الخروج ، كخيالهم فى موارد الأمثال الفرضية وبعض الأوابد .

ج - فى الغرض العام

أما الغرض العام الذى يرمى إليه ، فكان يدور حول ما تقتضيه البداوة والفطرة

الحاليتان من تكلف أهل الحضر وتأنيقهم ، ويكاد ذلك ينحصر في وصف المعيشة البدوية ومرافقتها من حل وترحال واستدار غيث وانتجاع كلاً واستنبات نبت ونتيج حيوان ، وفي إثارة المنازعات والمشاحنات وما تجر إليه من حض على إدراك ثأر وقول في نعي ميت ، وتفاخر بمال وولد وتباه بشجاعة وانتصار وتشرف بكرم محدد وحوز فضيلة ، ثم في وصف ما يشاهد بجزي رتهم والأخبار عما يقع فيها بما يناسب بيئتهم ويتفق وطبعهم

ثانياً — المميزات الخاصة

١ — النثر

يمتاز النثر الجاهلي فوق ما تقدم في المميزات العامة بما يأتي
أولاً مجىء السجع فيما أثر منه أكثر من الازدواج ، ومجىء الازدواج أكثر من الترسل ، وإنما قلنا فيما أثر ، لأن طبيعة صدور الكلام تأتي إلا أن يكون الواقع العكس ، وإنما علق المسجوع بالأذهان أكثر من أخويه كما تقدم لسهولة حفظه ، ولأنه كان المقصود في مهام الأمور ، على أنه قد كانت هناك طائفة لا تتكلم إلا بالمسجوع هي طائفة الكهنة والعرافين ، لما للسجع من جمال الوقع على الأسماع وشدة التأثير في القلوب وهذا ما يريدون ، وقد انقرضت هذه الطائفة بالأسلام ، وإذن كان أكثر الكلام ترسلاً ، ووليه الازدواج ثم السجع ، فكانت الحال معاكسة لما أثر موافقة لما كان في الحق هو الواقع .

ثانياً — كثرة أمثاله بنوعيهما ، ومجىء حكمه كثيرة وعلى مقتضى الفطرة أيضاً .
فإن الأمثال تكاد تكون مقصورة على العهد الجاهلي ، وما جاء بعده لا يعدو حد القلة وأغلبه على صيغة أفعل . والحكم لا تكاد تحوى تعمقاً في فكرة أو إغراقاً في فلسفة ، لما كانت عليه العرب من حال بدو لا تعمق فيها لعلم ولا زخرف لحضارة ، وإنما ساعدها على الأكثر من هذين النوعين رجحان عقولها وسلامة فطرها ، مع ملكها زمام الفصاحة واقتدارها على الإيجاز .

ثالثاً — تفرد بالمنافرة على معناها الجاهلي ، فما عرفت في الأسلام منافرات فرضت فيها الجعول وهرع من أجلها المتنافران إلى الحكم ، وكذا بالمفاخرة فيما نهى عنه

الدين بعد ، وهو أكثر ما كان في هذا الباب ، فقد صار جل تفاخر المسلمين بعد بالدين والتقوى وما يقدم من صالح الأعمال للأفراد والجماعات ، إلى غير ذلك مما يحض عليه الدين .

رابعا — اختلافه في الأغراض العامة لخطبه ووصاياه عما كان بعد ، فقد بقيت الخطب والوصايا في عهود الإسلام إلى وقت طويل ، ولكن التبديل الكبير للعرب في الدين والسياسة والمعيشة والاجتماع ، باين كل المباني في هذه الأغراض ، فمات بعضها كشن الغارات والأخذ بالثار ، وحلت الكتابة محل الخطابة في بعض آخر كالسفارات ، وتحور بعض ثالث تحورا كبيرا في بواعثه ومآخذه كالخض على القتال الذي صار للفتح والجهاد ، وكالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ صارت مآخذه من تعاليم الدين ، وكذا خطب الاملاك ، وقلما بقي غرض على حالة كالدعوة إلى السلم .

ب — في الشعر

يمتاز الشعر الجاهلي بعد الذي سبق في الميزات العامة بما يأتي :

أولا — اشتغال كثير منه على بعض الألفاظ الغريبة بالنسبة إلينا نحن لا إلى وسطهم هم ، فان ذلك جاء نتيجة لما أهمل بعد الجاهلية من أغراض كانت كثيرة القصد فيها ، كوصف الأبل وحر الوحش والقسي ونحوها ، مما كان من صميم البادية ، وهجر فهجرت لذلك الألفاظ التي كانت تؤدي بها معانيه وأصبحت ذات غرابة علينا ، ولو أنه بقيت تلك الأغراض مؤداة لكانت ألفاظها وما نستسهله الآن سواء .

ثانيا — جزالة الألفاظ وضخامة التراكيب ، وذلك لأنهم كانوا على تمام علم ودراية بمفرادات لغتهم والمواطن اللاتقة باستعمالها ، ثم كانوا ذوي قدرة ولباقة على التصرف في الأساليب بما يكسبها القوة والمتانة ، وبخاصة في الأغراض المتطلبة لها ، كالحماسة والفخر والوعيد والانداز ونحوها ، أما غيرها مما يقتضي رقة كالنسب مثلا فقد كانوا غالبا يتخيرون له من الألفاظ ما فيه عذوبة ومن التراكيب ما هو ذو سلاسة .

ثالثا — اتفاق بدءه القصائد في التشبيب الذي لا يعدو الوقوف على الدمن ومخاطبة الأطلال ، ووصف الظعون والتحرق على بعد المزار ، ونعت النوق التي ترحل للحاق

بالأحباب، ثم وصف هؤلاء الراحلين ، على خلاف بينهم في إطالة بعض هذه الجزئيات أو تقصيرها ، وفي استيفائها كلها أو إسقاط بعضها .

رابعا — عدم حسن التخلص من غرض إلى غرض في القصيدة الواحدة ، فقد كان يحدث الانتقال فجأة دون تمهيد أو تمهيد ضئيل لا يعدو أن يكون لفظه أو اثنتين ، كدع ذا وعد عن ذا ونحوها وبمثل هذه المفاجأة كان ينتهى القصيد .

خامسا — إجادة وصف مظاهر البادية في كل ناحية من نواحيها ، وتسجيل كثير من أوابد العرب ، عقائد وعادات . فالشعر الجاهلى يكاد يكون وحده المرجع فيما عرف من هذه الأشياء ، بخلاف الشعر الاسلامى لبعد رجاله عن البادية سكنا، ولتغير أحوالهم العامة تغيرا كبيرا ، يجعلهم إذا عاجلوا ذلك عاجلوه عن تكلف منهم وتقليد لاسلافهم ، دون أن يصدر عن شعور أو ينتزع من وجود .

سادسا — تصويره للأشياء على حقائقها من غير مبالغة بله الغلو والأغراق اللذين كثرا بعد ، وإنما جعلهم كذلك أن كانوا على فطرة طبيعية لا تكلف فيها ، وعلي جانب من الحرية لا يحد من فكر ولا يقيد في قول ، يتضح هذا جليا في الوصف كما يتضح في سائر فنون الشعر . فالتغزل لا ينعت محبوبته بالمستحيل من الصفات ولا يدعى لنفسه إذا نسب الموت في هواها دون موت . والشجاع المتحمس لا يزعم أنه مزلول الأرضين محرك الراسيات . والفخور لا يجاوز ما لنفسه وقبيله من محامد وتراث . والرائى لا يزعم بموت المرثى ظلام الوجود واختلال نوااميس الحياة ، وكذلك المدح والمهجاء كان فيهما الاعتدال ، لا إسراف فى الأول ولا إقذاع فى الثانى ، إلا ما كان آخر العهد لدى بعض الشعراء ممن اتخذوها وسيلة للتكسب رغبا ورهبا ، ومع هذا لم يصل إلى شيء مما بلغاه بعد فى سائر العهود .

سابعا — شدة تأثيره فى ذلك العهد أكثر من غيره كما بينا آنفا حقا كان أم باطلا ، لأن شعور القوم إذ ذاك كان أغلب على عقلهم ، شأن ذوى الفطرة والسذاجة البعيدين عن تثقيف العلم وتقويم الحضارة .

وبعد فإن فيما سلف — من نماذج وغير نماذج لختارات النثر والشعر — آيات بينات على ما ذكرنا من خصائص ومميزات ، فليرجع إليها فى ضرب المثل والاستشهاد ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

النقد الأدبي في هذا العصر

تمهيد

تقول العرب نقد الصيرف الدراهم وانتقدها إذا أخرج منها الزائف وأبقى الصادق ؛
وتقول ناقد فلان فلانا في الأمر إذا ناقشه فيه ، ومن هذا المعنى الأصيل جاء معنى
النقد في الأدب ، فما النقد الأدبي إلا أن يعمل الأديب في الكلام ما يعمل الصيرف
في الدراهم ، هذا ليعرف صادقها من زائفها كما تقدم ، وذلك ليعرف جيده من رديئه ،
والمناقدة في الأدب ليست إلا المناقشة فيه .

والنقد في ذاته موجود منذ وجد الناس ، فأن الانسان خلق نزاعا إلى الكمال
لانهاية له يقف عندها ، ومن ثم كان منصرفا بطبعه إلى إدراك ما في الأشياء من وجوه
كمال يستريح إليها ، ووجوه نقص يسعى في كمالها ، ثم النقد أيضا واسع الدائرة كثير
الأشخاص ، لأن إدراك الكمال والنقص ليس مقصورا على ذوى القدرة على الكمال ،
وإنما هو شيء يدركه بالفطرة عامة الناس ، على أن هذا لا يطعن في أن أقدر الناس
عليه في شيء من الأشياء إنما هم ذوو الدراية النفسية فيه والمقدرة البالغة عليه ،
ولذا وجب على كل ناقد لشيء أن يفقهه ويختص فيه ، حتى يؤتي النقد ثمرته المرجوة التي
لا تكون شبيهة ناضجة بدونه ، وقل أن يوجد تقدم في ناحية من نواحي الحياة إلا وللنقد
الأثر البارز فيه .

ولما كان أدب اللغة لأمة ما أظهر سماتها وأصدق معبر عن حياتها ، وكانت كل أمة
ترجو لهذه الظاهرة النمو وتنشد لها الكمال ، فقد عني أدباؤها بالنقد الأدبي - الذي
وجد فطريا بوجود اللغة - عناية سايروا فيها حياتها ، حتى استكمل أصوله واستوفى
مقاييسه ، وهذا الذي كان من أدباء العرب في نقد لغتها على توالي عصورها . وإلى
القارئ الكريم في هذا ، البيان .

النقد الجاهلي

قامت ملكة النقد عند الجاهليين على الذوق الفطري لا الفكر التحليلي ، ومع هذا تناولت اللفظ والمعنى ، كما كان يقال قديما ، أو الصياغة والفكرة ، كما أصبح يقال حديثا .

١ - سمع طرفة بن العبد . المتلمس الشاعر يقول :

وقد أتناسي الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم
فقال « قد استنوق الجمل » وهذا نقد توجه به إلى المتلمس في ناحية الألفاظ ،
إذ الصيعرية سمة حمراء تعلق في عنق الناقة دون الجمل ، فالمتلمس إذن استعمل اللفظ
في غير موضعه ، فتوجه النقد إليه من ناحية الألفاظ .

٢ - ودخل النابغة الذبياني يثرب ، فدس له الحجازيون على إعجابهم بشعره قينة تغنيه
ببيتين من شعره ليفطن إلى ما فيهما من المخالفة في حركة الروى وهما قوله
أمن آل مية رأمح أو مغتدى عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود
فقطن وأصلحه بقوله « وبذاك تنعاب الغراب الأسود » . وقال دخلت يثرب
وفي شعري عاهة وخرجت وأنا أشعر الناس ، وهذا من الخطأ الذي يتنافى وموسيقية
الألفاظ اللازمة للشعر ، وهو الذي سماه العروضيون بعد بالأقواء وعدوه عيبا من
عيوب القافية .

٣ - وأنشد الأعشي قيس بن معديكرب أحدا شراف اليمن مدحته التي منها
« ونبتت قيسا ولم أبله وقد زعموا ساد أهل اليمن
فعاب عليه قوله « ولم أبله » وكذا قوله « وقد زعموا » فبادر الأعشي
واستبدل بهذا البيت بيتا آخر هو
ونبتت قيسا ولم آته على نأيه ساد أهل اليمن
وذلك من خطأ الأعشي في المعاني ، لأن عدم الاختيار يضعف الحكم ، ولأن
الزعم في عرف العرب مطية الكذب .

٤ - وقديما عاب العرب على مهلهل بن ربيعة أنه كان يبالغ في القول ويدعى فيه
ماليس يكون ، كقوله :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تفرع بالذكور
فقد كان بين حجر التي ذكرها وبين عنيزة التي كانت محل الوقعة وفيها قيلت
القصيدة مسيرة أيام ، ومحال مع هذا البعد الشاسع أن يسمع صليل البيض وهي المغافر
حين تفرع بالذكور وهي السيوف ، وهذا من المبالغات الغالية المعركة التي من شأنها
إفساد المعاني ولا سيما في العصر الجاهلي عصر الفطرة .

بهذا النقد المبني على السليقة الفطرية والذوق العام ، أمكن العرب في جاهليتها
أن تميز بين كلام وكلام من حيث الصياغة والفكرة ، فتستحسن هذا وتستجتن ذلك ،
وبه أمكنها أن تتخير قصائد بأعيانها فتعطيها من المسكنة والألقاب ما لم تعطه غيرها .

١- روى أبو عمرو الشيباني الكوفي أن عمرو بن الحارث الغساني حين أشده
علقمة بن عبدة قصيدته

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشيا ب عصر حان مشيب
وأشده النابغة قصيدته

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
وأشده حسان قصيدته

أسألت رسم الدار أم لم تسأل بين الجواني فالضيع فومل
فضل حسانا عليهما وسمى قصيدته « البتارة » يعني أنها بترت غيرها من المدائح .
ومن جيد ما قال حسان في هذه القصيدة .

لله در عصابة نادمهم يوما بخلق في الزمان الأول
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأفضل
يمشون في الحلل المضاعف نسجها مشى الجمال إلى الجمال البزل
الضاربون الكباش يبرق بيضه ضربا يطيح له بنان المفصل
والخالطون فقيرهم بغنيهم والمنعمون على الضعيف المرمول

٢- وذكر حماد الراوية أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش فما قبلوه منها
كان مقبولا وما ردوه كان مردودا ، ثم ذكر أن علقمة بن عبدة لما أشدهم قصيدته
هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم
قالوا هذه سمط الدهر ، فلما عاد إليهم فأشدهم قصيدته

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشياب عصر حان مشيب
قالوا هاتان سمطا الدهر .

٣ - وفي أخريات العصر الجاهلي كان الأدب من بضائع الأسواق التجارية ، إذ كان يلتقى فيها ولا سيما «عكاظ» الشعراء في موسم كل عام من كل نحو من أنحاء الجزيرة ، فيتناشدون ويتفاخرون ويتعاضدون ، وكانت لغة قريش حينذاك قد صارت لغة الجزيرة كلها ، فكان يقع الشعر أكثر ما يقع بها ليكون أذيع وأنفذ ، وأقرب إلى كل القبائل وأفهم ، وأخيرا كان لهم في هذه الأسواق حكام من ذوى المكانة في الشعر يتحكم إليهم فيما ينشدون الشعراء كنابعة بني ذبيان ، وفد عليه ذات مرة وهو يقضى بين الشعراء في عكاظ ، حسان بن ثابت والأعشى والخنساء ، فأنشده حسان قصيدته

لنا حاصر فعم وباد كأنه شمرايح رضوى عزة وتكرما
ومنها هذا البيت

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خلا وأكرم بنا ابنا
وأنشده الأعشى قصيدته

مابكاء الكبير بالأطلال وسؤالى وما ترد سؤالى
ومنها

إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزىلا فانه لايبالى
ثم أنشدته الخنساء قصيدتها

فدى بعينيك أم بالعين عوار أم ذرفت أن خلت من أهلها الدار
ومنها

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقال لها النابغة لولا أن أبا بصير - يعنى الأعشى - سبقك لقلت إنك أشعر من بالسوق ، فغضب لذلك حسان فقال له « أضعفت فخرك ، إذ فخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك » .

على أن التحاكم كثيرا ما كان يقع في غير موسم ، وأمام حكم ليس بالمتعارف عليه

عند الناس وإنما يختاره المتخاصمان في الساعة حين يقع الخصام ، كالذى ذكره أبو عبيدة من أنه كانت تحت امرىء القيس امرأة من طيء تزوجها حين جاور فيهم يقال لها أم جندب ، فنزل به علقمة بن عبدة التميمي ، فقال كل واحد منهما لصاحبه أنا أشعر منك فتحاكما إليها فأنشد امرؤ القيس قصيدته

خليلى مرا بى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب
حتى مر بقوله منها

فالسوط ألحوب والساق درة وللزجر منه وقع أهوج منعب
إلى أن فرغ منها ، وأنشدها علقمة قصيدته

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب
حتى مر بقوله منها

وأقبل يهوى ثانيا من عنانه يمر كمر الراح المتحلب
إلى أن فرغ منها ، فقالت لامرئ القيس علقمة أشعر منك . قال وكيف قالت لأنك زجرت فرسك وحرركته بساقك وضربت به بسوطك ، وهو جعل فرسه يدرك الصيد ثانيا من عنانه ، فغضب امرؤ القيس فطلقها وخلفه علقمة عليها فسمى علقمة الفحل . لم يتجاوز العرب في جاهليتهم هذا الحد الفطري من النقد ، ذلك الحد الذى هدتهم إليه في المعانى فطرتهم السليمة وما اكتسبوه من معارف متحضرهم في الجنوب حيث الأقيال والأدواء ، وفي الشمال حيث الغساسنة ، وفي الشرق حيث المناذرة ، بل في الغرب أيضا حيث قریش ذات المسكنة الدينية بسدانة البيت والمسكنة الدنيوية بالرياسة ورحلتى الشتاء والصيف ، كما هداهم إليه في الألفاظ ذوقهم الصادق الذى تربى فيهم بما اطمان إليه الشعر حين جادت صياغته وتم تهذيبه وانتهى إلى ما انتهى إليه من تقصيد القصيد بوزن وقافية وروى ، تتحد فيها القصيدة بالغة ما بلغت من طول .

على أن هذا كله لم يصل بالنقد عند الجاهليين إلى الناحية العلمية التحليلية ، ومن ثم لا يشك الأديب في رد مناسب إليهم فيه مبني على هذه الناحية التحليلية التى لا تتم لأمة ما بغير تعليم وتثقيف كهذا الذى زاده الرواة بعد في الحادثتين السابقتين .

فقد زاد بعضهم أن حسان غضب من حكم النابغة وتفضيله الخنساء عليه وقال

أنا أشعر منك ومنها ومن أيك ، قال النابغة بما ذا قال بقولى :

لنا الجففات الغر يلمعن فى الضحى وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
فقال النابغة للخنساء خاطيه يا خناس ، فقالت له أضعفت افتخارك وأزرتة فى ثمانية
مواضع ، قال وكيف قالت قلت الجففات والجففات مادون العشر ولو قلت الجفان لكان
أكثر ؛ وقلت الغر ولو قلت البيض لكان أكثر اتساعا ، وقلت يلمعن واللمع شيء
يأتى بعد شيء ولو قلت يشرق لكان أكثر ، لأن الإشراق أدوم من اللمعان ، وقلت
بالضحى ولو قلت بالدجى لكان أكثر طراقا ، وقلت أسيفنا والأسياف مادون العشرة
ولو قلت سيوفنا لكان أكثر ، وقلت يقطرن ولو قلت يسلمن لكان أكثر ، وقلت
من نجدة والنجدات أكثر من نجدة ، وقلت دما والدماء أكثر من الدم . فلم
يحرسان جوابا وانصرف مستحيا . فهذا التفصيل فى النقد لا يسلم العقل بوجوده
فى تلك الحياة وبخاصة ما تخلله من ذكر الأعداد المبنية على أن جمع التكسير فى
الدماء أكثر من اسم الجنس فى الدم ، وأن وزن فعول منه فى السيوف جمع كثرة
ووزن أفعال فى أسياف جمع قلة ، وأن جمع المؤنث السالم فى الجففات أقل من جمع
التكسير فى جفان ، إلى غير ذلك من مختلفات القرن الثالث .

وذكر بعض آخر أن أم جندب لما تحاكم إليها امرؤ القيس وعلقمة قالت لهما
« قولوا شعرا على روى واحد وقافية واحدة تصفان فيه الخيل فى الصيد » ثم أنهى
الحديث على ما أسلفنا ، والندى نرده هو شرطها أن يكون الشعر على روى واحد
وقافية واحدة ، لأن هذين اللفظين من روى وقافية لم يعرفا بهذا المعنى الاصطلاحي
لا حيث وضع الخليل علمى العروض والقافية بعد .

ومما يتصل بموضوع الشعر الجاهلى ونقده وينبغى أن يرد أيضا ، ما ذكره
بعض الأدباء من أن العرب حين أدركت فى جاهليتها سمو السبع الطوال « كتبتها بماء
الذهب فى قباطى مصر المدرجة وعلقتها على أستار الكعبة تشريفا لها وأنها لذلك سميت
بالمعلقات » وإنما ينبغى أن يرد هذا التفصيل والتدقيق والمبالغة فى التماس هذه
التسمية ، لأن العناية لم تصل بالعرب فى جاهليتها إلى هذا الحد فى الشعر ونقده ،
علي أن لفظة المعلقة ذكرت أول ما ذكرت فى كتاب العقد الفريد لابن عبدبره
الأندلسى على لسانه نفسه بالعبارة التى أوردناها حيث الكلام آتقا على المعلقة

ولو كان التعليق وقع حقا بالصفة التي ذكرها أو بأية صفة أخرى لكان أولى بذكره قبله أدباء المشاركة كابن سلام وابن قتيبة والجاحظ وغيرهم فيما خلفوا لنا من كتب ، بل لكان حماد الرواية — أول جامع لها — أولى الجميع أن يسميها المعلقة لا المشهورات كما وقعت منه هذه التسمية الأخيرة ، دون إشارة ما إلى ذكر التعليق لا في الكعبة ولا على غيرها ، ولذلك لا نشك في أن التسمية بالمعلقة مستحدثة بعد جمع تلك القصائد على يد حماد ، ولا يبعد أن يكون قد أوحى بها ضمنا ما كانت تتجاوز فيه العرب من تسمية القصيدة الجيدة سمطا كما فعلت قريش آنفا في قصيدتي علقمة ، والسمط العقد النفيس الذي من شأنه أن يتباهى بتعليقه في الجيد ، وهذا إليها صريحا ما ذكره أبو زيد في جمهرته وهو يتكلم عن أصحابها وهو قوله « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط » ثم جاء بعد أبي زيد من قال المعلقة بدل السموط ، من باب ذكر المرادف بدل المرادف ، أو بطريق التعبير عن اللفظ بما يدل عليه لازم معناه ، ومن هنا شهرت بهذا الاسم الأخير الذي عفى على ما سبقه من المشهورات والطوال والسموط .

تراجم جاہلیہ

امرؤ القيس الكندي

ترجمة مطولة

١ — نسبه وبيته

عرفت فيما تقدم من أنساب العرب أن القحطانيين يرجعون إلى أصليين عظيمين ، حمير وكهلان ، وأن شعوب كهلان كانت تتداول الملك وشعوب حمير ، ثم انفرد به الحميريون وبقيت بطون كهلان على كثرتهم تحت إمرتهم ، إلى أن تقاصر ملك حمير فكانت الرياسة في البوادي لبني كهلان .

وعرفت أن من أحياء كهلان العظيمة كندة التي كان لها ملك قديم بحضرموت تحت سلطان التبابعة . فإلى كندة هذه يرجع امرؤ القيس رجلنا الآن ، فهو كما قال الاصمعي امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر بن معاوية بن ثور المعروف بكندة ، وكنية امرؤ القيس أبو وهب ، أو أبو الحارث ، ولقبه هو ما ذكرناه ، أما اسمه فحندج أو قيس وبهذا الأخير ذكره بعض مؤرخي الروم في كتبهم . وعرفت فيما تقدم من أيام العرب أن بكر بن وائل لما تقاطعت أرحامها وغلبت سفهاؤها أتوا المالك من التبابعة إذ ذاك وطلبوا إليه برضاهم أن يملك عليهم من قبله من شاء ، فجعلهم تحت سلطان كندة ، وكان ملكها حينئذ حجر بن معاوية ، وبهذا بدأ نفوذ كندة يتحول إلى الشمال ، ويتغلب على كثير مما في أيدي الغساسنة بالشام والمناذرة بالحيرة إلى أن أخذ ملك المناذرة كله من قبل الفرس الحارث جد امرؤ القيس في عهد كسرى قباذ والد كسرى أنوشروان ، لأنه قبل من قباذ رأيه في إباحة المزدكية ولم يقبله المنذر بن ماء السماء فطرده وأقام الحارث مكانه ، حتى إذا ما ملك أنوشروان بعد أبيه وكان علي خلاف رأيه في المزدكية وقتل مزدكا وشيعته ذهب إليه المنذر فأعاده إلى ملكه ، وطلب الحارث فهرب ولكن المنذر تبعه فهرب منه إلى أرض كلب ناجيا بنفسه ، فاتهب المنذر ماله ، وأسر ثمانية وأربعين من بيته

فقتلهم جميعا في ديار بنى مرينا العباديين بين دير هند والحيرة ، وذلك حيث يقول
امرؤ القيس بعد :

ألا يا عين بكى لى شنيئا وبكى لى الملوك الذاهبين (١)
ملوكا من بنى حجر بن عمرو يساقون العشية يقتلون
فلو فى يوم معركة أصيبوا ولكن فى ديار بنى مرينا
فلم تغسل جماجمهم بغسل ولكن فى الدماء مرمينا
تظل الطير عاكفة عليهم وتنزع الحواجب والعيونا

ثم لم يلبث الحارث أن قتل بأرض كلب، ولكنه كان إذ استقر بها فرق أولاده
الخمسة أمراء على القبائل، فكان شرحبيل وسلمة على ملكه الأصيل فى بكر وتغلب ،
وكان معد يكرب على حنظلة والنمر ، وكان عبد الله على عبد القيس ، ثم كان حجر
والد امرئ القيس على بنى أسد وغطفان ، وبعد قتل الحارث لم يزل الشقاق واقعا
بين أولاده بافساد المنذرذات بينهم، حتى ضؤل ملكهم وذهبت ريحهم إلا فى حجر والد
امرئ القيس على بنى أسد وغطفان .

ولما رأت بنو أسد تضعع ملك الكنديين بعد أيهم ، وذهب سطوتهم بقتل
من قتل وضعف من بقى ، وكان حجر قد مضى عليه دهر فيهم لا يزال على عسفه
لهم واستبداده بهم ، أرادوا التخلص منه، فكان بدء انتفاضهم عليه الامتناع عن دفع
الأتاوة السنوية المضروبة عليهم وردهم جباته مضروبين مخرجين، فغضب لذلك غضبا
شديدا ، وسار اليهم فى جند فأخذ سراتهم وجعل يقتل منهم من يقتل بضرب العصا
ومن ثم سموا عبيد العصا ، ثم أباح أموالهم وأبى أن يساكتوه فأجلاهم إلى تهامة ،
وقد احتبس من بقى من سراتهم وفيهم عبيد بن الأبرص الشاعر الأسدى ، فهاجت
عاطفة الشعر فى نفسه حزنا على قومه واستعطافا للملك فقال :

يا عين فابكى ما بنو أسد فهم أهل الندامة
أهل القباب الحجر والذمم المؤبل والمدامة (٢)

(١) شنين من عمومة امرئ القيس

(٢) المؤبل الكثير

وذوو الجياد الجرد والأسل المتقفة المقامه
 حلا أبيت اللعن حلام إن فيما قلت أمه (١)
 في كل واد بين يشرب فالقصور إلى الميامه
 تطريب عان أو صياح محرق أو صوت هامه (٢)
 ومنعهم نجدا فقد حلوا على وجل تهامه
 برمت بنو أسد كما برمت ببيضتها الحمامه
 جعلت لها عودين من نشم وآخر من ثمامه (٣)
 مهما تركت تركت عفوا أو قتلت فلا ملامه
 أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة
 ذلوا لسوطك مثل ما ذل الأشيقر ذو الخزامة (٤)

فرق لهم حجر وبعث في أثرهم فأقبلوا وأطلق من احتبس من سراتهم ، ولكن
 بنى أسد امتلأت قلوبهم عليه حقدا ، فأجمعوا أمرهم على قتله وحشدوا لذلك ، وبلغه
 أمرهم فأقبل نحوهم فناهضوه القتال فهزموا أصحابه وأسروه وطعنه أحداهم غيلة في
 هذا الأسر طعنة كانت القاضية عليه بعد قليل

٢ - نشأته وحياته

نشأ امرؤ القيس إذن في بيت ملك عتيد صفاله الدهر زمنا . وكان ذلك
 في أوائل القرن السادس المسيحي ، فكان أبوه ملكا وأعمامه ملوكا ،
 وكان فوق ذلك يتصل بوساطة بيته ببيت المناذرة اتصال مصاهرة . فضلا عن
 صلة الخنية وصلة النسب القديمة ، فان هندا أم عمرو المعروف بعمر بن هند
 أخت جد امرئ القيس .

(١) الآمة الضربة تشج أم الدماغ وخفت الميم للشعر

(٢) العاني الأسير . وتطريبه صوت حزنه ، والمهامه طائر تزعم العرب خروجه من قبر القنيل فلا يزال
 يصيح حتى يؤخذ بثأره ويسمي الصدى أيضا (٣) البشم والثمام نباتان (٤) الأشيقر
 من الدواب الأحمر في منقرة . أي كدره ، وذو الخزامة المحزوم فهو لذلك يذل .

وكان يتصل بأعز بيت في بكر وهو البيت الشيباني إذ جده الحارث المذكور كان على ابنة عوف بن محم الشيباني الذي يقال فيه (لا حر بوادي عوف) ومن قبله كان حجر الأكبر على أم أناس بنت ذهل بن شيبان جدة هند المذكورة لأبيها . كما كان يتصل بأعز بيت في تغلب أيضا ، فان أمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلل التغلييين .

ولكن على الرغم من هذا النسب انصرف بكل نفسه إلى ناحية اللهو والاستمتاع ، فكان يتنقل في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاها ، فاذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد ، أقام فنحر لهم وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا وشرب وسقاهم وغنته قيانة ، ولا يزال كذلك يسير من مكان إلى مكان ، وفي كل هذا يقول الشعر غير متخرج من قول ولا مقلع عن غي ، فلم يلبث لتوقد ذهنه ووفرة ذكائه وكثرة استفادته من شعر خاله المهلهل - مقصد القصيد أو أول من عرف القصيد - أن يندشعراء عصره جميعا في كل ما تعرض له ، من البكاء على الدمن وذكر الرسوم والأطلال ، ووصف النساء واللهو ، ونعت الخيل والصيد ، واستجلاء محاسن الطبيعة ومظاهرها ، على ما بأييه من الكراهة لكتلتا حاله ، الخلود إلى اللهو والاستجابة للشعر ، حتى إذ كان منه ما كان مع عزيزة ابنة عمه يوم الغدير ، وقال في ذلك معلقته مفحشا ، اشتد حنقه عليه ، ودعا مولى له يسمى ربيعة فكلفه قتله ، فذهب به إلى رأس جبل ، ولكنه ضن بمثله أن يقتل وتركه مصفدا هناك وعاد فأخبر أباه كذبا أنه قتله ، ولما رأى منه أسفا وندما أخبره الحقيقة وانطلق إلى امرئ القيس فقال له امرؤ القيس :

فلا تتركني ياربيع لهذه وكنت تراني قبلها بك واثقا

فأتي به إلى أبيه فنهاه عن قول الشعر فلم ينته ، واستمر علي قرضه ، حتى إذا بلغ أباه قصيدة له فيها إفحاش أيضا وهي :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي (١)
طرده فلم يزل طريدا حتى قتل أبوه ، وهو حينئذ بدموق من أرض اليمن ، فأتاه

(١) عم لغة في انعم سماعا ، ويعمن مضارعها على السماع أيضا

الرسول بالخبر وهو مع نديم له يشربان ويلعبان النرد (١) فلما أخبره لم يلتفت اليه — وكف نديمه عن اللعب ، فقال له اضرب ما كنت لأفسد عليك دستك (٢) حتى إذا فرغ الدست استخبر الرسول — وهو عامر العجلى — جميع خير أبيه ثم قال :

أتانى وأصحابى على رأس صيلع حديث أطار النوم عنى فأفعا (٣)

فقلت لعجلى بعيد مآبه أبني وبين لي الحديث المجمعجا (٤)

فقال أبيت اللعن عمرو وكاهل أباحا حمى حجر فأصبح مسلما (٥)

وقال أيضا :

تطاول الليل علينا دمون دمون إنا معشر يمانون

وإنا لأهلنا لمحبون

وقال كذلك :

خيلى ما في الدار مصحى لشارب ولا في غد إذ ذاك ما كان مشرب

ثم قال ضيعنى صغيرا وحملنى دمه كبيرا ، لا صحو اليوم ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغدا أمر ، اليوم قحاف وغدا تقاف (٦) فذهب كل من القولين الأخيرين مثلا ثم استمر في شربه يومه ، فلما صحا إلى ألياً كل لحا ولا يشرب خمر ولا يدهن بدهن ولا يلهو بلهو ، حتى يدرك بثأر أبيه ، وفي ذلك يقول وقد امتنع عليه الكرى يذكرو نافعا وهو أخوه الأكبر

أرقت ولم يارق لما بنى نافع وهاج بن الشوق الهوموم الروادع

ولما جن الليل رأى برقاً فقال :

أرقت لبرق بليل أهل يضيء سناه بأعلى الجبل

أتانى حديث فكذبت به بأمر تززع منه القلل

(١) النرد معرب أرد لعبة وضعها أردشير بن بابك فسميت بأول اسمه هي المعروفة الآن بالطاوله (٢) الدست الدور (٣) صيلع جبل ، وأفعم ملاء يعني ملاء صدره بالهم (٤) المجمع غير الواضح (٥) مسلما بها (٦) القحاف كثوس من خشب جمع قحف ، والنقاف المناقفة وهي الضربة بالرمح على الهامة (٧) أهل صوت برعده (٨) القلل جمع قلة وهي رأس الجبل كقنته .

بقتل بنى أسد ربهم ألا كل شئ سوء جلل (١)
فأين ربيعة عن ربها وأين تميم وأين الحول (٢)
ألا يحضرون لدى بابه كما يحضرون إذا ما أكل

ثم عاد وأخذ يتهماً لمحاربة بنى أسد فبلغهم ذلك ، فأوفدوا اليه رجالا فيهم قبيصة ابن نعيم ، وكان ذا بصيرة بمواقع الأمور وردا وصدرا ، فلما علم امرؤ القيس بمكانهم أمر بآزلاهم وبالغ في إكرامهم ، ولكنه احتجب عنهم ثلاثا فسألوا في ذلك من حضرهم من رجال كندة فقالوا هو في شغل باخراج ما في خزائن أبيه من السلاح والعدة فقالوا اللهم غفرا إنما قدمنا في أمر تتناسى به ذكر ماسلف ونستدرك به ما فرط فليبلغ ذلك عنا فبلغ ، فخرج اليهم في قباء وخف وعمامة سوداء ، وكانت العرب لاتعم بها إلا في الترات فلما نظروا اليه قاموا له وبدر اليه قبيصة فقال

إنك في المحل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه أيامه وتتنقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ولا تذكرة مجرب . ولك من سوؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب محتمل يحتمل ما حمل عليه من إقامة العثرة ورجوع عن هفوة ، ولاتتجاوز الهمم إلى غاية الارجعت اليك فوجدت عندك فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح في الذي كان من الخطب الجليل الذي عمت رزيته نزارا واليمن ولم تخصص كندة بذلك دوننا للشرف البارع الذي كان لحجر ثم قال

كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم وإخاء الحمد وطيب الشيم ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ولقدیناه منه ، ولكن مضى به سبيل لا يرجع أولاه على أخراه ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحمدا للحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث .

إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتا وأعلاها في بناء المكرمات صوتا ، فقدناه إليك بنسعة (٣) يذهب مع شفرات (٤) حسامك فيقول ، رجل امتحن بهلك عزيز فلم

(١) جلل هنا حقير لاعظيم وهي من صفات الأضداد (٢) الحول الخدم والحشم .
(٣) النسعة سير ينسج عريضا كأعنة اللجم (٤) جمع شفرة وهي الحد

تسل سخيمته (١) إلا بتمكينه من الانتقام . أوفدء بما يروح من بنى أسد من نعمها فهي ألوف تجاوز الحسبة فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها (٢) . ولم يردده تسليط الأحن على البراء (٣) ، وإما أن توادعنا حتى تضع الحوامل فنسدل الأزر ونعقد الحجر فوق الرايات . فبكى امرو القيس ثم قال ، لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم ، وأنى لن أعتاض به جملاً أو ناقة فأكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد ، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها ولن أكون لعطبها سبياً ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حقاً وفوق الأسنة علماً (٤)

إذا جالت الخيل في مازق تدافع فيه المنايا النفوسا
أقيمون أم تنصرفون ، قالوا بل ننصرف بأسوأ الاختيار وأبلى الاجترار ، لمكروه وأذية وحرب وبلية ، ثم نهضوا عنه وقبيصة يقول

لعلك أن تستوخم الموت إن غدت كتائبنا في مازق الموت تمطر
فقال امرو القيس : لا والله لا أستوخمه ، فرويدا ينكشف لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، ولقد كان ذكر غير هذا أولى بنى إذ كنت نازلاً بربعي ، ولكتك قلت فأجبت ، فقال قبيصة ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والأعتاب قال امرو القيس فهو ذاك .

استعان امرو القيس أول ما استعان في الأخذ بثأر أبيه بكراً وتغلب ، للصهر وملك عمه فيها ، فأعانوه وأقبل بجموع منهما ، وكانت بنو أسد قد علمت ، فارتجلت إلى كنانة فجد وراءهم ووضع السلاح في بنى كنانة وقد غادرتها أسد على غير علم منه فذلك حيث يقول .

ألا يالهف هند إثر قوم هم كانوا الشفاء فلم يصابوا (٥)
وقاهم جدهم بينى أبيهم وبالأشقين ما كان العقاب (٦)

(١) لم تنزع حفيظته (٢) السيوف إلى أغادها (٣) الأحن الحقود ، والبراء بالمكر جمع برى أو هو بالضم تخفيف براء (٤) العلق الدم العالق بالسيف لتجسده
(٥) يعنى بنى أسد ، وهند أخت امرئ القيس . (٦) يعنى بنى أبيهم كنانة

وأفلتهن علباء جريضا ولو أدركنه صفر الوطاب (١)

ثم سار وراء بني أسد فأدركهم وقد جهدت خيله عطشا فأثخن فيهم قتلا وجرجا حتى حجز بينهم الليل وهربت أسد ، فلما أصبح أراد اتباعهم فلم ترض بكر وتغلب وقالوا قد أصبت ثأرك وكرهوا ما كان من قتالهم كنانة ظلما وانصرفوا عنه . وإنما لم يشف امرؤ القيس نفسه بهذه الموقعة لأن مالكا وكاهلا وکانا أشد المؤلبن على حجر انصرفا منها موفورين لم يكلم أحد منهم كلما ، وذلك حيث يقول

يالهف هند إذ خطئن كاهلا القاتلين الملك الحلاحلا (٢)

خير معد حسبا ونائلا وخيرهم قد علموا شائلا

نحن جلبنا القرع القوافلا تالله لا يذهب شيخي باطلا (٣)

يحملنا والأسل النواهلا وحى صعب والوشيج الذابلا (٤)

مستفترات بالحصا جوافلا يستشرف الأواخر الأوائلا

حتى أيد مالكا وكاهلا

ولما امتنعت بكر ووائل عن متابعة بني أسد معه لما تقدم ، خرج إلى اليمن فاستنصر أزد شنوءة فلم ينصروه ، فنزل بمرثد الخير الحميري فاستنصره فأمدته فخرج ، وفي طريقه إلى بني أسد كان استقسامه بنى الخلصة في تبالة وتكسيره السهام إذ خرجت بنهيه ، وقد ظفري بني أسد ، ونال بعض ثاره ، فقال :

يادار ماوية بالحائل فالسهب فالحبتين من عاقل (٥)

صم صداها وعفا رسمها واستعجمت عن منطق السائل

قولا لدودان عبيد العصا ما غركم بالأسد الباسل (١)

(١) علباء رجل من أسدا أمر ابن أخته بطعن حجر وهو أسير لأنه كان قتل أباه ، وجريضا لا يكاد يتنلح ريقه ، والنون في أدركته للخيال ، وصفر الوطاب خلا وهو هنا كناية عن الموت (٢) النون للخيال والحلاحل البطل لا يريم مكانه (٣) القرع البزل ، والقوافل الضوامر (٤) النواهل الشوارب من الدم ، والوشيج الرماح من هذا الشجر (٥) هذه الأسماء الأربعة لأماكن (١) دودان من أسد وسموا عبيد العصا لقتل أبي امرئ القيس إياهم بها كما تقدم

قد قرت المعينان من مالك ومن بني عمرو ومن كاهل
ومن بني غنم بن دودان إذ تقذف أعلامهم على السافل
نطعنهم سلكى ومخلوجة لفتك لأمين على النابل (١)
إذ هن أقساط كرجل الدبا أو كقطا كاظمة الناهل (٢)
حتى تركناهم لدى معرك أرجلهم كالخشب الشائل (٣)
حلت لى الحمر وكنت امرا عن شربها فى شغل شاغل
فاليوم أسقى غير مستحقب إثمنا من الله ولا واغل (٤)

وكان الدهر أبى مع هذا الانتصار أن يصفوا لامرى القيس، فلم يلبث أن طلبه المنذر بن ماء السماء اللخمى لماسبق، وقد أعانته أنوشروان بجيش، فتفرق عنه من كان معه ولجأ بعصبة من بيته إلى الحارث بن شهاب من حنظلة، فتوعد المنذر الحارث بالحرب إن لم يسلمهم فأسلمهم، ولكن امراً القيس نجاً بأدرعه وسلاحه وبأخته هند وابن عمه يزيد بن معاوية بن الحارث، وكان ذلك بعد قتل أعمامه وتفرق ملك أهل بيته فلم يجد من يلجأ إليه إلا ابن عمته أبيه عمرو بن هند فأجاره زماناً، وبلغ المنذر مكانه فطلبه، فأنذره عمرو فهرب إلى هانيء بن مسعود الشيباني لماسبق، فلم يجره لأنه موال للمنذر، فأجاره سعد بن الضباب الأيادى، فذلك حيث يقول يمدحه ويهجو بيت هانيء :

لعمرك ما سعد بخلة آثم ولا نأناً يوم الحفاظ ولا حصر (٥)
لعمري لقوم قد نرى امس فيهم مرابط للأمهـار والعكر الدثر (٦)
أحب إلينا من أناس بقنة يروح على آثار شأهم النمر (٧)
يفاكهننا سعد ويغدو لجمعنا بمثنى الزقاق المترعات وبالجزر

(١) يقول فطعنهم الطعنة ما بين مستقيمة ومنحرفة بالسرعة التى يرد فيها السهمان على النابل

(٢) الدباو الجراد رجله القطعة العظيمة منه (٣) الشائل المرتفع

(٤) المستحقب الحامل، والواغل الداخل على القوم فى شراهم تطفلاً أو المقصر

فى الأشياء (٥) النأناً الجبان (٦) العكر جماعة من الابل، والدثر السكينة

(٧) قنة موضع

وحيث يقول يمدح سعدا أيضا

منعت الليث من أكل ابن حجر وكاد الليث يودى بـابن حجر (١)
منعت فأنت ذو من ونعمى على ابن الضباب بحيث ندرى
سأشـكرك الذي دافعت عني وما يجزيك منى غير شكـرى
فما جار بأوثق منك جارا ونصرك للفـريد أعز نصر

ولما كان من شأن الخائف ألا يطيل المقام بمكان واحد ، فقد رحل امرؤ القيس عن سعد إلى المعلى بن تيم الثعلبي في أرض طيء ، فأجاره من المنذر ، وفي ذلك يقول :

كأنى إذ نزلت على المعلى نزلت على البواذخ من شـم (٢)
فما ملك العراق على المعلى بمقتدر ولا الملك الشامى (٣)
أصد نشاط ذى القرنين حتى تولى عارض الملك الهمام (٤)
أقرحـشا امرئ القيس بن حجر بنو تيم مصـاييح الظلام

ثم غادر المعلى الى عامر بن جوين الطائي ، فأقام عنده مدة ، ثم خافه على أخته هند فانتقل الى حارثة بن مر من طيء أيضا فوقعـت بين الحيين حرب لذلك ، فغادر طيئا الى عمرو بن جابر المازنى الفزارى طالبا منه الجوار حتى يرى ذات غيبه ، فقال له عمرو يا ابن حجر إني أراك فى خلل من قومك وأنا أنفس بمثلك من أهل الشرف وقد كدت بالأمس تؤكل فى دار طيء وأهل البادية أهل بر لأهل حصون تمنعهم ، وبينك وبين اليمن ذؤبان قيس ، أفلا أدلك على بلد تلجأ اليه فقد جئت قيصر ، وجئت النعمان فلم أر لضعيف نازل ولا لمضطهد مثله ولا مثل صاحبه ، قال من هو وأين منزله قال السموأل بن عاديا بتياء وسوف أضرب لك مثله هو يمنع ضعفك حتى ترى ذات غيبك ، وهو فى حصن حصين وحسب كبير ، فقال امرؤ القيس وكيف لى به قال أنا أوصلك الى من يوصلك اليه ، وأصـحبه الى رجل من قومه ، فلما سار به اليه ، عرف

(١) يعنى بالليث هذا المنذر (٢) شـم جبل والبواذخ المرتفعات (٣) يعنى ملكى المناذرة بالعراق والنساسنة بالشام (٤) أصدرده والنشاط هنا الجيش شبه بالمرتفع من السحاب

له حقه وأنزل هند أخته في قبة آدم ، وأنزله ومعه ابن عمه يزيد في مجلس براح ، فأقام عنده طويلا حتى طلب اليه أن يكتب له الى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى جوستينيان قيصر ففعل ، فمضى تاركا عنده المرأة والرجل والسلاح حتى انتهى إلى قيصر ، فقبله وأكرمه وكانت له عنده منزلة . وفي هذا الخروج الى قيصر قال قصيدته هذه التي منها

أرى أم عمرو دمعها قد تحدرا بكاء على عمرو وما كان أصبرا
إذا نحن سرنا خمس عشرة ليلة وراء الحساء من مدافع قيصرا
إذا قلت هذا صاحب قد رضيته وقرت به العينان بدلت آخرا
كذلك جدى ما أصاحب صاحبا من الناس إلا فاتنى وتغيرا

وهي طويلة فخر فيها بعد ذلك بقديمه ، ثم وصف الناقة على غير عادة منه ، وخرج من وصفها يقول عن نفسه :

عليها فتي لم تحمل الأرض مثله أبر بميثاق وأوفى وأصبرا
هو المنزل الآلاف من جو ناعط بنى أسد حزننا من الأرض أوعرا (١)
ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ولكنه عمدا إلى الروم أنفرا

الى أن قال وكان معه في هذه الرحلة عمرو بن قميئة اليشكري الشاعر صاحبه وقد مرا بالدرب ما بين طرسوس وبلاد الروم فبكى عمرو ، فقال امرؤ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا
وإني زعيم إن رجعت مملكا بسير ترى منه الفرائق أزورا (٢)

ثم أنهاها بعد وصفه لفرسه وشجاعته وسابق أيامه وشوقه اليها بقوله في إياه وعزته

(١) جو اسم لامكنة كثيرة تعرف بالاضافة ، و ناعط مخلاف مرثد الخير بالين وبه لقب ابنه ربيعة (٢) الفرائق رجل البريد ، وأزور مائل

وكنت إذا ما خفت يوما ظلامه فان لها شعبا ببلطة زيمرا (١)
نيافا تزل الطير عن قذفاته يظل الضباب فوقه قد تعصرا (٢)

وبعد أن أقام مدة عند قيصر استنجد على المنذر وبني أسد ، وكان رجل من بني أسد يقال له الطماح قد أتى بلاد الروم ليثبط عنه بالدس ، فقال لقيصر إن امرأ القيس غوى فاجر وأنه ذكر أنه كان يرسل ابنتك وهو قائل في ذلك أشعارا يشهرها بها في العرب فيفضحها ويفضحك ، فعدل قيصر عن نصرته ، وعاد امرؤ القيس خائبا بعد أمل ، ثم أصيب وهو عائد بمرض يملئ بوصفه له أنه الجدرى ، فكان يتساقط منه جلده ولذلك لقب ذا القروح ، وقيل إن ذلك من حلة مسمومة ألبسه إياها قيصر ، فذلك حيث يقول وقد أدركه بها رسول قيصر

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني من دائه ما تلبسا
وبدلت قرحا داما بعد صحة لعل منايانا تحولن أبؤسا
فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا
فأما تريني لا أغمض ساعة من الليل إلا أن أكب فأنعسا
فيارب مكروب كررت وراءه وطاعت عنه الخيل حتى تنفسا
وما خفت تبريح الحياة كما أرى تضيق ذراعى أن أقوم فألبسا (٣)
ألا إن بعد العدم للمرء قنوة وبعد المشيب طول عمر وملبسا (٤)

فلما صار إلى أقرة احتضر بها فقال

رب طعنة متعجره وجفنة متحيرة (٥)
وقصيدة متخيرة تبقى غدا في أقرة

(١) البلطة الهیضة وهي مضافة إلى زيمر اسم لموضع بجبال طيء (٢) النياف المرتفع، والقذفات جمع قذفة ما أشرف من رؤوس الجبال ، والضباب السحاب ، وتعصر عصر ماءه لقطع تلك القذفات إياه (٣) يقول ، ما خفت تبريح الحياة يصل بي إلى أن تضيق ذراعى عن أن أقوم فألبس (٤) القنوة ما يقتنى يريد الغنى (٥) المتعجره المصبوبة ، والمتحيرة المملوءة طعاما ودسما .

ورأى قبر امرأة هناك في سفح جبل يقال له عسيب فسأل عنها فعلم أنها من بنات
الملوك فقال :

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب
ويروى أنه قال عند وفاته أيضا

ألا أبلغ بنى حجر بن عمرو وأبلغ ذلك الحى الحديد
بأنى قد هلكت بأرض قوم سحيقا من دياركم بعيدا (١)
ولو أنى هلكت بأرض قومي لقلت الموت حق لا خلودا
أعاليج ملك قيصر كل يوم وأجدر بالمنية أن تقودا
بأرض الشام لا نسب قريب ولا شاف فيسند أو يعودا

ثم مات فدفن هناك ، ومؤرخو الروم ينكرون تحييل قيصر في إهلاكه وإن كانوا
يعترفون بأن قيصر لما لم يسع في إصلاح أمره وإعادة ملكه ضجر فعاد ومات في
طريقه ، ثم يقولون إن قيصرا لما بلغته وفاته أمر بأن ينحت له تمثال وينصب على
ضريحه ففعل ذلك وبقى تمثاله يرى بأنقرة إلى أيام المأمون ، وأن المأمون شاهده عند
مروره بها لما دخل بلاد الروم في غزوالصائفة ، وكانت وفاته كما يذكرون سنة ٥٦٥ م
أما ميلاده فكان حوالى سنة ٥٢٠ م فهو قد مات ولما يبلغ الحسين

هذا وقبل أن تغادر سيرته إلى شعره تقول إن الحارث بن ثمر الغساني ذهب إلى
السموأل بعد موت امرئ القيس يطلب أسلحته ودروعه ، فأبى سموأل
وتحصن في حصنه ، وكان من ذلك أن خيره الحارث بين تسليم السلاح أو قتل
ابنه ، وكان قد ظفر به ، فلم يسلم سموأل ، ف ضرب الحارث وسط ابنه بالسيف
فقطعه وأبوه يراه ثم انصرف ، وقد سلم سموأل سلاح امرئ القيس إلى ورثته .

وبهذه الحادثة فخر السموأل وضربت العرب المثل بوفائه فقالت «أوفي من السموأل»
كما تمدحته من أجلها أيما تمدح (١)

٣ - شعره وفنه

نشأ امرؤ القيس ونبع الشعر من نفسه فياض لاقدرة له على احتباسه ، وليس أدل
على ذلك من مخالفته أباه إذ نهاه عنه فلم ينته ، وعرض نفسه للقتل وعاش طريداً عن
بيت ملك وعزة ، وما كان امرؤ القيس ملوماً في هذا وقد تملكته ملكة الشعر
فصار لها عبداً مملوكاً ، تأمره فيمثل وتجيئ في نفسه فيقول ، دأب الشاعرية الحققة
لاتدفع إذا همت ولا تمنع إذا أرادت ، ولقد كان يحس من نفسه هذه المقدرة الفائقة
والقدرة المتدفقة ، ألا تراه يقول

أذود القوافي عنى زيادا زياد غلام جرىء جرادا
فلما كثرن وعنيني تخيرت منهن شقي جياذا
فأعزل مرجانها جانباً وآخذ من درها المستجادا

وكثيراً ما كانت تدفعه تلك القوة إلى أن يماثن غيره ، وتدفع غيره إلى أن يماثنه ،
فيتقارض الشعر سائلاً أو مستولاً مع شيوخ الشعراء في عصره ، وهو لما يفارق ميعه
الصبا بعد .

١ - لقي التوأم اليشكري يوماً فقال له إن كنت شاعراً فأجز أنصاف ما أقول
فقال التوأم قل ماشئت

(١) من فخر السموأل بتلك الحادثة قوله

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ماخان أقوام وفيت
وقالوا إنه كثر رغب ولا والله أغدر ما مشيت
بني لي عاديا حصنا حصينا وبثرا كلما شئت استقيت
طمرا تزلق العقبان عنه إذا ما نابني ظلم أبيت
وأوصي عاديا يوماً بالآ تهدم يا سموأل ما بنيت

وممن ذكرها ، مادحا السموأل من أجلها الأعشى . وهو : يستجير شريح بن السموأل
وقد مر به وهو أسير رجل من كلب كان قد هجاه وذلك في قصيدته التي يقول فيها

فقال أصاح ترى بريقا هب وهنا
فقال التوأم كنار الفرس تستعر استعارا
فقال أرقت له ونام أبو شريح (١)
فقال التوأم إذا ما قلت قد هدا استطارا
فقال كأن هزيره بوراء غيب (٢)
فقال التوأم عشار وله لاقت عشارا (٣)
فقال فلما أن علا كنفى أضاح (٤)
فقال التوأم وهت أعجاز ريقه فحارا

شريح لا تتركني بعدما علقت
قد جلت ما بين بانقيا إلى عدن
فكان أكرمهم عهدا وأوثقهم
كالغيث ما استمطروه جاد وابله
كن كالسموأل إذ طاف الهمام به
بالأبلق الفرد من تيماء منزله
إذ سامه خطي خسف فقال له
فقال غدر وئكل أنت بينهما
فشط غير طويل ثم قال له
إني له خلف إن كنت قاتله
وسوف يعقبنيه إن ظفرت به
لاسرهن لدينا ذاهب هدرا
فقال مقدمة إذ قام يقتله
أأقتل أبك صبرا أو تجي بها
فشك أوداجه والصدر في مضض
واختار أذراعه ألا يسب بها
وقال لا أشتري عارا بمكرمة
والصبر منه قديما شيمة خلقت

- (١) أبو شريح : كنية أخيه نافع
(٢) هزيره صوته ، وبوراء غيب كناية عن أنهم سمعوه قبل أن يروه
(٣) وله خزينة على أولادها جمع والهة
(٤) أضاح من قرى اليمامة

فقال فلم يترك بذات السرطيا

فقال التوأم ولم يترك بجلهتها حمارا (١)

وكأن امرأ القيس غضب إذ وجد من يجازيه في هذه الاجازة حتى قال أبو عمرو
« فلما رأى امرؤ القيس التوأم قد ماتته ولم يكن في الزمن الأول شاعر يماتنه ، آلى
ألا ينازع أحدا بعده » وهذه شهادة كبيرة على شاعريته من أبي عمرو بن العلاء

٢ — ولقيه عبيد بن الأبرص يوما ، فقال له : كيف معرفتك بالأوابد قال قل
ما شئت تجدني كما أحببت فقال عبيد

ما حية ميتة قامت بميتتها درداء ما أنبت سنا وأضراسا (٢)
فقال :

تلك الشعيرة تسقى في سنا بلها فأخرجت بعد طول المكث أكدا سا (٣)
فقال عبيد :

ما السود والبيض والأسماء واحدة لا يستطيع لهن الناس تمسا
فقال :

تلك السحاب إذ الرحمن أرسلها روى بها من محول الأرض أيباسا
فقال عبيد

ما مرتجات على هول مراكبها يقطن طول المدى سيرا وإمراسا (٤)
فقال :

تلك النجوم إذا حانت مطالعها شبهتها في سواد الليل أقباسا
فقال عبيد :

(١) ذات السر بقة ، وجلهتها ناحية واديا (٢) الدرداء الذاهبة الاسنان والاضراس
(٣) جمع كدس وهو حب الحصيد (٤) المرتجات هنا الدارجات والأمراض الدوران

ما القاطعات لأرض لا أنيس بها تأتي سراعاً وما يرجعن أنكاساً (١)
فقال :

تلك الرياح إذا هبت عواصفها كفى بأذيالها للترب كناساً
فقال عبید .

ما الفاجعات جهاراً في علانية أشد من فيلق مملوءة باساً
فقال ،

تلك المنايا فما ييقين من أحد يكفتن حمق وما ييقين أكياساً (٢)
فقال عبید .

ما السابقات سراع الطير في مهل لا يشتكين ولو أجمتها فاساً (٣)
فقال .

تلك الجياد عليها القوم قد سبجوا كانوا لهن غداة الروع أحلاساً (٤)
فقال عبید .

ما القاطعات لأرض الجو في طلق قبل الصباح وما يسرين قرطاساً (٥)
فقال .

تلك الأماني يتركن الفتي ملكاً دون السماء ولم ترفع به راساً
فقال عبید .

ما الحاكمون بلا سمع ولا بصر ولا لسان فصيح يعجب الناس
فقال .

تلك الموازين والرحمن أنزلها رب البرية بين الناس قسطاساً
فأنت ترى امرأ القيس قد أجاب عن هذه الحاجة على ما بها من طول وإغاز إجابات
أصاب الحز وطبقت المفصل .

٣ - ومناظرته لعلمة بن عبدة التميمي التي تحاكم فيها إلى امرأته أم جندب الطائية
ثبت فضله على علقمة ، وإن كانت أم جندب قد قضت لعلمة عليه فيها ، وخلّصتها

(١) جمع نكس وهو الضعيف (٢) يكفتن يقبض (٣) فاس مسهل فأس
(٤) جمع حلس وهو البلد تحت المرج (٥) ما يسرين قرطاساً أي طول قرطاس

أن علقمة مر عليه وهو مقيم في طيء وامراته هذه منهم فتذاكرا الشعر فقال
علقمة أنا أشعر منك فقال امرؤ القيس — على مابه من هم — قل وأقول ، وتحاكما
إلى أم جندب ، فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

خليلى مرابى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب
وقال علقمة قصيدته التي مطلعها :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب
وكلاهما وصف بعد المطلع الناقة والفرس والصيد وما يعقبه من رجوع ، ففاق
امرؤ القيس علقمة في كل ما عالجاه ، ولكن أم جندب وازنت بين بيت واحد من
قول امرئ القيس وآخر من قول علقمة وفضلت علقمة عليه ، فقال لها بم فضله
قالت فرسه أجود من فرسك ، قال وبماذا قالت شمعتك زجرت وضربت وحركت
وهو قولك .

فللساق ألحوب وللسوط درة وللزجر منه وقع أهوج منعب (١)
وهو أدرك فرسه الوحش ثانيا من عنانه وهو قوله :

وأقبل يهوى ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب (٢)

فغضب امرؤ القيس وطلقها فخلفه علقمة عليها ، ومن ثم سمي علقمة الفحل ،
وسياتى وجه القول في عدم الأخذ بما قالت أم جندب في الكلام على طبقته بين
الشعراء ومكانته .

هذا ولا بد لكل عارض لشعر امرئ القيس يدرسه ويتكلم عنه ، أن يشطره
شطرين كما انشطرت حياته آنفا ، أحدهما شعره قبل مقتل أبيه ، والثانى شعره

(١) ألحوب عدو يثير الغبار ، ودرة تتابع وولاء ، والأهوج الذى لا عقل له ، والمنعـب
الشديد المد لعنقه (٢) الضميران فى أدركهن للفرس ثم للوحش ، والرائح الغيث المروح
إلى المصاب بالريح ، والمتحلب الذى يحلب مافيه .

من بعده، فإن بين الشعريين تباينا بينا في الغرض، واختلافا واضحا في الألفاظ والأساليب، وكذا في المعاني والأخيلة.

شعره قبل مقتل أبيه

لا خلاف بين رواة الأدب وعلمائه، أن معلقة امرئ القيس قيلت في الفترة اللاحقة من حياته، وأنها لذلك جاءت مرعاة صادقة لألوان ما كانت عليه تلك الحياة، فلا غرو إذا اتخذناها أساسا لدراسة هذا النوع من الشعر، ونموذجا لتصيد به كل ماشا كله من شعره لنجزم أو نرجح أنه قيل في الفترة الأولى مثلها. وهو لا يخرج عن النساء والديب، والحيل والصيد، والحساب والغيث.

— النساء والديب —

ترينا المعلقة بجلاء ووضوح، وصراحة ومكاشفة أن امرأ القيس عاش حياته الأولى كما ذكرنا في تاريخه لاهيا لاعبا، قد أرخى لنفسه العنان إلى غير حد، فلم يتكلف في إحساس ولم يتستر وراء تعبير، بل ترك بيانه طوع شعوره لاسلطان لعقله على هواه، ولا فكاك للسانه عما يريد قلبه، فهي من هذه الناحية تمثل من امرئ القيس نفسا إباحية، وتصلح أن تكون النواة الأولى لما يسمى الآن بالأدب المكشوف، وليس بدعا من خليع مستهتر كامرئ القيس، يبيح لنفسه في عجب وخيلاء وتفاهر وتباه، أن يحتبس على عنيزة ابنة عمه وأترابها ملابسهن يوم القدير بدارة جلجل، ويأبى التسليم فيها إلا ملبسا ملبسا ولو واحدة واحدة، تأتيه عارية مجردة، وهو لذلك جد طرب وبه جد فخور، وأن يقول في الادب المكشوف — وقد نحر ناقته في ذلك اليوم ليركب مع عنيزة في هودجها وفعلها ركب — مثل قوله

ويوم دخلت الحدر خدر عنيزة فقالت لك الوليات إنك مرجلى (١)

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل (٢)

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعديني من جناسك المعلن

(١) الويل لحول الشر وبهاء الفضيحة. وهو المراد هنا لأنه فضحها فهي تدعو عليه بمثل ما فعل. ومرجلى جاعلى أمشى راجلة (٢) الغبيط الهودج

ثم يفحش فيقول :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمام محول (١)
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتى شقها لم يحول

وهذه الناحية المكشوفة أكثر فيها من شعره المقول في سنيه الأولى ، وكان يسمى نفسه من أجلها فاجرا ، ففي قصة كهذه من قصيدته « ألام صباحا أيها الطلل البالى » يقول

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا وما إن من حديث ولا صالى (٢)

وبعد فلنرجع إلى المعلقة فنقول ، إنه بدأها بخير مطلع عرف في الوقوف على الاطلاع والدمن ، للبكاء على أهلها الراحلين بعد تعرف معلمها وتبين رسومها ، وفي وصف مرارة البين ووقوف الاصحاب يؤسونه وهولا يرى الشفاء إلا في سفح العبرات ، قال

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال
ترى بحر الآرام في عرصات وقيعانها كأن حب فلفل
كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرة الحى ناقف حنظل
وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتحمل
وإن شفاى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

فهذا مطلع أجاد فيه التشبيب ووضع له أسسا اتبعه الشعراء فيها ، من الوقوف على منزل الحبيب ، وحده تلك الحدود الضابطة ، وتعرف معاله ورسومه لتعاور الرياح عليه ، ومن انتحابه غداة البين انتحابا يسيل عبراته كما تسيلها رائحة الحنظل من ناقته ، وهى تشبيه منتزع من جوف البادية وقرارتها ، ومن أن موقفه هذا كان محل العطف من صحبه إذ وقفوا مطيهم عليه متوسلين أن يتجمل ولا يهلك أسى ، ومن أن مطلبهم هذا كان عزيز الإجابة لأنه لا يرى شفاءه إلا فى العبارة المهرقة ، ويرى أن لا معول ولا ساوى عند رسم قد درس واحتمل أهله .

(١) ابن حول عليه تمامه تمودا (٤) إن زائدة والصالى : المصطفى

وهذا النوع من المطامع لم ينسه حتى في أيام بؤسه ، فقد بدأ به قصيدة قالها
إذ أصابه المرض وهو في طريقه إلى قيصر الروم ، ولكنه كان يودع كل مطلع من
المزايما يفضل به غيره ، إذ كان يحیی به من وحي موضوع القصيدة ، ولذا خالف في
المطلع الذى نحن بصدده فجعل العفاء فيه حقيقة واقعة لطول العهد ، بينما جعل الرسوم
في المطلع السابق باقية لحداثته ، وهذا إذ يقول هنا .

فقانبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ أزمان
أتت حجج بعدى عليه فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان
ذكرت بها الحى الجميع فهيجت عقايل سقم من ضمير وأشجان (١)
فسحت دموعى فى الرءاء كأنها كلى من شبيب ذات سح وتهتان (٢)

فهذا مطلع لذكرى تقادم عهدها إذ كانت هذه القصيدة فى حياته الثانية بخلاف
المعلقة التى كانت فى حياته الاولى ، ولذلك يقول هنا ، عفت آياته منذ أزمان ،
ويقول أتت حجج بعدى عليه فأصبحت تلك الآيات كخط صحيفة فى مصاحف رهبان
ذات قدم وخفاء ، وانظر اليه يخالف فى وصف غزارة دمه هنا عما قال فى المعلقة
آ نفا ، فيجعل عينيه تسحان الدمع كفتق المزادة الكبيرة تشعب وتفري كلاها .
وله مطلع ثالث خالف فيه هذين فأجاد وأبدع وهو فى قوله فى الطلل يتم دروسه
وعفاؤه حتى تنكره العين ولكن النفس تدركه بما لها من شغف بأهله وتمام صلة
بأصحابه ، وهو ابتكار منه فى إيجاز وحس أداء قال :

لمن طلل درست آية وغيره سالف الأحرس (٣)
تنكره العين من حادث ويعرفه شغف الانفس

وكما ابتكر امرؤ القيس تلك الاجادة فى الوقوف على الدمن والآثار ، كان مجيدا
كذلك فى تحية الربوع والأطلال ، وفى الدعاء لها ، مع التحمر على عدم إجابتها
إذا خوطبت لبكها وصممها ، كهذا الذى يقول فى مطلع لا ميته .

(١) جمع عقبال وهو بقية العشق أو العلة أو العداوة والاول المراد (٢) جمع كلية
وهى الرقعة المستديرة تكون فى المزادة ، والشبيب المزادة المشعوبة أى المثقوبة
(٣) جمع حرس بفتح وسكون وهو الدهر

ألاعم صباحا أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى
وهل يعمن إلا سعيد مخلص قليل الهموم ما يبيت بأوجال
وهل يعمن من أن أحدث عهدى ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال
والذى يقول فى مطامع القافية :

ألا انعم صباحا أيها الربع فانطق

وحدث حديث الركب إن شئت فاصدق

وحدث بأن زالت بليل حمولهم

كنخل من الأعراض غير منبق (١)

فهذه الانواع جاءت من المطالع التى استحسناها الشعراء من بعده وحاكوه فيها ولكنهم لم يصلوا ولم يقاربوا .

غادر مطلع المعلقة إلى محبوباته وتوزع هواه بينهن ، من أم الحويرث وجارتها أم الرباب وغيرهما ، ممن أجمل الكلام عنهن ، قيل أن يخلص إلى عنيزة ابنة عمه ، فالى فاطمة العامرية العذرية ، فالى بيضة الخدر التى دب اليها ، فأرانا بهذا كيف يكون الحب المفرق على معانى الحسن والجمال ، يلهو به حيناً مع هذه وآخر مع تلك ، حتى لكأنه قد وضع بهذا أساس الغزل الأباحتى والحب المصنوع ، الذى تولى زعامته من بعده ابن أبى ربيعة مناظر جميل بشينة فى رأسته الهوى العذرى ، فكان يغترف من بحره فى الاوصاف الحسية يغرى بها إغراء ، وفى الزورات الليلية ينتهب لنتها انتهابا ، وهل عدا ابن أبى ربيعة ما رسم امرؤ القيس ، الا أنه فصل ما أجمل ، وأطال ما أوجز اللهم لا . وهذا قول امرئ القيس فى الديب (٢)

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا إليها ومعثرا على حراسا لو يسرون مقتلى
إذا ما الثريا فى النماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

(١) الأعراض جمع عرض وهو القرية ، وغير منبق غير مصطف على سطر واحد

(٢) قد شرحت مفردات معظم هذه الأبيات حيث الكلام آنفا على المعلقة ، وما لم يشرح

منها هناك شرح هنا

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر الالبسة المتفضل
 فقالت يمين الله مالك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلي (١)
 خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل (٢)
 فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل (٣)
 هصرت بفودى رأسها فتمايلت على هضيم الكشح ربا لمخلخل

فهو قد جعل محبوبته منيعة المنال حتى يكون إقدامه عليها إقدام شجاع بطل ،
 يقتحم الليل فى سره ويتجاوز أحراسا حرا صاعلى قتله ، وعرف كيف يتحدث عن لسانها
 حديث الخائفة عليه الطامعة فيه التى تدعه يخرج بها ماشيا فتجر على أثره وأثرها ذيل
 مرطها إخفاء وتلبيسا ، كما تدعه يحتاز بها ساحة الحى وينتحي مكانا ذا ستر وكن ،
 وقد أحسن الانتقال من ذكر هذا الخروج الذى دب اليه ديبيا إلى البخل فى وصفه
 لها إذ هصر فوديهما فتمايلت عليه بكشح نحيل هضيم ومخلخل ريان ملء ، وذلك حيث
 يقول فى تفصيل هذه الاوصاف البارعة المكلمة للوصفين السابقين ، قال

مهفهة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل (٤)
 كبرر المقاناة اليباض بصفرة غذاها نيمر الماء غير محلل (٥)
 تصد وتبدى عن أسيل وتبقى بناظرة من وحش وجرة مطفل (٦)
 وجيد كجيد الرثم ليس بفاحش اذا هي نصته ولا بمعطل (٧)
 وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعشك (٨)

(١) الغواية الضلال (٢) المرط ثوب من صوف أو خز ، ومرحل ذو زوائد كالتي فى
 الرحل (٣) بطن خبت موضع وأصله المتسع من بطون الأرض ، والحقاف الرمال ،
 والعقنقل المتراكم (٤) المهفهة الخفيفة اللحم ، وغير المفاضة غير المسترخية اللحم ، والترائب
 جمع تريبة وهى موضع القلادة له ، والسجنجل المرءاة (٥) المقاناة المخلوطة والبيت كله
 كناية عن وصف هو الدرة (٦) الحد الأسيل الذى ليس بكز ، ويروى عن شيت
 أى ثغر مفلج ، ووجرة مكان ، ووحشه المطفل ذو الطفل الذى لا يفتأ ينظر إليه
 (٧) الرثم الطيب الأبيض ، والفاحش السكرية المنظر ، والمعطل الخالى من الحلى ، ونصته رفعتة
 (٨) المتن ما عن يمين صلب الظهر وشماله ، والقنو الشمراخ ، والمتعشك الكشيف للتدلى

غدايره مستشزرات إلى العلا
وكشح لطيف كالجديل مخصر
وتعطو برخص غير شثن كأنه
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها
تضىء الظلام بالعشاء كأنها
إلى مثلها يرنو الحليم صباة
تسلت عمايات الرجال عن الصبا
ألارب خصم فيك ألوي رددته
تضل العقاص في مثنى ومرسل (١)
وساق كأنبوب السقى المذلل (٢)
أساريع ظي أو مساويك إسحل (٣)
نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل (٤)
منارة ممسى راهب مبتل (٥)
إذا ما اسبكرت بين درع ومجول (٦)
وليس فؤادى عن هواك بمنسلي (٧)
نصيح علي تعذاله غير مؤتل (٨)

فهل تراه ترك شيئا يحسن وصفه لدوى الحب المادى فلم يصفه مجيدا ، وقد جعلها مهفهفة وهى اللطيفة الخصر الضامرة البطن ، وجعل ترائبها فى الصقل والرونق كالمراءة ، وعاد فشبها بالدرة غذاها نمير الماء المحفوظ ، ثم أبقي على أسالة خدوها معرضة ومقبلة ، وأعطاهما عين بقرة مطفلة من بقار وجرة متقية ، كما أعطاهما جرد رُم يعشق لاعتداله ، وغير معطل لثراء صاحبه ، وفرع شعر كالفتحمة فى سواده وقنو النخلة فى غزارته ، وأنها قد نوعت لذلك بين أشكاله ، ثم جعل كشحها جديلا وساقها أنبوبا ، وأصابها أساريع ظي أو غصون أراك ، وأنها ربة نعمة ورفه يتمتع فراشها بفتيت المسك وتمتع هى بنوم الضحى ، ولم ينس أن يعقب هذه التفاصيل بجعلها فى مجموعها منارة راهب تبدد ظلام العشاء ، وأنها لذلك كله فتنة بصبو إليها الحليم ، وأنه لن يتسلى عنها إذا سلا غيره من يحب ، ولن يسمع فيها قول لائم مهما اشتدت خصومته ولم يقصر فى نصحه .

(١) الغداير الذوائب ومستشزورات مرتفعات . والعقاص مفردا هو المدوى وهو مثل الشوك تسلك به المرأة شعرها . وجمع عقيصه وهى خصلة تأخذها المرأة من شعرها فتعقدها وتلوها ثم ترسلها (٢) الجدیل سیور يتخذ منها الزمام . والسقى : النخل المسقى والمذلل الممتد الأقناء (٣) الرخص اللين وهو يريد البنان ، والشثن الكثر وأساريع ظي دود رمل . ومساويك إسحل أغصان شجر الأراك (٤) البيت كناية عن ترفها . ولم تنطق عن تفضل أى لم تخدم للعمل (٥٠٦٠٧) شرحت بالمعلقة (٨) ألوى شديد الخصومة فى لومه وغير مؤتل غير مقصر

وقال من لاميته يذكر الدبيب أيضا

سموت إليها بعد ما نام أهلها
فقلت سبائك الله إنك فاضحى
فقلت يمين الله أبرح قاعدا
حلفت لها بالله حلفة فاجر
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها
عليه القتام سيئ الظن والبال

وليس بعد هذا رفق في التحدث الى النساء والحكاية عن ترويضهن وإذلالهن
في عبارات تذوب رقة وتسيل تأثيرا .

وله من عينيته ذكر لهذا الدبيب كذلك ، خلص منه بعد أن أحسن وصفه ،
الى ماصار يراقبه من خلات العيش اذ ودع الصبا ، فاجاد في الغرضين وكأنه مهذاب الطريق
في تلك الخلات لما سبق لطرفة في معلقته منها ، ومع ذلك عكس الآية فكان وهو المتقدم ،
الجال عليها أربعا وكان طرفة وهو اللاحق الواقف منها عند ثلاث ، وهاهو ذا يقول
وقد تركنا وصف الدبيب لما سبق له من أمثال ، طمعا في المزيد من الحديث الى النساء
من تلك الخلات ، قال :

وأصبحت ودعت الصبا غير أنى
فمنهن قولى للندامى ترفقوا
ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا
ومنهن نص العيس والليل شامل
خوارج من بركة نحو قرية
أراقب خلات من العيش أربعا
يداجون نشاجا من الخمر مترعا (٤)
يبادرن سربا آمنا أن يفرعا (٥)
ييممن مجهولا من الأرض بلقعا (٦)
يمجددن وصلا أو يرجين مطعمعا

(١) جمع حول (٢) أبرح لا أبرح (٣) أسمحت زلت وطاوعت (٤) النشاج زق
الخمر يغلى ما فيه حتى يسمع له نشيج أى صوت (٥) ترجم تقذف (٦) نص العيس
استخراج أقصى ما عندها من السير .

ومنه سوف الخود بلها الندى يبرز عليها ريتى ويسوءها
تراقب منظوم التأم مرضعا (١)
بكاه فثنى الجيد أن يتضوعا (٢)
بعثت إليها والنجوم ضواجع
حذارا عليها أن تهب فتسمعا
فجاءت قطوف المشى هيابة السرى
يدافع ركنها كواعب أربعا
تقول وقد جردتها من ثيابها
كما رعت مكحول المدامع أتلعا (٣)
وجدك لو شيء أتنا رسوله
سواك ولكن لم نجد لك مدفعا
تصد عن المأثور بينى وبينها
وتثنى على السابرى المضلعا (٤)
إذا أخذتها هزة الروع أمسكت
بمنكب مقدم على الهول أروعا

فمن هذا النوع المترع فى الحديث إلى النساء، كان ابن أبى ربيعة يكرع كما كرع
من الديب ، حتى صار زعيم الغزل الأباحتى على ما ألعنا إلى ذلك قبل .
هذا على أن امرأ القيس ما كان ينبجو خلال هذه التخممة بالملذات من هجر يضطره
إلى المعاتبة والاستعطاف ، فيبلغ فى ذلك مبلغا يحلله الجانب العذرى من الحب محل
الرضا والاعتبار ، كأن يقول فى فاطمة المذ كورة (٥)

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فاجلى
وإن تك قد ساءت منى خليفة فسلى ثيابى من ثيابك تنسلى
أغرك منى أن حبك قاتلى وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عينك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل
وبعد فقد دفع به الديب الذى كان يقع منه ليلا - كما هو قوله فى تعرض الثرى خلال أبياته
السابقة - أن يعطف على ذكر الليل وطوله على ذوى الهموم ، فيصفه فى أبيات جاءت
على قلتها آية الاعجاز لمن حاول من الشعراء هذا الوصف بعد وإن أطل ، قال (٦)

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بانواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكل كل

(١) سوف الخود شم الحسان أى تقبيلهن (٢) يتضوع يتضور من البكاء أى يتلوى
(٣) المكحول المدامع ولد اللطيمة . والأتلع الطويل العنق (٤) السابرى الثوب
الجيد (٥) سبق شرح هذه الأبيات حيث الكلام على المعلقة .
(٦) وتقدم شرح هذه أيضا فى المعلقة

ألا أيها الليل الطويل الا انجلي بصبح وما الأصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت يئذبل
كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

فهو قد جعل الليل في شدة وطأته وإرخاء سدوله ، كموج البحر في تلاحقه
وشدة إطباقه ، وجعله في امتداده وطوله كالجمل ينوء بكلكله وقد تغطى بصلبه
وأردف أعجازه ، ثم يناديه أن ينجلي وإن بقي همه ، وإذ لم يجب يعجب لعدم انقضائه
كأن نجومه شدت بالمتين متى الحبال في يذبل ، وكان ثرياه وقد أمسكت عن الحركة
علقت بأمراس كتان إلى صم الجنادل .

ثم لم يرض أن يقف عندهذا الحد المشعر بخوفه واضطرابه ، حتى يبقى على شجاعته
ورباطه جأشه ، بوصف نفسه أنه قطاع أودية صحاب ذئاب إذ يعقب ذلك بقوله
وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالحليع الميعل (١)
فقلت له لما عوى إن شأنا قليل الغنى إن كنت لما تمول (٢)
كلانا إذا مانال شيئا أفاته ومن يحتر حرتي وحرثك يهزل (٣)

— الخيل والصيد —

وقد كان أحب شيء إلى نفس امرئ القيس بعد التغزل بالنساء اللهب بالخيول والصيد .
فكان لهذا ذاقية لكرائم الخيل ودراية بمحاسنها ومعرفة لأحوال الصيد ، إذ تلك
أمور تهواها نفسه ويتطلبها لهوه ، ومن ثم كان طبعيا أن يعالج في معلقته بعد الجانب
الغزلي وصفه للصيد بما يتقدم من وصف الخيل وما يعقب من النزول للراحة والأكل ،
١ - فمن حيث وصف الخيل لم يدع نعتا حسيا يعطى الفرس قوة وخفة إلا أفرغه
عليه ، فقد جعله ضخيم العظام يقوى بهيكاه على الشدائد ، أملتس الظهر يزل البدن عن
حال متنه كأنه مداك عروس أو صلابة حنظل ، خاصرتاه خاصرتا ظبي وساقاه ساقا
نعامة ، ثم هو عظيم الأضلاع طويل الذيل . وقد جعله في العدو عن ابتكار منه

(١) العير الحمار الوحشي ووجه الشبه الظلمة والأطباق على مافيه ، والحليع المقامر الذي لا يبالي
والميعل الكثير العيال (٢) لما تمول أى لما تصب ما تريد (٣) يريد من البيت أن
كليهما إذا نال من صاحبه شيئا استرده صاحبه منه ولذلك يكون كلاهما هازلا إذا حاول ذلك

لم يسبق إليه - قيد الأوابد شديد الاندفاع ، لافى كره وإقباله بل مثلهما في فره وإدباره ،
حتى لكأنه في كليهما صخرة حطها السيل من عل ، ثم هو إذا قرب فثعلب وإذا
أرخی فسرхан ، وهو إذا سار على الدبول كان اهتزامه كغلى القدر وإذا ونت
السباحات سح فكان في دره كخذروف الوليد ، يزل الخلف عن صهوته ويعنى الثقل
لشدته . وذلك كله حيث يقول .

وقد أغتدى والطير في وكناتها	بمنجرد قيد الأوابل هيكلا
مكر مفر مقبل مدبر معا	كجلود صخر حطه السيل من عل
كملت يزل اللبد عن حال متنه	كما زلت الصفواء بالمتنزل
يزل الغلام الخف عن صهواته	ويلوى بأثواب العنيف المثل
على الدبل جياش كان اهتزامه	إذا جاش فيه حميه غلى مرجل
مسح اذا ما السباحات على الونى	أثرن الغبار بالكديد المركل
دريز كخذروف الوليد أمره	تتابع كفيه بخيط موصل
له أبطالا ظبي وساقا نعامه	وإرخاء سرحان وتقريب تنقل
ضليع اذا استدبرته سد فرجه	بضاف فويق الأرض ليس باعزل
كأن على المتنين منه اذا انتحى	مداك عروس أو صلاية حنظل

ومن حيث النهوض للصيد ثم النزول بعده للراحة والأكل ، أجاد في المعلقة نعت
النعاج ، فجعلها في جمال ألوانها ورتوعها كالغذاري يدرن في ملائهن المذيل حول
الصنم «دوار» كأنهن العقد المفصل بجيد أصيل ذى ثراء ، وكأن هذا المنظر الجميل للنعاج
قد أغرى فرسه بالعدو من ورائهن فلحق بالهاديات ولما تتفرق الصيران ، وعادى
في آن بين ثور ونعجة فأدر كهما عن غير عرق ، وأقبل وقد علقت بنحره الأبيض
الدماء كعصارة الحناء في الشيب المرجل ، وحين نزل بما صاد جعل طهاة اللحم يطهونه
ما بين صفيف مشوى وقدير معجل ، ولم ينس إذ قاموا للرواح أن يبقى على الفرس
قوته وحسنه حتى إن الطرف ليقصر دونه ، وإنه لذلك قد أباته أمامه مسرجا ملجما ،
نزهة لعينه ومسرجا لفؤاده ، وهذا حيث يقول .

فمن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملاء مزيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه يجيد معم في العشيرة مخول
فألحقنا بالمهاديات ودونه جواهرها في حرة لم تزيل
فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكا ولم ينضح بماء فيغسل
كان دماء المهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل
فظهل طهارة اللحم ما بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل
ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه منى ماترق العين فيه تسفل
فبات عليه سرجه ولجامه وبات بعينى قائما غير مرسل

هكذا كان يصف امرو القيس الخيل والصيد لا يغفل عن تلك النواحي
الثلاث ، ولكنه لم يكن ليجعلها في مستوى واحد من حيث السعة والأشباع ، فكان
في كل قصيدة يميل إلى إحداهن فيبدي فيها دون الآخرين ضروبا من الأطناب
والافتتان

فبينا تراه قد أفاض وأطال في وصف الفرس دون الصيد والنزول كما أسلفنا في
المعلقة أو اقتصر عليه وحده كقوله في هذه الأبيات :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد عبل اليدى قبض
له قصر يا غير وساقا نعامة كفحل الهجان ينتحى للعضيض
يجم على الساقين بعد كلاله جموم عيون الحسى بعد الخيض
ذعرت به سربا تقيا جلودها كما ذعر السرحان جنب الربيض
ووالى ثلاثا واثنتين وأربعا وغادر أخرى في قناة رفيض
فآب إيابا غير نكد مواكل وأخلف ماء بعد ماء فضيض
إذا بك تراه قد أطل الأطلالة كلها في وصف الصيد دون الأمرين الآخرين ،
ممهداً لذلك بيت واحد في وصف الفرس ومقتصرا على بضعة أبيات في النزول من
القصيدة التي مطلعها :

ألا انعم صباحا أيها الربع فانطق وحدث حديث الركب إن شئت فاصدق

وقد أغتدى قبل العطاس بهيكل
بعثنا ربيثا قبل ذاك مخملا
فضل كمثل الخشف يرفع رأسه
وجاء خفيا يسفن الأرض بطنه
وقال ألا هذا صوار وعانة
فقمنا بأشلاء اللجام ولم نقد
نزاوله حتى حملنا غلامنا
كأن غلامى إذ علا حال متنه
رأى أرنبا فانقض يهوى أمامه
فقلت له صوب ولا تجهده
فأدبرن كالجزع المفصل بينه
فأدركن ثانيا من عنانه
فصاد لنا عيرا وثورا وخاضبا
فضل غلامى يضجع الرمح حوله
وقام طوال الشخص إذ يخضبونه
فقلنا ألا قد كان سيد لقانص
فضل صحابى يشتوون بنعمة
ورحنا كأنا من جواثا عشية
ورحنا بكان الماء يحجب وسطنا
وأصبح زهلولا يزل غلامنا
كأن دماء الهاديات بنحره
شديد مشك الجنب فعم المنطق
كذب الغضا يمشى الضراء ويتقى
وسائره مثل التراب المدقق
ترى الترب منه لاصقا كل ملصق
وخيطة نعام يرتعى متفرق
إلى غصن بان ناضر لم يحرق
على ظهر مساط كالصليف المعرق
على ظهر باز فى السماء محلق
إليها وجلاها بطارف مقاق
فيذكر من أعلى القطة فتزلق
يحيد الغلام ذى القميص المطوق
كغيث العشى الأقب المتودق
عداء ولم ينضح بماء فيغرق
لكل مهاة أو لأحقب سهوق
قيام العزيز الفارسي المنطق
خبوا علينا ظل ثوب مروق
يصفون غارا باللكيك الموشق
نعالى النعاج بين عدل ومشق
تصوب فيه العين طورا وترتقى
كقدح النضى باليدين المفوق
عصارة حناء بشيب مفرق

فأنت تراه بعد بيت الفرس قد انتقل الى بعث الربى المستور الذى كان
يمشى الهوينى فى شجر الضراء كذب الغضا متقيا أن يراه الوحش ، والذى كاد
يلصق جسمه بالتراب سافنا الأرض ببطنه غير رافع من شخصه سوى الرأس مبالغة

في ستره ، والذى جاء مخبرا أن هناك قطيعا من البقر وآخر من الحمر وثالثا يرتعى متفرقا من النعام ، فما إن سمع منه باعثوه ذلك حتى أسرعوا بأشلاء اللجام إلى فرس كغصن البان الناضر ، ولم يقودوه اليهم للعجلة منهم أو للاعزاز له ، وهنا كانت محاولتهم حمل الغلام عليه وقد صلب وامتد كعود الرحل الضامر ، فما إن علا الغلام وسط متنه حتى كان منه إلى الصيد على ظهر باز محلق في السماء ، ولقد ذكر عن فرسه هذا أنه صادف وهو يهوى في طريقه إلى القطعان أرنبا جلاها بطرفه الحديد فعز عليه ألا ينالها ، وحاول الغلام صرفه عنها إلى ما هو مراده فنبه — محافظة على نفسه — أن تلك محاولة إن أصر عليها منتجة لا محالة قذفه من أعلى القطاة ، فأولى أن يصوب ويصيد ، وأن ذلك الغلام أطاع وفعل ، ثم أسرع بالفرس إلى القطعان فأدبرن أمامه كأنهن الجزع المفصل بخيد ذلك الغلام ذى القميص المطوق ، فعدا وراءهن كالغيث المنهمر في العشاء فأدركهن ثانيا من عنانه ، وصاد من كل قطيع ما أراد في عداء واحد دون أن ينضح بماء ، ثم رجع وفي مصيده من كل نوع أشداؤه ، ففيه من الحمر العيرون والبقر الثور ومن النعام الظلم الخاضب ، إلى آخر ما ذكر عن الصيد والغلام وعما كان لهم في ذلك من الابتهاج ، ولم يذكرا الاشتواء إلا في بيت واحد كان لهم معه فيه اشتراك ، علي أنه قد عاد إلى الفرس في بيتين آخرين كأنه رد للعجز على الصدر مع بيت الابتداء .

فاذا بك تراه قد أطل في وصف النزول دون الأمرين الآخرين من القصيدة

التي مطلعها

خليل مرابي على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب
فقال

فقبلت لفتيان كرام ألا انزلوا فعالوا علينا فضل ثوب مطنب
ففشنا الى بيت بعلياء مروح سماوته من أحمى معصب
وأوتاده ماذية وعماده ردينية فيها أسنة قعضب
وأطنابه أشطان خوص نجائب وصهوته من أحمى مشرعب

فلما دخلناه أضفنا ظهورنا إلى كل حارى جديد مشطب (١)
 فظل لنا يوم لذيذ بنعمة فقل في مقبل نحسه متغيب
 كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب
 نمش بأعراف الجياد أ كفنا إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

فأنت تراه قد مهد لهذه الاطالة بوصف بيت مروح نزوله بعلياء فعالوا عليهم
 فضل الثياب المشدودة بالأظناب ، ولقد عمد إلى تكوين هذا البيت من أدوات قتال
 وزينة ، إشادة بشجاعة وسيادته ، فجعل أوتاده أسلحة ماذية ، وأعمدته رماحا
 ردينه ذات أسنة قعضية ، وأطنابه أشطان رواحل خوص نجائب ، وجعل صهوته وهي
 وسط سماوته أى سقفه من البرد المخططة المصنفة وهي الأتحمية المشرعة ، أما سائر
 السماوة فقد جعلها من البرد ذات العصائب ، وجعل مساند الظهور كل رحل ذى طرائق
 مشطب من نسج الحيرة ، وما أجمل تعبيره عن لذة ذلك اليوم برفاهيته ، وعن سعادة
 مقيله بغياب نحسه ، وقد انتزع في هذا المجلس ذلك التشبيه الخالد لعيون الوحش الملقاة
 حولهم ، فجعلها كالجزع غير المثقب ، ثم ذلك المعنى الطريف وهو مش الأ كف من دسم
 الشواء غير الكامل النضج بأعراف الجياد .

وكما شاءت حياة امرئ القيس أن يجيد وصف الخيل للطرده شاءت ولا سيما بعد قتل
 أبيه - أن يحيدده للحرب ، وإنه لما يلاحظ بين الوصفين أنه كان يعنى ذكورها فى الصيد
 وإنها فى الحرب ، لأن الصيد أحوج إلى القوة والعدو وهما فى الحصان أوفى منهما الفرس ، كما
 أن الحرب أحوج إلى المراقبة والمصاربة وهما فى الاناث أوفى ، ومن ذلك قوله موجزا :-

قد أشعد الغارة الشعواء تحملى جرداء معروقة اللحين مرحوب (٢)
 كأن صاحبها إذ قام يلجمها معد علي بكرة زوراء منصوب (٣)

(١) حارى نسبه سماعية إلى الحيرة

(٢) المرحوب الطويلة (٣) المعد الدلو العظيمة ، والبكرة خشبة المستديرة

إذا تبصرها الرءاون مقبلة لاحت لهم غرة منها وتجييب (١)
وقافها ضرم وجريها جذم ولحمها زيم والبطن مقبوب (٢)
واليد سابحة والرجل ضارحة والعين قاذحة والمتن ملحوب (٣)
والماء منهمر والشد منحدر والقصب مضطمر واللون غريب (٤)
كانها حين فاض الماء واحتفلت صقعا لاح لها في المرقب الذيب (٥)
ومنه قوله مطيلا ومفصلا وفيه إبداع .
وأركب في الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر
لها حافر مثل قعب الوليد ركب فيه وظيف عجر
وساقان كعباها أصمعا ن لحم حمايتها منبت
لها عجز كصفاة المسب ل أبرز عنها جحاف مضر
لها متنتان خطاتا كما أكب على ساعديه النمر (٦)
وسالفة كسحوق اللبا ن أضرم فيه الغوى السع
لها عذر كقرون النسا ء ركب في يوم ريح وصر
لها جبهة كسراة المحن م حذقه الصانع المقدر
لها منخر كوجار الضبا ع فمه تريخ إذا تنبهر
لها ثنن كخوافي العقاب ب سود يفثن إذا ترثر
وعين لها حدره بدره تشق ماقيهما من آخر
إذا أقبلت قلت دبابة من الحضر مغموسة في الغدر
وان أدبرت قلت أنفية مللمة ليس فيها أثر
وان أعرضت قلت سرعوفة لها ذنب خلفها مسبط
وللسوط فيها مجال كما تنزل ذو برد منهمر

(١) التجيب ارتفاع يياض التحجيل إلى الركبة (٢) الضرم الالتهاب، والحذم السرعة
والزيم المتفرقة، والمقبوب الضامر (٣) سابحة عائمة أو ضارحة راححة، وقاذحة ملتبهة
وملحوب أملس (٤) القصب الظهر (٥) الصقعا الظبية (٦) خطاتا مثني حذفت نونه للضرورة.

وتعدو كعدو نجاة الظبا ، أخطأها الحاذق المقتدر
لها وثبات كصوب السحا ب فواد خطاء وواد مطر

فالحيفانة الفرس السريعة الخفيفة، وقد انصرف كرايت يصفها ويشبهها حتى لم يبق في الأمرين مجالا لوصف أو مشبه ، فبدأ بوصف خالف فيه المعروف المتداول من تجريد الوجه وتعريقه فجعله مكسوا بشعر ناصيتها المنتشر كأنه السعف حتى خطأ بعض النقاد ، على أنى قد أرى له في الأمور وجهها قصد اليه وهو جعل هيئة الوجه مروعة مفزعة تتلاءم وحال الروع والحرب ، كوجه الشجاع الكمى الذى لا يبدو منه الا العيان ، ثم انتهى بعد هذا البدء الذى بررناه الى جعل حافرها فى صغره واستدارته وصلابته وملاسته كقدح الوليد ، وأن ذلك الكعب قد ركب فيه وظيف صلب وهو ما بين الحافر والساق ، ولصلابة هذا الموطن من الفرس أثره المحمود، والى جعل كعبى الساقين صغيرتين مع صلابة لحم الحماية ، وبمثل هذا الاكتناز والا نبتار وصف متنيها فجعلهما كساعدى النمر اذا أكب عليهما ، وما أوقع تشبيهه عجزها فى استوائه واكتنازه وملاسته بالصفاء مكثت فى المسيل طويلا ثم أبرز عنها سيل جفاف ، ومن هنا أخذ يبدع فى التشبيهات المتلاحقة ، فشبّه سالفتها فى الطول واللون بالطويلة من النخل يضرم فيها النيران غوى ، وشبه معرفتها فى ضفوها واسترسالها بدوائب النساء المعارة ركن فى يوم ريح وصر ، وشبه جبهتها فى صلابتها وانبساطها يظهر الترس صنع الحاذق المقتدر ، وجعل لها وجار الضباع فى سعته منخرا تريح منه ، وخوافى العقاب فى صغرها واسودادها ثلنا إذا غضبت ينتشرن ، والثين شعرات فى مؤخر الرسغ ، ثم جعل عينيها حادتين فى استدارة كاستدارة البدر ، ومؤخرتين فى شق ما قيهما إلى الأذنين ، وبعد هذا كله أقبل على نوع من التشبيهات المقيدة بحالات ، فقال ، اذا أقبلت كانت فى طول العنق ودقة المقدم والنضارة كالقرعة المغموسة فى العدر ، واذا أدبرت كانت فى استدارة مؤخرها وملاسته واجتماعه كالأنفية الخالية من أثر ، فاذا ما أعرضت كانت فى امتدادها وقلة لحمها جرادة يزين هذا الامتداد منها ذيل طويل خلفها ، ثم جعلها مع هذا جميعا ذات حرارة تخاف من أجلبها السوط ، فتسير كتنزل

البرد ، وذات عدو كعدو الأطباء تنجو من حاذف مقتدر ، وأنها فى وثباتها كصوب
السحاب المسرع الذى يخطئ بعض الأودية لشدة سرعته .

على أن أمراً القيس كان يجمع فى بعض قصيده بين وصف الخيل للصيد ووصفها
للحرب ، غير مراعى للتفرقة السابقة كما فعل فى لاميته « ألام صباحاً أيها الطل البالى »
فانه بعد أن تحدث عن زوج معشوقته حديث شجاعة فيه تهديد وعدم مبالاة ، قال :

فأصبحت معشوقاً وأصبح بعليها	عليه القتام سيء الظن والبالي
يغط غطيظ البكر شد خناقه	ليقتلنى والمرء ليس بقتال
أيقتلنى والمشرقى مضاجعى	ومسنونة زرق كأياب أغوال
وليس بذى رمح فيطعننى به	وليس بذى سيف وليس بنبال
وقد علمت سلمى وإن كان بعليها	بأن الفتى يهذى وليس بفعال
كأنى لم أركب جواداً للذة	ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل	لخيلى كرى كرة بعد إجفال
ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحى	على هيكل نهسد الجزارة جوال
سليم الشظى عبل الشوى شنج النساء	له حجبات مشرفات على الفال
وصم صلاب ما يقين من الوجى	كأن مكان الردف منه على رال
وقد أغتدى والطير فى وكناتها	لغيث من الوسمى رائده خالى
تحاماه أطراف الرماح تحاميا	وجاد عليه كل أسحم هطال
بعجالة قد أترز الجرى لجمها	كميت كأنها هراوة منوال
ذعرت بها سرباً تقيا جلوده	وأكرعه وشى البرود من الحال
كأن الصوار إذ تجهده عدوه	على حمزى خيل تجول بأجلال
فحال الصوار واتقين بقرهه	طويل القرا والروق أخنس ذيال
فمادى عداء بين ثور ونعجة	وكان عداء الوحش منى على بال
كأنى بفتحاء الجناحين لقوة	صيود من العقبان طأطأت شمال
نخطف خزان الشرية بالضحى	وقد جحرت منها ثعالب أورال
كأن قلوب الطير رطبا ويابسا	لدى وكرها الغناب والحشف البالى

فانظر اليه كيف مهد لما يريد من وصف الخيل للغارة والحرب معا بيتين فذین ،
قارنا إلى ركوب الخيل للصيد تبطن السكعب ، والى ركوبها للحرب إغلاء الزقاق ،
وجامعا بذلك بين أربع لذات صارت مثلا يحمد لمن يحتذيه ويؤاخذ من يخالفه كما
سنين آخر المقال ، ولقد خرج من هذا الاجمال إلى التفصيل يقول عن ماضيه ،
إنه كثيرا ما شهد الخيل المغيرة بالضحا على حصان ضخم الجسم نهذ العنق سليم عظم
الركبة وبل الأطراف منقبض النسا مشرف عظام الوركين على لحمها مشرف القطاة
وهي مقعد الردف على ما حولها كأنها منه على فرخ نعام ، ثم هو ذو حوافر
صم صلاب لا يتأثرن من حفا ، ويقول إنه كثيرا ما يغتدى والطير في وكناتها الى
نبت جاده السحاب الوسمى وقد عز وخلا من الرواد على فرس خمرة اللون ضلبة
الأعضاء قد أيس العدو من لحمها ، حتى لكأنها في ذلك وفي امتداد طولها عصا منوال
وقد ذعربها سربا نقي الجلود يخال با كرع كأنها في اللون وشى البرود فجفل أمامها
واتقى بثوره الاخنس طويل القراو الذيل والقرون ، فلم يجده ذلك فتجهد في عدوه على
الصلب من الأرض كأنه الخيل الجائلة خفيفة الأجلال ، فعادت فرسه عداء واحدا بين
ثور ونعجة فأصابتهما على تهمم منه وبال ، وكان اذ يخذها بفخذها للعدو كأنه منها على عقاب
لينة الجناحين سريعة صيود لاتزال تخطف الذكور من أراب الشرية وتجتحر خوفا منها
ثعالب أورال بعد أن تفتى ما بهذين المسكين من طير تترأكم قلوبه لدى وكرها ما بين رطب
كانه العناب ويابس كالخشف البالى ، وليس بعد إبداعه في هذا التشبيه المزدوج إبداع .
هذا وبيانا لمكانة بيتيه السابقين

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخلي كرى كرة بعد إجفال

نقول — والفضل لايثين الاعلى السنة النقاد — إنهم قالوا كان ينبغي أن يخالف
فيهما فيجعل كرى الخيل مع ركوب الجواد ، وتبطن السكعب مع سبي الزقاق حتى
يقرن الجد بالجد واللهم باللهو ، ولعلمهم تأثروا في ذلك بهذين البيتين لعبد يغوث

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل لخلي كرى تقسى عن رجاليا

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا

ولكن امرأ القيس كان أشد مراعاة للائتلاف من عبد يغوث ومن النقاد ، فان

التلاؤم أوثق بين تبطن السكائب وركوب الجواد للصيد ، وهو كذلك بين شراء الخمر والقتال ، حتي يضم إلى كل لهو وجد يناسبه ، فألى تبطن السكائب فتوة الصيد ولهذا مكانته عند النساء ، وإلى شراء الخمر كرما ، كر الخيل شجاعة وكلاهما من الجود وإلى الجود . ولقد وقع للمتنبى من سيف الدولة مثل هذا النقد الظاهري فأجابه المتنبى بما نصر فيه نفسه وانتصر فيه لامرئ القيس وأقره سيف الدولة عليه ، ذلك أن المتنبى حين أنشده هذين البيتين

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردي وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك واضح وثغرك باسم
أنكر عليه ذلك وقال ينبغي أن تطبق عجز الثاني على الأول وعجز الأول على الثاني حتي لا تكون كامرئ القيس في قوله

كأنى لم أركب جواد اللذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخلي كرى كرة بعد إجحاف
فقال المتنبى أدام الله سبحانه وتعالى عز مولانا ، إن صح أن الندى استدرك هذا على امرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأنطأت أنا ، ومولانا يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك ، لأن البزاز يعرف جملة وتفصيله ، إذ أخرجه من الغزلية إلى الثوبية ، وإنما قرن امرؤ القيس لذة تبطن السكائب بلذة الركوب للصيد ، وقرن السباحة في شراء الخمر للاضياف بالشجاعة في منازل الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت أول البيت أتبعته بذكر الردي ليجانسه . ولما كان وجه المهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا وعينه من أن تكون دامعة باكية قلت ووجهك واضح لأجمع بين الأضداد في المعنى ، فأعجب سيف الدولة بجوابه وزاد في جائزته .

وأخيرا تعرض امرؤ القيس آخر معلقة لوصف السحاب والغيث في أحد عشر بيتا بدأها بوصفه شكلا ولونا ، انتقل إلى وصفه قوة سح وشدة آثار ، ثم ختمها بعدة تشبيهات في تلك الآثار أبدع فيها ما شاء له الخيال .
قال يصفه شكلا ولونا

أصاح ترى يرقا أريك وميضه كلمع اليدين في حبي مكلل
يضىء سنه أو مصايح راهب أهان السليط في الذبال المقتل
قعدت وأصجابى له بين ضارج وبين العذيب بعد مامتألمي

فجعلله حبيا مكلا والحي المعترض الذي سد الأفق وأطبق عليه أو هو البطيء المر لثقل مائه فهو يحب ولا يكاد يسير ، والمكمل الذي ترا كبت قطعه بعضها فوق بعض فاعتكر لونه وبان سواده . ثم عمد إلى برقه الذي كان يومض في هذه الظلمة ويغتنق ، فجعل وميضه في سرعته كلمع اليدين ، وهو حركتهما من منذر أو مبشر وشأن هذين أن يواليا الحركة ويسرعا فيها ، وكلا أسرع البرق في سحاب كان ذلك أدل على كثرة مائه وقرب هطوله ، حتى لقد كانوا إذا عدوا له اثنتين وسبعين لمعة أيقنوا أن الماء في أثرها ، ثم جعل سناه في شدة ضوئه مصابيح راهب لم يضمن بالزيت على ذبالها المقتول ، وكل ذلك يورث الضوء قوة وشدة لمعان ، فان مصابيح الرهبان دائما مجلوة ، وإهانة السليط وهو الزيت بالصب على ذبالها أكثر إمدادا لها ، وتفتيل الذبال يجعل سريان الزيت فيها أسرع وأغزر ، وبعد هذين الوصفين لم رأى السحاب أمامه انقتل يقول إنه قعد هو وأصحابه يتأملون امتداده بين ضارج والعذيب ويعجبون لتناوله هذين المكانين على بعد ما بينهما قائلين يابعد ما يتأملون .

وقال في قوة سحبه وشدة آثاره :

فأضحى يسح الماء عن كل فيقه يكب على الأذقان دوح الكنهيل
على قطن بالشيم أين صوبه وأيسره على الستار فيذبل
وتماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطما إلا مشيدا بجندل
وألقى بصحراء الغيظ بعاهه نزول الهاني ذي العياب الحمل

فاختار أن يكون سحابا يكف ساعة ويقف ساعة ، ثم يعود إلى السح من جديد كدر اللبن يأتي شديدا عن كل فيقة ، وهى الفترة بين الحلبتين ، وإذا كان السحاب على هذه الحال من الهبوب والسكون ثم الهبوب بعد ، كان مظهره أشد وكان سيله أقوى وأمر ، ولهذا أسند إليه قوة تكب الى الأذقان العظيم من أشجار الكنهيل على ضخامة هذا الشجر جملة وهو لن يصل بأعاليها الى الأرض كبا إلا إذا اقتلع جذورها من الأصول اقتلاعا ، وليس أدل على عظمة السيل من أن يأخذ في طريقه مع ما أخذ من أرض ، ما قام عليها من أمثال هذه الأشجار أخذا ، ولم ينس وقد جعل امتداده قد طبق الأفق آنفا ، أن يمتد بصوبه فيقال ما تباعد من الأرضين فاذا شتمه بمنة ألقته على قطن ساقطا ، وإذا ما تلفت إليه يسرة وجدته على الستار ويذبل واقعا ، وهى جبال ثلاثة متباعدة الوضع طويلة الامتداد ، وسحاب هذا

شأنه في سعة أفقه وقوة صوبه جدير أن يندفع سيله إلى متابعد من مصابه ، وهكذا كان سحاب امرئ القيس فقد تجاوز سيله ما ذكرنا من أما كن الى تيماء فقعر جذوع نخيلها وهدم بناء أطمها ، ثم استقر بعاهه وهو ثقله - وماتقل السحاب الاماؤه - في صحراء الغبيط فاهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج ، فكان بما نشر فيها من ضروب النبت وصنوف الأزهار كالسحاب اليماني يخط رحاله فينشر من عيابه الثقيلة أنواعا من الثياب مختلفة الألوان ، وللمن شهرة قديمة في وشى الثياب وزخرفتها ، وهذا التشبيه بارع أمده خيال خصب جعله ينطلق إثرة في واد من التشبيهات كما أشرنا سابقا وذلك حيث يقول :

كأن ثبيرا في عرانيں وبله كبير أناس في بجاد مزمل
كأن ذرا رأس المجمر غدوة من السيل والغشاء فلكة مغزل
كأن مكاكى الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مففل
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوي أنايش عنصل

وثير جبل قد انهالت عليه أوائل الويل وهى عرانيه فبدلت من سواده بياضا وتراكت عليه ترا كما ، فصار بما أحاط به من ماء غزير وما ظهر من أعلاه بعيدا عن هذا الماء كالشيخ يتزمل بالمخطط من الثياب وهى البجد ، وإنما جعله شيخا ليخاف البرد ويكثر التدثر ، وجعل الملابس بجدا لأن الماء لم يخط بالجبل صافيا وإنما حمل معه ما حمل من أنواع نبات علته وطفته عليه فكانت كخطوط هذا النوع من الثياب . أما المجمر وهو جبل أقل من ثير سموخا فقد أخذ الماء فى علوه وارتفاعه بخناق رأسه فاستدار حوله وغشاء بما حمل معه من غشاء أحاط به فكان كفلكة المغزل ، وهذا تصوير بارع لحظ فيه امرؤ القيس ما ذكرنا ، وتخير فلكة المغزل دون غيرها مما قد يصلح للتشبيه هنا لصغرهما حتى إذا ما ظهر رأس المجمر بهذا الصغر أيضا كان ذلك أدل على عظمة السيل واستبحاره وارتفاعه ، وقد انبرى من هذين التصويرين إلى آخرين يفوقانها تخيلا وإبداعا ، فأما الأول فهو تصويره المسكاكى وهى طيور صغيرة ذات صغير قد أخذ منها الفرخ صبيحة هذا الغيث كل مأخذ ، فجعلت تسكر الطيران ذاهبة جاثية صاعدة هابطة وهى فى كل ذلك تتشابه وتسكّر من الصغير والتغريد اجتلاء لهذا الأفق السمع وتمتعا بتلك الطبيعة

الصافية فكانت كأنها سقيت الصفو من جيد الحجر صباحا فانتشت لذلك وزاد نشاطها ، ثم كان ذلك الرحيق مقللا فشخذ ألسنتها وأثر فيها ، فهي لذلك قد علا صوتها وملا الجو صياحها ، وأما الثاني فهو تصويره ضواري الوحوش وقد وصل السيل في ارتفاعه إلى أكنانها فطفى عليها وأغرقها ، ثم احتملها معه غائرة الجسوم بادية الأطراف ، فانتشرت بأرجائه وطففت عليه كالعنصل وهو البصل البري يقتله السيل ويحمله وبأصوله آثار من الطين ، فهي عنده وتلك السباع سواء في صغر المرأى ، وما كان أدقه قاتله الله ؛ إذ اتخذ العدو لحركة المكاكي والعشية لطفوا السباع ، فإن أكثر ما تنشط الطير تنشط غدوة وصباحا ، وأشد ما يبدو الاستسلام يبدو حيث تنعدم المقاومة عشية ومساء .

هذا وما كان إبداع امرئ القيس في وصف السحاب والغيث مقصورا على ما ذكرنا في معلقته ، فانه تناوله في غيرها محسنا ومجيدا ، وهذه رائية له يصف فيها ديمة بدأت متقطعة ثم اشتدت متتابعة ، والديمة السحابة تمطر في سكون ، دون أن ترى برقاً أو تسمع رعداً ، فاستمع اليه يقول :

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر
فترى الود إذا ما أشجذت وتواريه اذا ما تعتكر
وترى الضب خفيفا ماهرا ثانيا برثنه ما ينعفر
وترى الشجرء في ريقها كراءوس قطعت فيها خمر
ساعة ثم انتحاها وابل ساقط الأكناف واه منهمر
راح تمرية الصبا ثم انتحى فيه شؤبوب جنوب منفجر
لج حتى ضاق عن آذيه عرض خيم فحقاب فيسر

فعنى أول ما عنى بوصفها في ذاتها ، فجعلها هطلاء ذات ثقل في سيرها ، وجعل فيها وطفا وهو التدلى والاسترخاء والامران لكثرة مائها ، كما جعلها طبق الأرض لسعة امتدادها ، ثم انتقل إلى درها فقال إنها تتحرى وتدر وفي التحرى تريث وقصد ، فاذا أشجذت أى أقلت رأيت الود — وهو جبل بشرق نجد — باديا واذا اعتكرت واسترسلت أخفته في غيرتها واعتكارها وسيلها ، ولكنها مع ذلك الاقلاع العارض لها ، تصعد بمائها من المطمئن الى المرتفع ، حتى لترى الضباب على تعالى أجحارها نانية

أ كفيها للسباحة والعموم غير واجدة من الارض المنكشفة ما يعفر جسومها ، وحتى لترى الاشجار المجتمعة قد غمرت سيقانها فلم يبق باديا إلا أعاليها ، والغشاء من حولها كأنها رءوس قطعت وفيها خمرها ، وكلا المعنيين لا يتأتى الا لغواص على المعانى ملاك للخيال ، هكذا دامت الديمة ساعة ثم تحولت في الشدة إلى وابل سقطت أ كفاف سحابه فضعف ووهى وانهمر ماؤه ، وما أدق مسلكه في تصوير هذا الضعف فيه إذ يقول إن ريح الصبا راحت تمر به وتمسحه لتستدر ماءه كما يفعل الحالب المبس ، حتى إذا ما هبط الماء إلى أسافله كما ينزل اللبن إلى الضرع ، تعبه شؤبوب جنوب منفجر فما زال يلج في انفجاره حتى ضاق عن موجه عرض هذه الاماكن الثلاثة التي ذكر على عظيم رحابها واتساع آفاقها ، فهذه مقطعة من غير المعلقة ، وعلى ما فيها وفي المعلقة كان ينسج امرؤ القيس في وصف السحاب والغيث

بهذا الذي ذكرناه من النواحي الثلاث للوصف في شعر امرئ القيس - نعى ناحية المرأة وناحية الصيد وناحية الغيث - نعلم مكانه في الوصف وأنها في الذروة والهيمنة منه كما نعلم مكانه الوصف في الشعر العربي الجاهلي وأنها الأصل وسواها الفرع ، وذلك لأنه أحفلها مادة وأبعدها مدى وأدقها متناولا ، ومن الأسف أن يحى انصراف الباحثين عنه بقدر ماله من مكانة فيبقى مغمورا غير معروف ، ولم يك هذا الانصراف عنه لغيب فيه ، وإنما كان لأنه تناول أمورا بدوية بعدت إلى قدر ما عن أمور الحضرة ، ومن ثم هجرت أغراضه فاستغلت معانيه واستعجمت ألفاظه ، وما ذنب العرب جاهليتها في ذلك حتى ننسي أهم فنونها فيند عنا كثير من آيات حذقها وعبقريتها ، وإذا قلنا عن الوصف إنه أهم فنون العرب كان سندنا في ذلك ، أنه لم يدع في بيتهم شيئا محسا دون وصف ولا في عرفهم شيئا من عقيدة أو عادة دون كشف ، كما لم يدع خلقا من أخلاقهم دون ذكر ولا وجدانا من وجداناتهم دون نشر ، وليس ينقصه إلا أن تقدم علي خدمته ونشره ، ففيه نواح لازالت في حاجة إلى الخدمة ، ومواطن تتطلب أن يكشف عنها وتسترد ، حتى تزيل عن جوهره صدا السنين وتنفض عن مكنونه غبار الليالي والايام .

شعره بعد مقتل أبيه

أظننا لا نجد في شعراء العصر الجاهلي شاعرا كأمريء القيس ، قد اختلف شطرا حياته اختلافا باين بينهما ، من تملك وسلطان إلى خضوع وهوان ، ومن وجدوسعة إلى ضنك وفاقة ، ومن عزة وهيبة إلى مذلة ورهبة ، ومن غير ذلك إلى غير ذلك ، مما جعل شطر حياته الثاني شخصا غير شطره الأول ، ولذا جاء شعره بعد مقتل أبيه مشا كلا لهذه الحياة الجديدة بقدر مخالفته لحياته الأولى ، فعدل فيه عن تلك الأغراض السالفة من النساء والديب والحيل والصيد والسحاب والغيث ، وما يحوم حولها ويتسق وتيارها ، في كل ما تنتظمه حياة اللهو واللعب ، النائية بأصحاب ذوى عزة ويسار عن مهام الجد ومشاكل المسؤولين ، إلى أغراض أخرى أولها الأحساس بالتبعة قد أُلقيت على عاتقه في الأخذ بشار أبيه ودأبه في سبيل ذلك ، وإصابته حلاوة النصر يتذوقها حيننا ومرارة الهزائم يتجرعها أحيانا ، ثم اتهاؤه من كل ذلك إلى أن يصبح هائما على وجهه مفرعا مطلوبا ، يقصدها فيصده ويطلب على ذاك فيضمه وعماقليل يلفظه ، حتى نبت به الجزيرة على رحبها ، فخرج يستنجد قيصر الروم ، وفي عودته من لدنه خائبا وافاه أجله بعيدا عن وطنه وأهله ، وهو من أجل ذلك كله عرف كيف يشكو الأيام ويعتبتها وكيف يرحل النوق ويصفها ، وكيف يمدح مسعدا ويهجو خاذلا ، وكما اشتدت به وطأة الأيام يعرف كيف يتذكر ماضيا منعما فيتلهف ، وحاضرا مؤلما فيتحرق ، في أسلوب من الشعر قلت جزالته وتطامن عزته ، اللهم الا في بدء هذه الحياة الثانية حين هم بأخذ الثأر ، وفي خلالها كلما حظى بظفر النصر . ففنونهم إذن كانت الوعيد والتهديد والتحمس والتفاخر ، وكانت المدح والشكر والاعتابة والهجو ، ثم كانت شكوى أيام جارت وتذكر عزة زالت ، فكانها ثلاث نواح حاضرة تقابل ثلاثا غابرة .

وهذا بعض ما قال في كل منها : —

— الوعيد والتهديد والتحمس والتفاخر —

- ١ — قال يتوعد بني أسد وقد هم بأخذ الثأر، وفيها لما تقدم قوة
- تطاول ليلك بالأثمَد ونام الخلى ولم ترقد (١)
- وبات وباتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمَد (٢)
- وذلك من نبأ جاءني وأنبئتُه عن أبنى الأسود (٣)
- ولو عن ثنا غيره جاءني وجرح اللسان كجرح اليد (٤)
- لقلت من القول ما لا يزا ل يؤثر عني يد المسند (٥)
- بأي علاقتنا ترغبو ن أعن دم عمرو على مرثد
- فان تدفنوا الداء لا تخفه وإن تبعثوا الحرب لا تقعد
- وإن تقتلونا تقتلكم وإن تقصدوا لدم تقصد
- مق عهدنا بطعان السكا ة والمجدو الحمد والسودد
- وبني القباب وملء الجفا ن والنار والخطب الموقد
- وأعددت للحرب وثابة جواد المحثة والمروود (٦)
- سبحا جموحا وإحضارها كمعمعة السعف الموقد (٧)
- ومطردا كرشاء الجرو رمن خلب النخلة الأجرد (٨)
- وذا شطب غامضا كلمه إذا صاب بالعظم لم ينأد (٩)
- ومسرودة السك موضونة تضاءل في الطي كالمبرد (١٠)
- تفيض على المرء أردانها كفيض الآتي على الجدجد (١١)

(١) الأثمَد موضع باليمن (٢) العائر العور (٣) رجل من كنانة (٤) النثا الحديث (٥) يد المسند أبد الدهر (٦) جيدة الأسراع والامهال (٧) السبوح السهلة في سيرها والجروح الصعبة على راكبيها وإحضارها ارتفاعها في عدوها والمعقة صوت الحريق (٨) المطرد الرمح ورشاء الجرر دجل البئر ، وخب النخلة ليفها والأجر الأملس (٩) ذو الشطب السيف وشطبه طرائق لمعانة والسكلم الجرح ولم ينأد لم يثن (١٠) مسرودة السك محكمة التسج والموضونة المنظومة يعني الدرع ، والمبرد معروف أي تصوير مثله في الصفر وغيره مما يشبه فيه الدرع (١١) الأردن أصول الأكام والمقصود الأطراف ، والآتي الجدول والمسيل ، والجدجد الأرض الصلبة

- ٢ — ومن فخره وقد نال بعض شفائه من بنى أسد قوله « يادار ماوية بالحائل »
وقد تقدمت حيث الكلام على نشأته وحياته وفيها قوة أيضا .
٣ — ومما يجري هذا المجرى وفيه لوم لسبيع بن عوف ، وكان قد لامه على التشدد
في الثأر وعرض به ، قوله .

أبلغ سبيعا إن عرضت رسالة أتى كظنك إن غشوت أمامي (١)
أقصر إليك من الوعيد فاني مما ألقى لا أشد حزامي (٢)
وأنا المنبه بعد ما قد نوموا وأنا المعالن صفحة النوم (٣)
وأنا الذي عرفت معد فضله ونشدت عن حجر بن أم قظام (٤)
خالي ابن كبشة قد علمت مكانه وأبو يزيد ورهطه أعمامي (٥)
وإذا أذيت ببلدة ودعتها بل لا أقيم بغير دار مقام (٦)
وأنازل البطل الكريه نزاله وإذا أناضل لا تطيش سهامي

— المدح والشكر والمعاتبة والهجو —

- ١ — قال يهجو بنى حنظلة في جميع أحيائهم .

أبلغ بنى زيد إذا ما لقيتهم وأبلغ بنى لبني وأبلغ تماضرا
وأبلغ ولا تترك بنى ابنة منقر أفقرهم إني أفقر ثابرا (٧)
أحنظل لو كنتم كراما صبرتم وحطم ولا يلقي التيمي صابرا

- ٢ — وقال يعرض بهم وهو يمدح بنى عوف رهط عوير بن شنجة إذ أجار أخته
وقطينها وأبلغهم مأمهم من قومهم ، ولم يفعل ذلك بنو حنظلة .

إن بنى عوف ابتنوا حسبا ضيعه الدخلاون إذ غدروا (٨)
أدوا الى جارهم حقارته ولم يضع بالمغيب إذ نصروا

- (١) غشوت دخلت (٢) لأشد حزامي لأبالي ولا أهتم (٣) المعالن المكاشف
(٤) حجر أبوه (٥) ابن كبشة كليب ، ويزيد من أعمامه (٦) أذيت نالني أذى
(٧) أفقرهم أحز أنوفهم وأصله للبعير حتى يبلغ العظم ، وثارا حابسا لهم على الذل
(٨) الدخلة المباطن غير المظاهر أى المنافق

لم يفعلوا فعل آل حنظلة إنهم جبر بئس ما اتتمروا
لا حميرى وفى ولا عدس ولا است غير يحكمها الثفر (١)
لكن عوير وفى بدمته لا عور عابه ولا قصر

٣ — وفى هذا يقول أيضا مادحا بنى عوف :

ألا إن قوما كنتم أمس دونهم هم منعوا جارائكم آل غدران
عوير ومن مثل العوير ورهظه وأسعدني ليل البلبل صفوان
ثياب بنى عوف طهاري نقيه وأوجههم عند المشاهد غران (٢)
هم بلغوا الحى المضلل أهله وساروا بهم بين العراق ونجران
فقد أصبحوا والله أحفاهم به أبر بايمان وأوفى بايمان

(٦، ٥، ٤) ومن مدائحه وشكره ما تقدم منه لسعد بن الضباب الأيادى فى قطعتين عرض
فيهما بهجو هانىء بن مسعود الشيباني لقبول الأول إجارته بعد رفض الثانى ،
وكذلك ما كان منه مدحا فى الملى التيمي ، وذلك حيث الكلام على نشأته

وحياته

٧ — ومن مدائحه أيضا قوله يمدح بنى ثعل وكان قد نزل بهم فكانت له فيهم إبل ذات
ألبان .

واثعلا وأين منى بنو ثعل ألا جبدا قوم يحلون بالجبل
نزلت على عمرو بن درماء بلطة فيا كرم ماجار ويا حسن ما فعل (٣)
تظل لبونى بين جو ومسطح

تراعى الفراخ الدارجات من الحجل (٤)

وما زال عنها معشر بقسيم يذودونها حتى أقول لهم بجل (٥)
فأبلغ معدا والعباد وطيثا وكندة إني شاكر لبني ثعل

(١) الثفر السير فى مؤخر السرج (٢) الغران جمع غرير وهو الخلق الحسن .
(٣) البلطة البرهة أو الدهر (٤) اللبون التوق ذوات اللبى ، وجوو مسطح موضعان
والجبل طائر (٥) بجل كلمة بمعنى حسب

٨ — وقال فيهم أيضا :

أحلت رحلى فى بنى ثعل إن الكرىم للكرىم محل
وجدت خير الناس كلهم جارا وأوقاهم أبا حنبل
أقربهم خيرا وأبعدهم شرا وأسخاهم فلا ييخل

٩ — وقال وقد كثرت إبله فى جوار قيس وزهير ابنى سلامان :

أرى إبلى والحمد لله أصبحت ثقلا إذا ما استقبلتها صعودها (١)
رعت بجبال ابنى زهير كليهما معاشيب حتى ضاق عنها جلودها

١٠ — ومنها قوله يمدح طريف بن ملء الطائى :

لنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره طريف بن ملء ليلة القر والحصر
إذا البازل الكوماء راحت عشية تلاوذن صوت المبسين بالشجر (٢)

— شكوى أيام جارت وتذكر عزة زالت —

١ — من ذلك قوله يذكر ما يستقبله من موت ويعتذر بماضيه عما أصابه فى
حاضره متأسيا فى ذلك بأسلافه

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب (٣)
وكل مكارم الأخلاق صارت إليه همى وبه اكتسابى
فبعض اللوم عاذلتى فانى ستكفينى التجارب وانتسابى

(١) كناية عن سمن الأبل إلى درجة تثقلها إذا ما حاولت الصعود

(٢) البازل القوية . والكوماء : العظيمة السنام وتلاوذن تلوذ وتلجأ ، والمبسون الملائفون بالأيساس تأنيسا قبيل النجر

(٣) موضعين مسرعين ، ونسحر نلهى عما هو مصيرناه

إلى عرق الثرى وشجت عروقي وهذا الموت يسلبني شبابي (١)
وتنقى سوف يسلبني وجرمي فيلحقني وشيكا بالتراب (٢)
ألم أنض المطي بكل خرق أمق الطول لماع السراب (٣)
وأركب في اللهام المجر حق أنال مآكل القمح الرغاب (٤)
وقد طوفت في الآفاق حق رضيت من الغنيمة بالأياب
أبعد الحارث الملك بن عمرو وبعد الحير حجر ذى القباب
أرجى من صروف الدهر لينا ولم تغفل عن الصم الهضاب
وأعلم أنني عما قليل سأنشب في شبا ظفر وناب (٥)
كما لاقى أبي حجر وجدى ولا أنسى قتيلا بالكلاب (٦)
٢ — وقال في مثل هذا المعنى الأخير وقد جاور في بني شمعى بن جرم فنجوا
أخته معيزا ،

أبعد الحارث الملك بن عمرو له ملك العراق إلى عمان
مجاورة بني شمعى بن جرم هوانا ما أتيح من الهوان
ويعنحها بنو شمعى بن جرم معيزهم حنانك ذا الحنان

٣ — وقال يصف الدهر وفعله
ألم يخبرك أن الدهر غول ختور العهد يلهتهم الرجالا
أزال من المصانع ذا رياش وقد ملك السهولة والجيالا (٧)
هم طحطح الآفاق وحيا وساق إلى مشارقها الرعالا (٨)
وسد بحيث ترقى الشمس سدا ليأجوج ومأجوج الجبالا
بعزهم عززت فارت يذلوا فذلهم أنالك ما أنالا

٤ — ومن بديع قوله في تذكر ما فات وهو مريض يحمله على خشبة جابر
التغلي وكان مع عمرو بن قتيبة صاحبه .

(١) وشجت وصلت واتصلت (٢) الجرم الجسم (٣) أنقى أهزل ، والحرق الدو
والأمق البالغ (٤) اللهام الجيش والمجر العظيم ، والقمح الصماب ، والرغاب المرغوب
فيها (٥) أنشب أعلق والظفر والناب هنا للنينة والشبا الحد (٦) قتل الكلاب هو
همه شرحبيل (٧) ذو رياش هو ذو القرنين اليمنى (٨) الوحى الخوف ، والرعال جمع
رعيل وهو جماعة الخيل

- فاما ترىني في زحالة جابر على حرج كالقر تخفق أ كفاني (١)
 فيارب مكروب كررت وراءه وعان فككت الكبل عنه فقداني
 وفتيان صدق قد بعثت بسحرة فقاموا جميعا بين عاث ونشوان
 وخرق بعيد قد قطعت نياطه على ذات لوث سهوة المشى مذعان (٢)
 وغيث كألوان الفنا قد هبطته تعاور فيه كل أوظف حنان (٣)
 علي هيكلي يعطيك قبل سؤاليه أفانين جرى غير كز ولا وان (٤)
 وخرق كجوف العير قفر مضلة قطعت بسام ساهم الوجه حسان (٥)
 ومجر كغلان الأنعم بالغ ديار العدو ذى زهاء وأركان (٦)
 مطوت بهم حتى تكل غزاتهم وحتى الجياد ما يقدن بأرسان (٧)
 وحتى ترى الجون الذي كان باديا عليه عواف من نسور وعقبان (٨)

— نتيجة —

فأنت تراه فيما ذكرنا له من أغراض في حياته الثانية هابط المنزل عما كان عليه في حياته الأولى غير مقارب لها في قوتها إلا إذا كان مهيدا أو مفتخرا ، أو متذكرا ماضيا يقول عنه مثل ما كان يقول ، أو معاتباً الزمن ينحى عليه باللائمة وقد أصبح يرضى بالدون من الأمر ، فصار بعد أن كان يقول :

ولو أن ما أسعي لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
 ولكنما أسعي لمجد مؤئل وقد يدرك المجد المؤئل أمثالي
 يقول

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالأياب
 ويقول— وقد انتهت إبلة ورواحله جديلة ، ففرقت عليه بنونهان فرقا من معزى

- (١) الحرج النعش ، والقر مركب للرجال كالهودج للنساء (٢) الخرق القلاء ، والنياط الطرق جمع نوط ، واللوث القوة ، والسهوة المواتية (٣) الفنا عنب الذئب ، والأوظف السحاب المسترخى لثقله (٤) الكز الضيق الخطا والوانى القافر (٥) ساهم الوجه طابسه (٦) المجر الجيش ، وغلان الأنعم نبت بهذا الوضع ، والزهاء العدد ، والأركان القوة (٧) مطوت أسرع (٨) الجون الجواد الأدهم ، وبادنا سميناً

جلتها - وان كان هذا لا يطعن في همته النفسية في معنى ذلك البيت

ألا تكن إبل فعزى كأن قرون جلتها العضي (١)

ترجع بالستار ستار قدر إلى غسل فجاد لها الولي (٢)

إذا ما قام حالها أرنت كأن الحى بينهم نعى

تروح كأنها مما أصابت معلقة بأحقها الدلى (٣)

فتملاً بيتنا أقطا وسمنا وحسبك من غنى شيع ورى

٢ - ولا يفوتنا أن نذكر شيئاً من وصفه للنوق ، الذى صار من أغراضه في

تطوافه الاخير عليها ، بعد أن كان رب إقامة وخيل ، فمن ذلك قوله :

فعزيت نفسى حين بانوا بحسرة أمون كبنيان اليهودى خيفق (٤)

إذا زجرت ألفتها مشمعة تنيف بعذق من غراس ابن معنق (٥)

تروح إذا راحت رواح جهامة بأثر جهام رائح متفرق

يجول بأفاق البلاد مغربا وتسحقه ريح الصبا كل مسحق (٦)

وقدر كدت وسط السماء نجومها ركود نوادى الربرب المتورق (٧)

كأن بها هرا جنيباً تجره بكل طريق صادفته ومأزق

كأنى ورحلى والقرباب ونمرق على يرفئ ذى زوائد تقنق (٨)

تروح من أرض لأرض نطية لذكرة قيض حول بيض مفلق (٩)

وقوله وقد أجاد فيه تشبيهها موجزا بالحمار الوحشى .

كأنى ورحلى فوق أحقب قارح بشربة أوطا وبعرنان موجس (١٠)

(١) جلتها معظمها (٢) ستار قدر جبل بالعالية وغسل موضع بديار بنى أسد

(٣) الأحق جمع حق وهو الكشح والدلى جمع دلو (٤) الجسرة العظيمة كالجسر ،

والأمون التى تؤمن رايها والخيفق السريعة (٥) مشمعة مشرفة ، والعذق النخلة ،

وابن معنق رجل بعينه (٦) تسحقه تبعده (٧) نوادى الربرب المتورق مجتمعات القطيع

المنقرش ورق النبات من الحر (٨) القرباب غمد السيف والنمرق الوسادة ، واليرفئ

الظليم والننقى النافر ، والزوائد شعرات الرسف (٩) نطية بعيدة ، والقيض القشرة العليا

للبيضة . (١٠) الأحقب الأبيض البطن ، والقارح البالغ ، وشربة مكان ، والطاوى

الجامع والموجس الخائف وعرنان موضع ، والأول الحمار الوحشى والثانى ثور الوحش

- تعشى قليلاً ثم أنحى ظلوفه يشير التراب عن مبيت ومكنس (١)
يهيل ويذرى تربها ويشيرها إثارة نبات الهواجر خمس (٢)
فبات علي خد أحم ومنكب وضجته مثل الأسير المكردس (٣)
وبات إلى أرطاة حقف كأنها إذا ألتقتها غيبة بيت معرس (٤)
فصبحه عند الشروق غدية كلاب ابن مرأ و كلاب ابن سنابس (٥)
مغرثة زرقا كأن عيونها من الذمر والأحياء نوار عرض (٦)
فأدبر يكسوها الرغام كأنه على الصمد والآكام جذوة مقبس (٧)
وأيقن إن لاقينه أن يومه بذى الرمث إن ماوته يوم أنفس (٨)
فأدركه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس (٩)
وغورن في ظل الغضا وتركنه كقرم الهجان القادر المتشمس (١٠)

٣ — كما لا يفوتنا في إتمام أغراضه هنا أن نذكر شيئاً من حكمته التي كانت نتيجة هذه الحياة الثانية ، حيث عركه الدهر فذاق مره مترعاً ؛ وإن كان قد تبين شيء منها في بعض ما مر من شكواه غدر الزمن ، وفعل الأيام .
فمن خيرة قصائده في ذلك قوله .

أقبلت مقتصداً وراجعي حامى وسدد للندى فعلى
والله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيمة الرجل
ومن الطريقة جائز وهدي قصد السبيل ومنه ذو دخل
إني لأصرم من يصارمني وأجد وصلى من ابتغى وصلى

- (١) الضمير في ظلوفه للنور ، والمكنس ، كالكناس (٢) ونبات الهواجر
النباش فيها والخمس ابن الخمس وهو هنا الظلم (٣) الأحم الأسود ، والمكردس المربوط
(٤) الأرطاة شجر والحقف الرمل ، وألتقتها بللتها ، والغبية المطرة الخفيفة
(٥) ابن مره ، وابن سنابس صائدان ماهران من طيء (٦) مغرثة جائحة ، الذمر الغضب
والإيحاء السرعة والعرض شجر أحمر النور (٧) الصمد النجم والآكام التلال
(٨) ذو الرمث موضع ، ويوم أنفس أى يوم ذهاب أنفس بخذف المضاف (٩) شبرق
خرق ومزق ، والمقدس الراهب (١٠) غورن نزلن الغور ، والغضا شجر ، وقرم الهجان
فحل الأبل ، والفادر غير الملقح ، والمتشمس الشمس

وأخي إخاء ذى محافظة سهل الخليقة ماجد الأصل
 حلوا إذا ما جئت قال ألا في الرحب أنت ومنزل السهل
 نازعته كأس الصبوح ولم أجهل مجدة عذرة الرجل (١)
 إني بحبالك واصل حبلى وبريش نبلك رائش نبلى (٢)
 ما لم أجدك على هدى أثر يقرأ مقصك قائف قبلى
 وشمائلى ما قد علمت وما نبحت كلابك طارقا مثلى
 ومن حكمه أيضا قوله

وخليل قد أفارقه ثم لا أبكى علي أثره
 وابن عم قد تركت له صفوماء الخوض عن كدره
 وابن عم قد فجعت به مثل ضوء البدر في غره
 وهل هناك أحكم وأدق من أن يقول امرؤ القيس يصف الحرب ويبين سوء مغبتها
 الحرب أول ما تكون فتية تبدو بزيتها لكل جهول
 حتى إذا حميت وشب ضرامها عادت عجوزا غير ذات حليل
 شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقييل
 وامتن بعض بنى طيء عليه بفضلها فقال وهو أحكم بيت في معناه

أفسدت بالمن ما أوليت من نعم ليس الكريم إذا أسدى يمان
 وله كثير من الجوامع جرت مجرى الأمثال كقوله من شعر تقدم « وحسبك من
 غنى شع وري » وقوله كذلك « رضيت من الغنمة بالاياب » ثم قوله « ماله لا عد
 من نفره » ومعناه معنى لا أبا له للتعجب، وهو من وصف له في رام لا يخطيء الرمي
 فلا ترتفع رميته من المكان الذى أصابها فيه ، يقول فيه .

رب رام من بنى ثعل متلج كفيه من قتره (٣)

(١) المجدة الطريقة (٢) يقرأ يتبع
 (٣) متلج مخرج ، والفترة السترة

قد أتته الوحش واردة فتجى النزع في يسره (١)
فهو لا تنمى رميته ماله لا عد من نفره (٢)
وقوله « ويعدو على المرء ما يأتى » فى معنى يهلك المرء ما تأمر به نفسه ، وهو
من قوله :

أحار بن عمرو كأتى خمر ويعدو على المرء ما يأتى
وقد يذهب البيت كاه مثلاً كقوله ، ويضرب للشئ ، يذهب ثم يذهب ما هو أجل
منه فيعنى عليه .

دع عنك نهبا صيح فى حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل (٣)
وكقوله ، ويضرب للرجل يتهاون عن الجد فى أمر فيضيع عليه ما هو أهم منه .
وأعجبنى مشى الحزقة خالد كمشى أتان حلت عن مناهل (٤)
والبيتان من مقطعة هجا بها خالد السدوسى من نهان إذ نزل به وكانت له إبل
ورواحل ، فأغارت بنو زيد من جديلة على إبله فأخذتها ، وخرج خالد المذكور فى
نقر من قومه على رواحله ليردوها فأخذت منه الرواحل ، فكان إذ تلكاً فى طلبها كالأتان
يحال بينهما وبين الماء ، فتدور حوله ولا تجرؤ أن تذهب إليه ، فلا ثلبث أن
تغصب وتؤخذ .

٤ — طبقته بين الشعراء ومكانته

علم مما تقدم فى طبقات الشعراء الجاهليين أن أبا عبيدة جعلها أربعاً ، وضع فى
أولها ثلاثة بدأهم بامرئ القيس وجعل بعده زهيراً ثم النابغة ، وأن ابن سلام
جعلها عشرة ، وضع فى أولها أربعة بدأهم أيضاً بامرئ القيس وجعل بعده صاحبيه
هذين ثم الأعشى ، فاتفقا بذلك وهما من هاهنا من الرواية للادب ومن الفقه له على أن
المقدمين على شعراء الجاهلية عامة هم هؤلاء الأربعة ، وأن أولهم امرؤ القيس ، وبذلك

(١) تنحى ترتفع عن المكان المصوبة إليه ، حذفت إحدى تائيه (٢) خمر مخمور .
(٣) الحجرات جمع حجرة بالفتح وهى الناحية (٤) حلت طردت ومنعت فهى لا تزال
تلكاً فى مشيتها وتستدير حول الماء حتى تغصب وتؤخذ ، والحزقة الضيق الباع القصير النحيل ،

لم يتنازعا في سبقه عليهم وإن تنازع العلماء بعدهم فيمن له السبق منهم . وإن نظرة واحدة في الأشياء التي لكل واحد من الثلاثة ، والتي من أجلها زعم من زعم أنه يفضل امرأ القيس بها ، ترينا أن أبا عبيدة وابن سلام كانا جد صادقين في وضعه على رأس الطبقة الأولى ، فإن ما فضل به يخصه وحده ، بينما يشرك هؤلاء في خير ما عدلهم ، وإلا فمن ينازع امرأ القيس ابتداعه أشياء استحسنتها العرب واتبعة فيها الشعراء ، كاستيقاف الأصحاب وبكاه الاطلال والأكثار من التغزل مع الافتنان في تشبيه النساء والحيل ، ومن يسلب شعره إحكام زهير وبعده من السخف وجمعه لكثير من المعاني في قليل من الألفاظ وعدم معاظلتة وقليل حوشيه ، وليس بعائبه ما انفرد به زهير من المدح الجيد والحكمة الصادقة لأن مثله في إمارته وملك أبيه يتورع بطبعه عن المدح ، ومثله في غوايته وشدة استهتاره لا يتلاءم قلبه والحكمة ، فهو لم ينشأ لهُذين حتى يراجع بينه وبين زهير فيهما ، ثم من يسلبه ما للنابعة من حسن الديباجة وكثرة الرونق وجزالة البيت وعدم التكلف ، وهو في كل هذه سباق ، بل من يسلبه ما للأعشى من الذهاب في فنون الشعر وكثرة عروضه وطواله ونظره وصفته ، وما موقوفه إزاء النابعة في المدح والاعتذار وإزاء الأعشى في المدح والهجاء إلا كموقفه إزاء زهير في مدحه ، فهو لم يتهيأ لهذه الأشياء بأصل فطرته حتى يعد عدم قوله فيها أو عدم إجادته لما تعرض له منها في أخريات حياة نقصاً وعبياً ، وكفاه تفضيلاً وفخراً أن فتح في الشعر فتحاً جديداً لم يزل له معروفاً وفي استخدامه من بعده محموداً ، على ماله من سبق زمن يعطيه فضل المتقدم وينحى على معظم ما قال بالضياع بنسبة ترتفع كثيراً عن نسبة ما ضاع لهؤلاء .

وهذه آراء غير أبي عبيدة وابن سلام من ذوى الرأي والبيان في مكانته ، وفيما له من ميزات ، مصدرة برأى رسول الله عليه الصلاة والسلام فيه .

١ — أقبل قوم من أهل اليمن يريدون النبي صلى الله عليه وسلم ، فأضلوا الطريق ووقعوا على غيرها ومكثوا ثلاثاً لا يقدرُونَ علي الماء ، ثم أقبل راكب فسمع بعضهم ينشد

ولما رأْتَ أن الشريعة همها وأن البياض من فرائضها دامي (١)

(١) الشريعة الماء ، والفرائض جمع فريضة وهي ودج العنق أى عرقه

تممت العين التي عند ضارج يفيء عليها الظل عر مضها طامي (١)

فقال من يقول هذا قيل امرؤ القيس ، قال والله ما كذب هذا ضارج عندكم وأشار لهم اليه فوصلوه ، فاذا ماء عذب وإذا عليه العرمض والظل يفيء عليه فشرّبوا منه وحملوا ، ولما أتوا النبي قالوا يارسول الله أحيانا الله عز وجل بيتين من شعر امرئ القيس وأنشدوهما فقال « ذلك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسى في الآخرة خامل فيها ، ينجى يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار »

٢ — وسأل العباس بن عبد المطلب عمر بن الخطاب عن الشعراء ، فقال « امرؤ القيس سابقهم ، خسف لهم عين الشعر فافتقر من معان عورأصح بصر » (٢)
فكان الشعر في نظر عمر كان أعور لم يصح بصره الا على يد امرئ القيس وبشعره .
٣ — وقال علي بن أبي طالب « رأيت امرأ القيس أحسن الشعراء نادرة وأسبقهم بادرة وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة » فهو في رأيه رحمه الله صاحب هذه المزايا الثلاث من دون الشعراء .

٤ — ومرو لبيد بالكوفة على مجلس وهو يتوكل على محجن له فسأله عن أشعر العرب فقال « الملك الضليل ذو القروح » وهذا تقديم لامرئ القيس على جميع الشعراء .

٥ — وسئل جرير رأيه في امرئ القيس فقال « اتخذ الخبيث الشعر نعلين » وهذا رأى يمثل اقتدار امرئ القيس على الشعر وشدة وطأته عليه .

٦ — وقيل للفرزدق من أشعر الناس يا أبا فراس فقال ذو القروح ، قيل حين يقول ماذا قال حين يقول :

وقاهم جد هم بني أيهم وبالأشقين ما كان العقاب

٧ — وقال ابن يحيى سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون « أحسن الناس

(١) ضارج مكان والعرمض الطحلب .

(٢) يقال خسف فلان البئر إذا حفرها في حجارة فنبعت بماء كثير لا ينقطع ، وافتقر بمعناه أو هو خاص بالحفر في المكان السهل ، والمراد به هنا استخراج .

ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول « ألام صباحاً أيها الطل البالى » وحيث يقول « قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل » وفي الاسلام القطامي حيث يقول « إنا محيوك فاسلم أيها الطلل » ومن المحدثين بشار حيث يقول :

أبي طلل بالجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيما
٨ — وقال بشار « لم أزل منذ سمعت قول امرئ القيس في تشبيهه شيئين
بشيئين في بيت واحد حيث يقول :

كان قلوب الطير رطبا ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى
أعمل نفسى في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حتى قلت :
كان مشار النقع فوق رءوسنا وأسيفنا ليل تهاوى كواكبه
٩ — وكان أبو عبد الله بن محمد بن صفوان الجمحي يقول ، أنسب بيت قالته
العرب قول امرئ القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربنى بسهميك فى أعشار قلب مقتل
١٠ — وقال حماد بن إسحق ، قال لى أبو ربيعة ، لو لم تكن هذه القصيدة
« زينب ألم » لنصيب ، شعر من كانت تشبه ؟ قلت شعر امرئ القيس لأنها جزلة
الكلام جيدة ، فقال سبحانه الله ، قلت ما شأنك ، قال سألت أباك عن هذا فقال لى
مثل ما قلت فعجبت من اتفاقكما .

تلك شهادات طائفة على أولية امرئ القيس من رجال الشعر والعلماء بالشعر ،
وإذا جارينا العرب فى اعتقادها قول الجن للشعر وعلمها به ، أمكن أن نسوق
القصة الآتية دالة على رأى الجن فى تقديمه أيضا ، وخلاصتها أن شيخا من أهل البصرة
خرج فى ليلة أضحيانة ، فنظر إلى رجل شاب على ظهر ظليم قد خطمه وهو يقول :

هل يبلغنيهم إلى الصباح هقل كأن رأسه جماح
فعلم أنه جنى ، فسأله من أشعر الناس قال الذى يقول :
وما ذرفت عيناك إلا لتضربنى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وإننا لنقرر هنا أن امرأ القيس لم يوضع على رأس الطبقة الأولى أو بالحري على رأس الشعراء جميعا إلا لميزات علت به ورفعته إلى مكانته ، وها نحن أولاء مجملو القول في البارز من هذه الميزات .

أولا — فتح امرؤ القيس باب الغزل على مصراعيه ، فوجه الشعراء من بعده ثم أكثر فيه إكثارا جعله يقف على قدميه فنا مستقلا في فنون الشعر ، غير مضاف إلى غيره فيما كان يعرف بالتشبيب ، ولم يقف فيه عند حد الفتح والكثرة بل أودع به من المعاني المبكرة والتشبيهات المبتدعة ، ما جعل الغزلين يهتدون بهديه ويقبسون من ضوئه ، وماذا غير ذلك جعلنا نقول آنفاً إن ابن أبي ربيعة على طريقه نهج وعلى منواله نسج ونقول الآن إنه مدين له بفنه وبما شهر به في ديبه إلى النساء ، وحديثه معهن ، وآيات هذا التقفي في شعر عمر واضحة جلية ، يمكن أن تلمس لمسا في كثير من قصائده ، كرائيته التي مطلعها « أمن آل نعم أنت غاد فمبكر » ، وعينيته التي مطلعها : « ألم تسأل الأطلال والمتربعا » وغيرهما مما هو في شعر عمر أكثر من أن يحصى ، فليرجع نليه في ديوانه فجل ما في الديوان منه .

وهذه نبذة يسيرة من الرائية المذكورة على سبيل التنظير لما ذكرنا لامرئ القيس في الديب ، قال :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت	مصاييح شبت بالعشاء وأنور
وغاب قير كنت أهوى غيوبه	وروح رعيان ونوم سمر
وخفض عنى الصوت أقبلت مشية	حجاب وشخصى خيفة الحى أزور (١)
فحييت إذ فاجأتها فتولمت	وكادت بمخفوض التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان فضحتنى	وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أرينك إذ هنا عليك ألم تخف	رقيبا وحولى من عدوك حضر

(١) الحجاب بالضم الحية وهو المراد هنا ، وبالفتح فقايع الماء أو الخمر

فوالله ما أدري أتعجيل حاجة سرت بك أم قد نام من كنت تحذر
فقلت لها بل قاذى الشوق والهوى إليك وما نفس من الناس تشعر
فقلت وقد لانت وأفرخ روعها كلاك بحفظ ربك المتكبر
فأنت أبا الخطاب غير مدافع على أمير ما مكثت مؤمر
وهذه نبذة أخرى من العينية السالفة في الحديث إلى النساء

فلما تواقفنا وسمت أشرفت وجوه زها الحسن أن تتقنعا
تبا لهن بالعرفان لما عرفنى وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا
وقربن أسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعا كلما قسن إصبعها
فلما تنازعنا الأحاديث قلن لى أخفت علينا أن نغر ونخدعا
فبالأمس أرسلنا بذلك خالدا إليك وبيننا له الشأن أجمعا
فما جئنا إلا على وفق موعد على ملأ منا خرجنا له معا
رأينا خلاء من عيون ومجلسا دميث الربا سهل المحلة ممرعا
وقلنا كريم نال وصل كرائم فحق له في اليوم أن يتمتعا

هذا وقد أبان امرؤ القيس مع الملذة بالنساء سائر ملذات العيش ورغائبه منه
بمعان مبتكرة وفي أسلوب جديد حيث يقول في عينيته السابقة « وأصبحت ودعت
الصبا » ، فاختط بذلك مشرعا نهل منه الشعراء وعلاوا ، انظر إلى طرفه حيث
يقول جاريا على هذا السنن في معلقته :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفقى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربة كمت متى ما تعل بالماء تزيد
وكرى إذا نادى المضاف محببا كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب يبهكنة تحت الحباء المعمد

ومع هذه الاستعانة بقيت أبيات امرئ القيس ذات فضل على أبياته طرفه ،
يتضح في الأسلوب ، وفي بعض الملاذ الثلاث التى اشتركا فيها ، وفي زيادة ملذة رابعة
في أبيات امرئ القيس ، هى نص العيس لتحقيق مطمع فى جد ، أو تجديد وصل فى لهو ،

ولم تقف استعانة طرفه به عند هذا الحد فقد أخذ بيته « وقوفاً بها صحي على مطيهم » بجميع ألفاظه ، ما عدا كلمة القافية لاختلاف روى المعلقين فقال :
وقوفاً بها صحي على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلد
وأخذ قوله في الناقة

وعنس كالواح الأران نسأتها على لاحب كالبرد ذى الحبرات (١)
معظم ألفاظه فقال

أمون كالواح الأران نسأها على لاحب كأنه ظهر برجد (٢)
ومما بان فيه فضل امرئ القيس على طرفه مع سبق الأول وتأخر الثانى ، ذلك
المعنى الذى ألم به امرؤ القيس قبل الشعراء جميعاً فوفاه حقه وهو التمدح بالكرم حال
الصحو كحال الشرب ، حيث يقول فى سعد بن الضباب

وتعرف فيه من أييه شمائل ومن خاله ومن يزيد ومن حجر
سباحة ذا وبر ذو وفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر
فقد أخذ طرفه هذا المعنى قاصراً الكرم على وقت الشرب حيث يقول
أسد غيل فاذا ما شربوا وهبوا كل أمون وطمر (٣)

وهذا مما يعاب عليه وعلى من يقتصر اقتصاره من الشعراء ، بقدر ما يحدلن يوفى
توفية امرئ القيس كعنترة حيث يقول

فاذا شربت فأنتى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

على أنه لا يزال لامرئ القيس مع فضل سبق فضل الالمام فى نصف بيت بما ألم
به عنترة فى بيتين

ثانياً — وإذا وجد امرؤ القيس من استعان به وجاراه فى باب الغزل واللهو

(١) العنس الناقة الصلبة ، والأران ثابوت الميت ، ونسأتها سقتها واللاحب الطريق

(٢) البرجد الكساء الغليظ وهو المقابل للبرد فى البيت السابق (٣) الغيل الشجر الكثير

الملتحف ، والأمون الناقة والطمر الجواد القوى السريع .

إلى النساء كابن أبي ربيعة ومن حاكاه في ملذات العيش مقاربا كطرفة على ماله من فضل السبق فيهما ، فانه لم يجد من يدانيه في نعت الخيل وعدوها للصيد ، وتمتعه وصحبه بالنزول عقب ذلك للاكل والشرب ، فله في هذا ابتكارات كثيرة وتصرفات واسعة ، تعرف مما قدمنا عن ذلك في المعلقة وغيرها وما نحن بصدد إثباته الآن فيما كان بينه وبين علقمة في هذا الموضوع الذي تحاكما فيه إلى أم جندب فقضت لعلقمة عليه سرفا وعدوانا. قال امرؤ القيس فيما يخصنا من القصيدة محل التحاكم يصف الفرس

- | | |
|-----------------------------|----------------------------------|
| وقد أغتدى والطير في وكناتها | وماء الندى يجري على كل مذنب (١) |
| بمنجرد قيد الأوابد لاحه | طراد الهوادي كل شأو مقرب (٢) |
| على الأين جياش كان سراته | على الضمر والتعداء سرحة مرقب (٣) |
| بياري الخنوف المستقل زماعه | ترى شخصه كأنه عود مشجب (٤) |
| له أبطالا ظي وساقا نعامة | وصهوة غير قائم فوق مرقب (٥) |
| وينخطو على صم صلاب كأنها | حجارة غيل وارسات بطحلب (٦) |
| له كفل كالدهص لبده الندى | إلى حارك مثل الغبيط المذأب (٧) |
| وعين كمرءاة الصناع تديرها | لمحجرها من النصف المنقب (٨) |
| له أذنان تعرف العتق فيهما | كسامعي مذعورة وسطررب (٩) |
| ومستفلك الذفرى كأن عنانه | ومثناته في رأس جذع مشذب (١٠) |
| وأسحم ريان العسيب كأنه | عشا كيل قنو من سميحة مرطب (١١) |

وقال علقمة في ذلك

-
- (١) المذنب الفصن يعتبر لشجرتة كالذنب (٢) لاحه غيره (٣) الأين التعب وجياش غلاء (٤) الخنوف حمار الوحش ، والزمامع شعرات الرسخ ، والمستقل المرتفع لشدة العدو ، والشجب خشبة تعلق عليها الثياب (٥) العير حمار الوحش (٦) الغيل ، مسيل الماء ، وارسات بطحلب أى قد ركبها الطحلب (٧) الحارك منبت المعرفة والمذأب ذو الذوائب (٨) الصناع المرأة الحاذقة عمل اليدى ، والنصف الخمار والمنقب المتخذ نقابا (٩) الربرب القطيع من الظباء (١٠) الذفرى عظم خلف الأذ ومستفلكها مدهورها كفلكة المغزل (١١) الأسحم ، الذيل الأسود والعسيب عظمه ، وسميحة مكان

- وقد أغتدى والطير في وكناتها وماء الندى يجري على كل مذنب (١)
 بمنجرد قيد الأوابد لاحه طراد الهوادي كل شأو مقرب (٢)
 بفوج لبانه يتم برعسه على نفت راق خشية العين مجلب (٣)
 كميت كلون الأرجوان نشرته لبيع الرداء في الصوان المكعب (٤)
 ممر كعقد الأندري يزينه مع العتق خلق مفعم غير جانب (٥)
 له حرتان تعرف العتق فيها كسامعتي مذعورة وسط ررب (٦)
 وجوف هواء تحت متن كأنه من الهضبة الخلقاء زحلق ملعب (٧)
 قطاة ككردوس المحالة أشرفت إلى سند مثل الغيظ المذاب (٨)
 وغلب كأعناق الضباع مضيغها سلام الشظي يغشي بها كل مركب (٩)
 وسمر يفلقن الظراب كأنها حجارة غيل وارسات بطحلب (١٠)

فأنت ترى امرأ القيس قد أدى ما أراد من معان في هذه الناحية بأحد عشر بيتاً وعلقمة بعشرة ، ولكنه أخذ منه يبقى المبدأ بنصهما ، ولم يعرف كيف يبتدىء بخير منهما ، في معان كمبتكرات امرئ القيس ، وبأسلوب هو واضع نظامه ، كما أخذ ثلاثة أبيات بنصها تقريباً هي السادس والسابع والثامن من قول امرئ القيس ، وبذا كان نصف ما قال لامرئ القيس ، ثم استعان في بعض الأبيات الباقية ، وما انفرد به من معان فيها بان بها ضعفه عقب أن غادر بيت المطلع مباشرة ، كما أنه أهمل ذكر العين ومكانها في الصيد معروف ، على حين خصها امرؤ القيس ببيت يصلح أن يكون بيت قصيدة .

وقال امرؤ القيس يصف العدو للصيد ، ويصف الصيد نفسه :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه تقول هزير الريح مرت بأثأب (١١)

- (١) المذنب أعصن يعتبر لشجرتة كالذنب (٢) لاحه غيره (٣) بفوج لبانه باتساع جلده (٤) الأرجوان الثوب الأحمر (٥) الأندري الجبل الغليظ والجانب القصير (٦) حرتان أذنان . (٧) الخلقاء الملساء (٨) القطاة العجز ، والكردوس السنام ، والمحالة الناقة العظيمة والسند الذيل (٩) الغلب الرقبة ، ومضيغها لحمها ، وسلام صلب ، والشظي عظم الركبة (١٠) السمر الحوافر ، والظراب الحجارة (١١) الشأو الشوط ، والمطف الجنب ، وأثأب شجر بعينه

- ويخضد في الآرى حتى كأنه به عرة من طائف غير معقب (١)
 فيوما على سرب نقي جلوده ويوما على بيدانة أم تولب (٢)
 فيينا نجاج يرتعين خميلة كمشي العذارى في الملاء المهذب
 فكان تنادينا وعقد عذاره وقال صحابى قد شأونك فاطلب (٣)
 فلايا بلاى ما حملنا غلامنا على ظهر محبوبك السراة محب (٤)
 وولى كشوبوب العشي بوابل ويخرجن من جعد ثراه منصب (٥)
 فللساق ألهوب وللسوط درة وللزجر منه وقع أهوج منصب (٦)
 فأدرك لم يحهد ولم يثن شأوه يمر كخذوف الوليد المثقب (٧)
 ترى الفأر فى مستنقع القاع لاحبا على جدد الصحراء من شدملهب (٨)
 خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من عشى محلب (٩)
 فعادى عداء بين ثور ونعجة وبين شوب كالقضيمة قرهب (١٠)
 وظل لثيران الصريم غماغم يداعسها بالسهمري المعلب (١١)
 فكاب على حر الجبين ومتق بمدرية كأنها ذلق مشعب (١٢)
 وقال علقمة فى ذلك
 إذا ما اقتنصنا لم نخاتل بجنة ولكن ننادى من بعيد ألا اركب (١٣)

- (١) الآرى حديدة اللجام ، والعره المس ، والطائف الجن
 (٢) البيدانة الأتان الوحشية والتولب ابنها
 (٣) العذار اللجام ، وشأونك غلبتك ، والنون للوحش
 (٤) الحنب احديداب فى وظيق الفرس وصلبها (٥) الجعد الغليظ من الأرض ،
 والمنصب المرتفع ، والمندى (٦) الألهوب شهاب النار ، والدرة تتابع السير كالطر ،
 والأهوج من لا عقل به (٧) الخذروف نحلة الصبي التى يديرها بحبل .
 (٨) الفأر معروف أو هو هنا اليربوع ، ولاحبا مسرعا (٩) خفاهن أخرجهن
 (١٠) الشوبوب التيس ، والقرهب الضخم ، القضيمة الصحيفة البيضاء (١١) الصريم القطيع
 والغماغم الأصوات ، ويداعسها يطعننها ، والمعلب الصليب (١٢) المدرية القرن . والذلق
 الحد . والمشعب الخراز (١٣) لم نخاتل بجنة لم تستر بها .

أخائقة لا يلعن الحى شخصه صبوراً على العلات غير مسبب
إذا أنفدوا زادا فان عنانه وأكرعه مستعملاً خير مكسب
رأينا شياها يرتعين خميلة كمشى العذارى فى الملاء المهذب
فينا تمارينا وعقد عذاره خرجن علينا كالجمان المثقب
وأقبل يهوى ثانيا من عنانه يمر كمر الراح المتحلب
ترى الفأر عن مسترغب القدر لائحاً على جدد الصحراء من شدم لهب
خفا الفأر من أنفاقه فكأنما تجلله شؤبوب غيث منقب
فضل لثيران الصريم غماغم يداعسهن بالنضى المقلب
فهاو علي حر الجبين ومتقٍ بمدراته كأنها ذلق مشعب
فعادى عداء بين ثور ونعجة وتيس شبوب كالهشيمة قهرب

فأنت ترى امرأ القيس قد بسط هذا المعنى فى أربعة عشر بيتاً . وعلقمة لم يقل فيه سوى أحد عشر ، أخذ ستة منها من أبيات امرئ القيس نصاً تقريباً هى الرابع والخامس والعاشر والثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر من أبيات امرئ القيس وشارك امرأ القيس فى معاني الخمسة الباقية وكانت ترمى إلى شيئين . أحدهما الاجتهاد فى إركاب الصائد فعجله امرؤ القيس بتكاثرهم على الفرس حتى علاه الغلام بعد لآى ، وجعله علقمة من الراكب وحده وهم بعيد ، فشجاعة امرئ القيس وقوة حصانه بينان ، على جبن علقمة وضعف حصانه ، وكذلك علاو نفسه حيث جعل الراكب خادماً وجعله علقمة نظيراً ، ثم ترفعه حيث لم يلتفت إلى القنص وعده علقمة خير كسب :

والثانى العدو نفسه وهو ما فضلت به أم جندب فرس علقمة ، حيث أقبل يهوى ثانياً من عنانه ، وحيث جعل امرؤ القيس لراكب فرسه حساً بالساق والوسط والزرجر ، كأنها فهمت أن ذلك لضعف فى عدو فرسه ، ولكن أين يفهم الضعف وقد جعل سيره فى البيت السابق لبيت الحثاث كشؤبوب العشى ذى الوبل ، وجعله فى البيت التالى له قد أدرك لم يجهد ولم بشن شأوه ، وأنه فى عودته كان يمر مر خذورف

الوليد ، وإنما ذكر امرؤ القيس المحاث ليدل على أن لفرسه ألوانا من السير لكل لون علامة يعلمه بها الراكب إذا أراحه ، فإذا لمسه بالساق اشتد في جريه كألهوب النار ، وإذا مسه بالسوط كان سيره كدرة المطر أو الحلب ، وإذا زجره بالقول نعب عنقه أى مده للأسراع كما يفعل الأهوج الذى لا عقل له ، فهو يعنى هنا ما عناه في نونيته بقوله :

على لاحق يعطيك قبل سؤاله أفانين جرى غير كزولا وان
علي أنه ألم بالمعني الذى أتى به علقمة في قوله من قافيته « ألا أنعم صباحا أيها
الرابع فانطق » وصرح دون علقمة بالأدراك حيث يقول :
فأدر كهن ثانيا من عنائه كغيث العشى الأشهب المتودق
ويغلب أن يكون علقمة قد أخذه منه بمعناه وبمعظم ألفاظه كما فعل في معظم
القصيدة التى نحن بصدددها .

وقال امرؤ القيس في النزول بعد الصيد والرواح منه وهو الغرض الذى
يرمى إليه من الصيد :

فقلت لفتيان كرام ألا انزلوا	فعاوا علينا فضل ثوب مطنب
ففئنا إلى بيت بعلياء مروح	سماوته من أتحمى معصب (١)
وأوتاده ماذية وعماده	ردينية فيها أسنة قعضب (٢)
وأطنا به أشطان خوص نجائب	وصهوته من أتحمى مشرعب (٣)
فلما دخلناه أضفنا ظهورنا	إلى كل حارى جديد مشطب (٤)
فظل لنا يوم لذيذ بنعمة	فقل في مقيل نحسه متغيب
كأن عيون الوحش حول خبائنا	وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

(١) الاتحمى البرد المخطط . والمعصب ذو العصاب (٢) الماذية كل سلاح من الحديد،
وقعضب صانع سنان معروف (٣) الخوص النوق في عيونها غثور، والمشرعب الطويل
(٤) المشطب، المنقش وحارى نسبة سماعية إلى الحيرة على غير قياس

نمش بأعراف الجياد أ كفننا
إل أن تروحنا بلا متعتب
ورحنا كأنا من جوائنا عشية
وراح كتيس الربل ينفض رأسه
حبب إلى الأصحاب غير ملعن
فيوما علي بقع دقاق صدوره
كان دماء الهاديات بنجره
وأنت إذا استدبرته سد فرجه
إذا نحن قمنا عن شواء مضهب (١)
عليه كسيد الردهة المتأوب
نعالي النعاج بين عدل ومحقب (٢)
أذاة به من صائك متحلب (٣)
يفدونه بالأمهات وبالآب
ويوما على سفع المدامع ربرب (٤)
عصارة حناء بشيب محضب
بضاف فويق الأرض ليس بأصهب

وقال علقمة في ذلك :

فقلنا ألا قد كان صيد لقانص
فظل الأ كف يختلفن بحاند
كأن عيون الوحش حول خبائنا
ورحنا كأنا من جوائنا عشية
وراح كشاة الربل ينفض رأسه
وراح يبارى في الجنب قلو صنا
فخبوا علينا فضل برد مطنب
إلى جوجؤ مثل المدالك المحضب (٥)
وأرحلنا الجزع الذي لم يشقب
نعالي النعاج بين عدل ومحقب
أذاة به من صائك متحلب
عزيزا علينا كالجاباب المسيب

فلم يزد على ستة أبيات ، بينما رمى امرؤ القيس في ذلك بخمسة عشر بيتا ،
فزاد عما قال في كلا الأمرين الأولين ، لأن هذا هو الغرض كما أسلفنا ، ثم لم يعف
علقمة على إقلاله عن الأخذ من أبيات امرئ القيس أيضا ، فأخذ ثلاثة منها نصا هي
السابع والعاشر والحادي عشر من قول امرئ القيس وأجمل في الثلاثة الباقية إجمالا
مخلا ، علي أنه أخذ أول أبياته من بيت لامرئ القيس في قافيته المشار إليها آنفا وهو
فقلنا ألا قد كان صيد لقانص فخبوا علينا ظل ثوب مروق

(١) مضهب لم يتم نضجه (٢) جوائنا قرية بالبحرين (٣) الربل نبات جيد
للرعى ، والصائك القرن (٤) البقع النعام جمع أبقع ، وسفع المدامع بقر الوحش
(٥) الحاند الدهن .

ولهذا يكون من الأجحاف بالأدب قبل الأجحاف بامرئ القيس أن يؤخذ بقول أم جندب ، وما كانت إلا كارهة لامرئ القيس تريد إغضابه ليطلقها فتحظى بعلمة وقد ظفرت .

ثالثا - ولم يكفتح امرئ القيس في وصف السحاب وبرقه واستعانة الشعراء به فيه ، بأقل من فتحه في باب الغزل والديب وباب التمتع بالصيد والشرب ، وكذلك كان الشأن فيما تصدى له من وصف الليل ، ولسنا بالزائدين فيهما ، على أن نذكر خير ما قيل لخير من عرف بالتعرض المجيد لهما ، وهما عبيد بن الأبرص في وصف السحاب ، والنابعة الذيباني في وصف الليل موازين إياهما بما سبق لامرئ القيس في ذلك .

قال عبيد

سقى الرباب مجلجل ال	أكناف لماع بروقه
جون تكفكفه الصبا	وهنا وتمريه خريقه
مرى العسيف عشاره	حتى إذ درت عروقه
ودنا يضيء ربابه	ظابا يضرمه حريقه
حتى إذا ما ذرعه	بالماء ضاق فما يطيقه
هبت له من خلفه	ريج يمانية تسوقه
حلت عزاليه الجنو	ب فثج واهية خروقه

فأين هذا من وصف امرئ القيس للسحاب برقه وغيثه وآثاره على ما تقدم بيانه ، ولم يتجاوز عبيد مرى الرياح للسحاب ، كما يمرى العبد ضروع النوق الحافلة باللبن ، وإضاءة برقه كما يضيء حريق الغاب ، ثم نزول الماء منه إذ وهى عن حمله

(١) الرباب موضع بمكة وقيل بين المدينة وفيد ، ومجلجل الأكناف صوت الجوانب برعده
(٢) الجنون الأسود . وتكفكفه تستخرج ماءه وتمريه تمسحه ، والحريق الريح الشديدة
والعسيف العبد والضمير في عروقه اللبن (٤) الرباب هنا السحاب (٥) العزالي جمع عزلاء
وهي مصب الماء ، ونج ، سح .

ولعبيد قطعة أخرى في وصف السحاب أحفل من هذه ولكن تركناها ، لأن بعض الرواة ينسبها إلى أوس بن حجر ، ولأنها على احتجازها لعبيد - كما هو رأينا - لم تبلغ ما بلغ امرؤ القيس على ما تقدم أيضا . وستأتي في ترجمة أوس .

وقال النابغة في الليل

كليلى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بآثب
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

فامرؤ القيس ، على سبقه ، فضله في أن جعل الليل ثابت الكواكب بآيات وشواهد ساقها ، من شد نجومه ومضام ثرياه ، بينا جعله النابغة بطيئا فحسب ، ولن يشفع في هذا البطء قوله « حتى قلت ليس بمنقض » لأن القول هنا لا يعدو مرتبة الظن إلى مرتبة اليقين ، وإلا تطاعن المعنيان ، وليس البطء بقابل لما يقبله القول من تأويل ، ثم فضله أيضا بأنه إذ طلب من الليل أن ينجلي ، لم يجعل ذلك لخلو النهار من الهم ، فانهما عنده سيان فيه إذ يقول : « وما الأصباح منك بأمثل » ، بينا النابغة جعله مريحا للهموم وحده إذ يقول « وصدر أراح الليل عازب همه » ، وإنما كان امرؤ القيس يطلب الانجلاء مع بقاء الهم ، لما طلبه في ذلك الطرماح بن حكيم آخذا من قول امرئ القيس وزائدا فيه هذا الايضاح حيث يقول :

ألا أيها الليل الطويل ألا اصبح يوم وما الاصبح منك بأروح
بلى إن للعنين في الصبح راحة لطرحهما طرفيهما كل مطرح

رابعا - هذا وإن امرأ القيس - مازال ولن يزال المرجع للشعراء كما قلنا ، به يستعينون ومنه يقبسون ، وهذى بعض آيات نعقب بها على ما سلف من مثيلات وهن كثيرات .

١ - قال في الظعن

علون بأنطاكية فوق عقمة كجرمة نخل أو كجنة يثرب (١)

(١) يقول ، علون بثياب أنطاكية فون ثياب موشية كبسر النخل في لونه أو كجنة يثرب في زهرها

فأخذه زهير حيث يقول

تبصر خليلي هل ترى من طعائن نحمّلن بالعلواء من فوق جرثم
علون بأنطاكية فوق عقمّة وراد حواشيها مشاكهة الدم

٢ — وقال في الأطلال الدارسة تنكرها العين وتحسبها النفس

لمن طلل درست آية وغيره سالف الأحرس (١)

تنكره العين من حادث ويعرفه شغف الأنفس

فأخذه غيره فقال

لو بدلت أعلى منازلها سفلا وأصبح سفليها يعاو

لعرفت مغناها بما احتملت من الضلوع لأهلها قبل

على ما أساء في أول البيتين من المبالغة التي لا يرضاها محب عن ديار حبيب
وأخذه آخر فقال — يعني الناقة — وأجاد :

لا تقفها على السبيل ودعها يهدا شوق من عليها السبيل

٣ — وقال في سيرها :

كأن بها هرا جنيا تجره بكل طريق صادفته ومأزق

فأخذه عنتره حيث يقول

وكأنما تنأى بجانب دفها الـ وحشى من هزج العشى مؤوم (٢)

هر جنيب كلما عرضت له غضبي اتقاها باليدين وبالفم

وقال في وصف أذنيها وعينيها

لها أذنان تعرف العتق فيهما كسامعتى مذعورة وسط ررب

(١) الأحرس جمع حرس وهو الدهر

(٢) الدف الوحشى الجنب الأيمن وسمى وحشيا لأنه لا يركب منه . والهزج المصوت والمؤوم العظيم الرأس

وعين كمرأة الصنّاع تديرها لمحجرها من النصف المنقب

فأخذه طرفة فقال على هذا الأساس مع بعض مزيد يحمد له .

وعيتان كلماويتين استكتتا بكه في حجاجي صخرة قلت مورد (١)

طحوران عوار القذى فتراهما كمكحولتي مذعورة أم فرق (٢)

وصادقتا سمع التوجس للسرى لهجس خفي أو لصوت مند

مؤللتان تعرف العتق فيهما كسامعتي شاة بحومل مفرد (٣)

وقال فيها أيضاً وهو معنى محمود لا يصدر إلا من نبيل

جالت لتصرعني فقلت لها اقصرى إني امرؤ صرعى عليك حرام

فجزيت خير جزاء ناقة واحد ورجعت سالمة القرا بسلام (٤)

فأخذه عبد الله بن رواحة الأنصاري على ما لامرئ القيس من سبق وفضل معنى

وإيجاز فقال

إذا بلغتني وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء

فشأنك فانعمي وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلى ورأى

وخالفه عرابة الأوسى فذم حيث يقول

إذا بلغتني وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

فعاب الأدباء عليه ذلك وقالوا كان ينبغي أن ينظر إليها مع استغنائها عنها ، فقد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصارية المأسورة بمكة وقد نجت على ناقته صلى

الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إني نذرت إن نجوت عليها أن أنحرها ، فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم لبئس ما جزيتها ثم قال لا نذرت في معصية ولا نذر

(١) الماوية المرأة . والكهف القار . وحجاج العين عظمها الأعلى . والقلت النقرة

في الجبل يملؤها الماء فتكون موردا

(٢) طحوران طارحان

(٣) مؤللتان محددتان . ومفرد صفة لشاة لأنه يطلق على المؤنث والمذكر من الوحش

(٤) القرا الظهر

للإنسان في غير ملكه .

٤ — وقال في طيب الرائحة

كأن المدام وصوب الغما موريح الخزامى ونشر القطر (١)
يعمل به برد أنيابها إذا طرب الطائر المستحر
فأخذه النعمان بن بشير فقال

كان الرضاب وصوب السحا ب بات يشاب بدوب العسل
من الليل خالط أنيابها بعيد الكرى واختلاف العلل

وأخذ منه جميل حيث يقول

وكان طارقها على علل الكرى والنجم وهنا قد دنا لتغور
يستاف ربيع مدامة معلولة بفتيت مسك أو سحق العنبر
كما أخذ منه حيث يقول أيضاً

يا خليلي إن أم حسين حين يدنو الضجيج من علله
روضة ذات حنوة وخزامى جاد فيها الربيع من مسله (٢)
وكما أخذ من قوله فيها أيضاً

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنطق عن تفضل
قوله حيث يقول كذلك

كأن فتيت المسك خالط نشرها تعمل به أردانها والمرافق
تقوم إذا قامت به عن فراشها ويغدو به من حضنها من تعانق

ولقد قال في هذه الناحية بيتا اعتبر المحك الصادق ، وعيب به كثير عزة فيما
ذكروه من أن امرأة عرضت له فقالت أنت القائل

(١) القطر العود الذي يتبخر به

(٢) الحنوة والخزامى من الرياحين . والمسك بضم ففتح جمع مسك بالتحريك وهو
مسيل الماء

فما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جشجائها وعرارها (١)
 بمنخرق من بطن واد كأثما تلاقت به عطارة وتجارها (٢)
 بأطيب من أردان عزة موهنا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها (٣)
 قال نعم : فقلت : فض الله فاك أرايت لو أن زنجية بخرت أردانها بالمندل الرطب
 أما كانت تطيب ، ألا قلت كما قال امرؤ القيس
 ألم تر أنى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب
 فانصرف خجلا وهو يقول

الحق أبلج لا يخيل سبيله والحق يعرفه ذوو الألباب
 ه — وقال فى استخدام أعراف الخيل لمسح الأكف من الشواء إزالة لسمه
 وتليعاً لها .

نمش بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن شواء مضهب
 فأخذه علقمة وكان لشعره أخاذا حيث يقول
 ثم قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل
 وقال من هذا الوادى فى بيت النزول بعد الصيد وهو قليل مما قال فيه . وقد تقدم
 فقمنا إلى بيت بعلياء مروح سماوته من أتحمى معصب
 وأوتاده ماذية وعماده ردينية فيها أسنة قعضب
 وأطنا به أشطان خوص نجائب وصهوته من أتحمى مشرعب
 فأخذه طفيل إذ يقول

وبيت تهب الريح فى حجراته بأرض فضاء بابيه لم يحجب (٤)

(١) الجشجاث والعرار من الرياحين

(٢) المنخرق مسيل الماء

(٣) المندل أجود العود

(٤) الحجرات النواحي جمع حجرة

سماوته أسمال برد محبر وصهوته من أتحمي معصب (١)
وأطنا به أرسان جرد كأنه صدور القنا من بادى ومعقب (٢)
نصبت على قوم تدور رماحهم عروق الأعادي من عرين وأشيب (٣)
إلى غير ذلك من أوليات السبق التي يطول الكلام في حصرها ويتبين فضلها على ما أخذ منها .

خامساً — وهذه ناحية بارزة لمزايا امرئ القيس ، وهي أنه وقد كان المكثار في الغزل خاصة واللهو عامة ، جاء شعره أنسب شعر جاهلي للتغنى به واختيار الأصوات منه ، ولم يزل يجارى ويسبق ما جد من أصوات بعده صلاح معنى وقبول تلحين ، حتى أحصى الأغاني ما عرفه من ألحان في بعض أبيات المعلقة الغزلية ومنها البيتان الأولان من وصف فرسه فكانت اثني عشرين لحنا لكبار المغنين والمغنيات ، من لدن معبد إلى إسحاق ، كما أنه أحصى له في بانيته التي ناظر فيها علقمة ثمانية ألحان ، وله فوق هذه الألحان الثلاثين أصوات في غيرها كثيرة ، منها هذان البيتان ولمارأت أن الشريعة همها وأن البياض من فرائصها دامي
تيممت العين التي عند ضارج يفيء عليها الظل عر مضطامي
ومنها هذه الأبيات الأربعة مما قاله في غربته ببلاد الروم .

أأذكرت نفسك ما لن يعودا فهاج التذكر قلبا عميدا (٤)
تذكرت هنداً وأتراها وأيام كنت لها مستقيدا (٥)
ويعجبك اللهو والمسمعا تفأصحت أزمعت منها صدودا
ونادمت قيصر في ملكه فأوجهني وركبت البريدا
وغیرها من أصواته كثير

(١) سماوته سقفه . والصهوة وسط السماوة . والأتحمي البرد المخطط ، والمعصب ذو العصائب (٢) الاطناط الجبال ، والأرسان الأزمة
(٣) عرين وأشيب قبيلتان
(٤) عميد احزينا
(٥) مستقيدا مالكاللزام

— ما عسى أن يكون قد أخذ عليه —

وبعد فالى هنا وفيها على قدر ما سمح الموضوع ما يقال لامرئ القيس ، في بيان طبقته بين الشعراء ومكانته في الشعر . أما ما عسى أن يقال عليه نقدا له ، فانه بقدر ما عني رواة الأدب وعلماءه به وبشعره عناية جعلت اسمه يطبق الآفاق ، كانت عنايتهم بالتعليق على شعره شرحا وانتقادا ، ومع ذلك لم يظفروا بعيوب تقع منهم موقع الاتفاق ، وهذا بعض ما أخذ عليه

١ — قالوا كان ينبغي أن يخالف في بيتيه :

كأني لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لحلي كرى كرة بعد إجفال

بأن يجعل كرى الحيل مع ركوب الجواد ، وتبطن الكاعب مع سبأ الزق .
حتى يقرن الجد بالجد واللهو باللهو ، متأثرين في ذلك بما قال عبد يغوث بعد امرئ القيس .

كأني لم أركب جودا ولم أقل لحلي كرى نفسى عن رجاليا
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا

وجاراهم في ذلك سيف الدولة حين أنشده المتنبي قوله :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنتك في جفن الردى وهونأم
تمر بك الأبطال كللى هزيمة ووجهك وضاح وئعرك باسم

فانكر عليه ذلك وقال ، ينبغي أن تطبق عجز الثانى على الأول وعجز الأول على الثانى حتى لا تكون كامرئ القيس في قوله :

كأني لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لحلي كرى كرة بعد إجفال

وقد سبق دفاع المتنبي عن نفسه وعن امرئ القيس دفاعاً أعجب به سيف الدولة
وضاعف من أجله في جائزته .

٢ — وقيل تشيعاً لأم جندب من غير تبصر ما سبق في بيته

فللسوط ألحوب وللساق درة وللزجر منه وقع أهوج منعب
وقد تقدم قولنا في ذلك وفي تفضيله على علقمة مبسوطاً واضحاً

٣ — وقيل إن وصفه لفرسه بانتشار الشعر على وجهها كالسعف في قوله

وأركب في الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر

غير محمود ، إنما المحمود أن تكون العين مكشوفة غير مغطاة بالشعر ، ونقول إن
البيت ليس فيه ما يفهم تغطية العينين ، وقد يكون أراد تقييح منظرها حتى تكون
في الأخافة أشبه بالفارس الكمي المتجهم كما تقدم وجه ذلك .

٤ — وعابوا عليه صغر همته في قوله « وحسبك من غنى شبع وروى » ، ولنا
أن ندفع ذلك بأنه لم يقصد بهذه الكفاية إلا الناحية المادية والقناعة فيها شحودة ،
أما الناحية المعنوية فقد كان همه فيها كما يقول .

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤئل وقد يدرك المجد المؤئل أمثالي

وإذا رد دفعنا بما قد يقال ، من أن هذين البيتين قبلا قبل أن تنحط همته في
حياته الأولى وما أخذ إنما كان في حياته الثانية ، فانا نعدل عنهما واضعين في
الحياة الثانية نفسها بيتيه هذين

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لا حقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا

ه — وأخيرا وجد من قال في بيته المجمع على استحسانه وهو

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهماتأمرى القلب يفعل

إذا لم يعرها ذلك منه فأى شيء يعرها بعد ، ناسيا أن ذلك كلام وقع منه موقع
التقرير والأثبات لاموقع الاستفهام والسؤال ، فهو استفهام خرج عن أصل وضعه ،
وهو بذلك أدل على تهالكه وتصيبه .

وهكذا كل ما أخذ على امرئ القيس جاء غير بالغ درجة الاعتبار ، لا يلبث إذا
نوقش أن يهي وينهار ، وإذن فلا داعى إلى الاطالة فيما لا طائل فيه ، ولننه الترجمة
بهذا القدر وفي ذلك مزيد .

أوس بن حجر

١ - نسبه وحياته

هو كما قال الأصمعي أوس بن حجر بن مالك بن حزن بن عقيل بن خلف بن غيز أحد بطون تميم ، ولم يعرف عن حياته أكثر من أنه كان يعيش معيشة البدو المتنقلين حيث تنتقل تميم في البحرين واليمامة وما يتصل بهما غربا وشمالا من جهات نجد، غير أن رجلا في مكانته ومنزلته الشعرية من قومه خاصة ومن العرب عامة ، لا يمكن أن تفرض عليه الإقامة في بلاد قومه لا يعدوها ، فكانت له رحلات طويلة إلى الحجاز اتصل فيها بفضالة بن كعدة الأسدي ، وأخرى مثلها إلى العراق اتصل فيها بعمر بن هند ملك الحيرة بعد أبيه المنذر القتيل ، وبهذه الصلة أمكن أن يرجح المحققون أن ولادته كانت حوالي الثلث من القرن السادس الميلادي ، لأن قتل المنذر وولاية عمرو كانت في منتصف هذا القرن ، ولا بد أن يكون أوس في هذا الاتصال كان رجلا مكتمل الرجولة ولد قبل ذلك بما لا يقل عن ربع قرن ، أما وفاته فكانت أول ظهور الاسلام حوالي سنة ٦٢٠ م بعد أن بلغ نحو التسعين فهو لذلك من المعمرين .

ولما كانت حياة تميم - كما عرفت في أيام العرب - حياة حرب وزال اشتبكت فيها مع كثير من القبائل الربعية كبكر ، والقيسية كعامر وعبس ، حتى قيل تميم مسعر الحروب ، فقد انعكس أوس في المعامع منذ نشأته ، فخالط الوقائع وخالطته وقال في الظفر مفتخرا وفي الهزيمة معتذرا ، ثم كان لذلك وصافا لأدوات الحرب وعدد القتال ، وكانت هذه الناحية أدعى النواحي الشعرية إلى أن يقول فيها ويحيد ، ولعل بدء اتصاله بعمر بن هند كان عن هذه الناحية الحربية ، فقد أثر فيما أثر من شعره أنه كان لا يزال يحرّضه على الأخذ بثأر المنذر أبيه الذي كان قتلة في حرب مع الحارث الغساني ، وكان أشد تحريضه موجهها إلى الانتقام من حنيفة وسحيم ، إذ كانتا مع الحارث ضد المنذر في هذا القتال ، ثم كان قتل المنذر بيد شمر بن عمرو السحيمي ، وقد استمع ابن هند لهذا التحريض وانتقم منهم كما أراد أوس ، حيث يقول في آخر هذه الأبيات ، أشد انتقام .

تبثت أن بنى سحيم أدخلوا أيّاتهم تامور قلب المنذر (١)
 فلبس ما كسب ابن عمرو رهطه شمر وكان بمسمع وبمنظر
 زعم ابن سلمى مرارة أنه مولى السواقط دون آل المنذر
 منع اليمامة حزنها وسهولها من كل ذي تاج كريم المفخر
 إن كان ظنى بابن هند صادقا لم يحقنوها في السقاء الأوفر (٢)
 حتى يلف نخليهم وزروعهم لهب كمناصية الحصان الأشقر
 فأنخن فيهم قتلا وسيبنا ثم غادرهم وقد حرق زروعهم ونخلهم . والسواقط
 الذين يشير إليهم في شعره ويتخذهم تسكاة لتغيير قلب عمرو ، هم قوم وردوا اليمامة من
 غير أهلها لمواضع التمر فيها ، فأراد عمرو إجلاءهم عنها فأجارهم مرارة بن سلمى الحنفى
 وسوغه عمرو ذلك مضطرا (٣)

أما اتصاله بفضالة بن كدة الأسدى فقد حدث به الأغاني في روايتين رفعت
 إحداهما إلى أبى عبيدة والأخرى إلى الأصمعى قالا . كان أوس بن حجر غزلا مغرما
 بالنساء فخرج في سفر حتى إذا كان بأرض بنى أسد بين شرج وناظرة ، فينا هو
 يسير ظلاما إذ جالت به ناقته فصرعه فاندقت فخذه فبات مكانه ، حتى إذا أصبح

(١) تامور القلب حبه ودمه وشغافه ويطلق على القلب نفسه وعلى عريضة الأسد ،
 (٢) الضمير يعود على النوق والمراد لم يحقنوا لبنها وحقن اللبن صبه في السقاء ليخرج
 زبده (٣) كان مرارة بن سلمى في إجارة السواقط على إرث من أبيه سلمى الذى كانوا
 يموذون بقبه في ذلك كما قال الشاعر .

وأثيت سلميا فعذت بقبه وأخو الزمانة عائد بالامنع
 وكان مثل مرارة في هذا أخوه عمير ، ذكر أبو عبيدة أن رجلا من السواقط قدم اليمامة
 ومعه أخ له جيل ، فقال له قرين أخو عمير لا تردن أبياتنا بأخيك هذا ، فرأى هذا الأخ
 بعد بين أبياتهم فقتله ، وكان عمير غائبا فخافه أخوه قرين ولجأ إلى قتادة بن مسleme من بنى
 حنيمة فحمل إلى أخى القتل ديات مضاعفة وفعلت وجوه بنى حنيمة مثل ذلك فأبى الرجل
 إلا لقود فاخذ عمير أخاه قرينا ومضى به حتى قطع الوادى فربطه إلى نخلة وقال للرجل
 أما إذا أبيت إلا قتله فأمهل حتى أقطع الوادى فاقتله وارتحل عن جوارى فلا خير لك
 فيه فقتله الرجل ، وفى ذلك يقول عمير

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكأت أبونا قد تحير مقابره

غدث جوارى الحى يَحْتَنِينَ السَّكَاةَ وَغَيْرَهَا مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ وَالنَّاسِ فِي رَيْبِيعٍ ،
فِيْنَاهُنْ كَذَلِكَ إِذْ بَصُرْنَ بِنَاقَةِ تَجْوَلٍ وَأَبْصَرْنَهُ مَلَقَى فَفَزَعْنَ فَهَرْنَ ، فِدْعَا بِنَاجِيَةٍ
مِنْهُنَّ فَقَالَ لَهَا مِنْ أَنْتِ قَالَتْ أَنَا حَلِيمَةُ بِنْتُ فَضَالَةَ بْنِ كَلْدَةَ وَكَانَتْ أَصْغَرَهُنَّ ،
فَأَعْطَاهَا حَجْرًا وَقَالَ لَهَا إِذْ هَبِي إِلَى أَبِيكَ فَقُولِي لَهُ ابْنُ هَذَا يَقْرَأُكَ السَّلَامَ ، فَأَخْبَرْتَهُ
فَقَالَ يَا بَنِيَّةُ لَقَدْ أَتَيْتِ أَبَاكَ بِمَدْحٍ طَوِيلٍ أَوْ هَجَاءٍ طَوِيلٍ ، ثُمَّ احْتَمَلَ هُوَ وَأَهْلُهُ حَقِي
بَنِي عَلَيْهِ بَيْتَهُ حَيْثُ صَرَخَ ، وَقَالَ لَهُ وَاللَّهِ لَا أَتَحْوَلُ أَبَدًا حَتَّى تَبْرَأَ ، وَكَانَتْ حَلِيمَةُ تَقُومُ
عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَقَلَّ ، فَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ فِي وَقْعِهِ .

خَذَلْتُ عَلَى لَيْسَلَةَ سَاهِرَهُ بِصَحْرَاءَ شَرَجَ إِلَى نَازِرَةِ
تَزَادَ لَيْسَالِي فِي طَوْلِهَا فَلَيْسَتْ بِطَلْقٍ وَلَا سَاكِرَةٍ (١)
كَأَنِّي أَطَاوُلُ شَوْكَ السِّيَا لَ تَشْكُ بِهَا مُضْجَعِي شَاجِرَةٍ (٢)
أَنْوَاءُ بَرَجَلٍ بِهَا وَهِيهَا وَأُعَيْتُ بِهَا أُخْتَهَا الْعَاثِرَةَ
وَحَيْثُ يَقُولُ فِي حَلِيمَةِ هَذِهِ

لَعَمْرُكَ مَا مَلَتْ ثَوَاءَ ثَوِيهَا حَلِيمَةُ إِذْ أَلْقَى مَرَاسِي مَقْعَدِ
وَلَكِنْ تَلَقَّتْ بِالْيَدَيْنِ ضَمَانِي وَحَلَّ بِشَرَجٍ فَالْنَوَاطِرَ عَوْدِي
وَقَدْ عَبَرْتَ شَهْرِي رَيْبِيعَ كُلِيهَا بِحَمَلِ الْبَلَايَا فِي الْحَبَاءِ الْمَدْدِ
وَلَمْ تَلْهَهِهَا تِلْكَ التَّكَالِيفُ إِنَّمَا كَمَا شَتَّتْ مِنْ أَكْرُومَةٍ وَتَخُودِ (٣)
سَأَجْزِيكَ أَوْ يَجْزِيكَ عَنِّي مَثُوبُ وَقَصْرُكَ أَنْ يَتَنَّى عَلَيْكَ وَتَحْمَدِي (٤)

٢ — فنون شعر

لَقَدْ طَرَقَ أَوْسُ فَنُونًا مِنَ الشَّعْرِ هَدَيْتَهُ إِلَيْهَا طَبِيعَتُهُ وَدَفَعْتَهُ نَحْوَهَا بَيْتُهُ ، كَمَا
أَشْرَفْنَا إِلَى ذَلِكَ حَيْثُ كَانَتْ سِيرَتُهُ ، وَهِيَ نَحْنُ أَوْلَاءُ نَعُودُ فَنَقُولُ ، إِنْ فِي مَكْنَةِ الْبَاحِثِ

(١) الطَّلَقُ لِلْمَرَّعَةِ وَالسَّاكِرَةُ الْمَهَادِنَةُ (٢) السِّيَالُ شَجَرٌ ذُو شَوْكٍ أَيْضٌ طَوِيلٌ
وَالشَّاجِرَةُ الْمَحْرَبَةُ (٣) الْأَكْرُومَةُ الْأَصْلُ ، وَالتَّخُودُ حَسَنُ الْخَلْقِ مَعَ الشَّبَابِ وَالنُّعُومَةُ
(٤) قَصْرُكَ حَسْبُكَ .

في حيانه والقارىء لما أثر من شعره ، أن يرجع ذلك إلى ثلاثة فنون ، أولها الهجاء والمدح والرثاء ، وثانيها الحماسة والفخر والحكمة ، وثالثها الوصف .

١ — هجاؤه ومدحه ورثاؤه

لقد تسرب الهجاء إلى أوس من طريقين كلاهما حمله على أن يقول . فأما أحدهما فعام جاءه من صلته بملوك الحيرة يتشيع لهم ويهجو من يناوئهم . شأن كل تبسيع لبيت ذى مكانة ونفوذ ، يريد أن يحتفظ لنفسه بالرضامن آله والخطوة بمنحه وعطاياه ، وقد تقدم تحميله عمرو بن هند علي بن حنيفة وسحيم ، لما كان من انضمامهما إلى الحارث العسائي ضد أبيه المنذر ، الذي قتل بيد أحد بني سحيم إذ ذاك ، في أبيات يتمثل فيها الجانب السياسى الذى ينسب الشاعر فيه نفسه ، فهو يحرض على الأخذ بشار لا شأن له فيه حفظ أم ضاع ، ثم هو يدس في ثنايا التحريض ما ينبه آل المنذر على استخفاف مرارة بن سلمى بما لهم في الإمامة من نفوذ ، وليس هذا بالعائد عليه بسلطان ، بل كان سبباً فيما ناله علي أيديهم بعد من أضرار ، وذلك أنه جاور فيهم بعد دهر فاتهبوا معزاه واقتسموها ، فذلك حيث يقول غير قادر على الصريح من الهجو وهو بينهم مقيم ، بل عامداً إليه يسوقه في ثوب من النصيح ، يتودد به إليهم ويبدله في سبيل النهوض بأنفسهم من وهدتهم ، غير ناس التنبيه على عزة قومه لو أنهم حضور قال :

فان يأتكم منى هجاء فانما حباكم به منى جميل بن أرقم (١)
تجلل غدرا حرملاء وأقلعت سحائبه لما رأى أهل مله (٢)
فهل لكم فيها إلى فاني طيب بما أعيى النطاسى حذيم (٣)
فأخرجكم من ثوب شمطاء عارك مشهرة بلبت أسافله دما (٤)
فلو كان جار منكم في عشيرتى إذن لرأى للجار حقاً ومحرمها

(١) كان جميل هذا على رأس الناهبين (٢) حرملاء وملهم موضعان (٣) حذيم طيب من الرباب (٤) الشمطاء العجوز ، والمارك الحائض ، والضمير في أسافله للثوب والدم هنا دم الحيض

ولو كان حولي من تميم عصابة لما كان مالي فيكم متقسما
ألا تتقون الله إذ تعلقونها رضيع النوى والعض حولاً مجرماً (١)
وأعجبكم فيها أغر مشهر تلاد إذا نام الربيض تغمغماً (٢)

وأما الثاني فخاص يسىء به إلى كل من أخلف فيه ظناً أو أمارت له رجاء ، كالذى
حدث منه مع أحد الفرسان المعدودين والأجواد المعروفين الحكم بن مروان
بن زنباع العبسى ، فقد ارتحل إليه في حاجة فلم يقضها له فقال يهجوهُ :

إذا ناقة شدت برحل ونمرق إلى حكم بعدى فضل ضلالها (٣)
كأنى حلوت الشعر حين مدحته صفا صخرة صماء يبس بلالها (٤)
هممت بخير ثم قصرت دونه كما ناءت الرجزاء شد عقالها (٥)
تلقيتني يوم النجير بمنطق نروح أرطى سعد منه وضالها (٦)
كأن به أرخية خيرية يعود عليه وردها وقلالها (٧)

وكقوله يهجو بني لبينى :

أبني لبينى لم أجِد أحداً فى الناس ألام منكم حسباً
وأحق من يرمى بداهية إن الدواهى تطلع الحدبا
وإذا تسوئل عن محادثكم لم توجدوا رأساً ولا ذنباً

ومن موجه هجائه هذا البيت :

إذا ما علوا قالوا أبونا وأمنا وليس لهم عامين أم ولا أب

(١) الضمير فى تعلقونها للعرى ، ورضيخ النوى فتاته وكساره ، والعض اليابس والمجرم الكامل

(٢) الأغر المشهر هنا التيس والتلاد الكريم المولد . والربيض القطيع . وتغنم صوت والضمير القيس . (٣) النمرق الوسادة (٤) حلوت منحت . وصفا الصخرة خالصها . والبلال جمع بلة (٥) الرجزاء الناقة المصابة بالرجز وهو داء فى العجز يمنع النهوض (٦) النجير ماء بالعلياء . وتروح اهتز . وسعد موضع وأرطاه وضاله نباته (٧) الأرخية الخيرية ، الحمى ترخى وتطول ، ووردها ، ورودها ، وقلال جمع قلة وهى الرعدة

وكذلك المدح تولد في نفس أوس كما تولد الهجاء . فمنه العام الذي يتجاوز فيه دائرة الأشخاص إلى ما هو أعم من الأشخاص كمدحه لقومه أو لآل لحم . ومنه الخاص الذي يتنكب فيه دائرة العموم كأبياته السابقة في حليلة بنت فضالة . ومما يؤسف له أن ما عداها من مدائحه في الناحيتين قد ضاع وانسحب عليه ذيل العفاء ، والذي يجب أن نقرر هنا جازمين هو أن أوسا لا بد كان ذا مدح كثير في المناذرة وفضالة وغيرهما من طوائف وأشخاص ، وأن مكانته عند فضالة كانت كمكانة زهير عند هرم بن سنان ، وكانت لدى ابن هند كمكانة النابغة عند النعمان ، كما لا بد أن كان له هجاء أكثر كثيرا مما هو معروف الآن ، حتى يتشاكل الاثنان مع قول فضالة المذكور « يا بنية لقد أتيت أباك بمدح طويل أو هجاء طويل ، وكذا مع احتماله بأهله وابتناؤه عليه حيث وقع ومكثه إلى أن استقل وقام ، إنما غطت على ذلك منزلة النابغة وزهير بعد حتى عدت عليه عوادي الزمن ولواحق الأيام ، وإلا فهل يقبل عقل أن يقربه بيت ملك ، ويكون له من فضالة ما كان ، ثم لا يتحرك في ذلك منه لسان ، وليس له أداة شكر سوى البيان ، اللهم إن هذا شيء تأباه الطبيعة ولا يرتاح إلى تصديقه إنسان .

وإذا كنا قد حررنا بفعل الزمن ، الاطلاع على مدحه الخالص الا في تلك الصورة الضئيلة منه لحليمة ، فأننا لانعدم لمس قدرته على المدح في الباقي لنا من رثائه لفضالة ، ولو أن ذلك إلى قدر محدود ، فإن الأمل أمد للمادح منه للرأى ، لما في ذلك من انتظار مثوبة على الأحسان ، وخوف مؤاخذه على التقصير ، لا يجهل أثرهما في تشريف المعاني وتجويد الألفاظ ، ولكنه لحسن وفائه لفضالة قد بلغ درجة يقنع بأقل منها في المديح الماحون .

قال وكان فضالة يكنى أبا دليجة :

يا عين لا بد من سكب وتهمال على فضالة جل الرزعا والعالى (١)

أبا دليجة من يكفي العشيرة اذ أمسوا من الخطب في هم وبلبال
 أم من يكون خطيب القوم اذ حفلوا لدى الملوكة ذوى أيد وأفضال
 أبا دليجة من يوصى بأرملة أم من لأشعث ذى طمرين محال
 أورثنى ود أقوام وخاتمهم وذكره منك تغشاني بأجلال
 لازال مسك وريحان له أرج يسقى صدك بصافى اللون سلسال

ومنها فى مدحه

وما خليج من المروت ذو حذب يرمى الضرير بنخشب الطلح والضال (١)
 يوما بأجود منه حين تسأله ولا مغب بشرج بين أشبال (٢)
 ليث عليه من البردى هـبرية كالمرزبانى عيال بأوصال (٣)
 يوما بأجراً منه حد بادرة على كمي بنهد الحد فصال (٤)
 وقال فى رثائه أيضا .

أيتها النفس أجملى جزعا إن الذى تحذرين قد وقعا
 إن الذى جمع السباحة والنجدة والحزام والقوى جمعا
 أودى فما تنفع الاشاحة من شىء لمن قد يحاول النزعا (٥)
 الألعى الذى يظن بك الظنـ كان قد رأى وقد سمعا (٦)
 الخلف المتلف المرزأ لم يتمتع بضعف ولم يمت طبعاً (٧)

(١) المروت واد لتميم والحذب التيار والضرير الشاطيء ، والطلح والضال شجران
 (٢) شرج مكان والغب الليث يفترس يوما ويترك يوما (٣) البردى نبات ذو هبرية
 أى زغب ، والمرزبانى عظيم الفرس ، وعيال متبخر ، والأوصال أعضاء الجسم
 (٤) حد بادرة شبة سيف ، ونهد الحد ماضيه (٥) الاشاحة الانصراف والنزع
 الاتزاع (٦) الألعى فى الأصل الحديد اللسان وهو يعنى ما ذكره عنه فى البيت
 (٧) الخلف المتلف الذى يتلف ماله كرماء ويخلفه نجدة ، والمرزأ الذى تناله الرزيثات
 فى ماله لما يعطى ويحتمل ، ولم يتمتع بضعف لم يقم عليه والطبع أسوأ الطمع

والحافظ الناس في تحوط إذا لم يرسلوا خلف عائذ ربها (١)
وعزت الشمال الرياح وقد أمسى كميع الفتاة ملتفعا (٢)
وشبه الهيدب العبام من الأقوام سقبا مجللا فرعا (٣)
وكانت السكعب المنعمة الحسنة في زاد أهلها سبعا (٤)
ليبكك الشرب والمدامة والفتيان طرا وطامع طمعا
وذات هدم باد نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعا (٥)
والحي إذ حاذروا الصباح واذ خافوا مغيرا وسائرا تلعا (٦)
وازدحم حلقنا البطان بأقوام وطارت نفوسهم جزعا (٧)

فأجاد الاجادة كلها وأتى بمطلع لم يسبقه اليه سابق ولم يدركه فيه لاحق ، ومن أجل ذلك روى أبو العباس المبرد القصيدة في كامله لطلب ما كان فيه من الكلام على المصائب وموقف المصابين إزاءها ، هذا المطلع الجليل النبيل ، حيث يقول والمصائب ما عظم منها وما صغر تقع على ضربين ، فالجزم التسلي عما لا يغني الغم فيه والاحتيا لرفع ما يدفع بالحيلة ، ومن أحسن القول في هذا المعنى في الاسلام ، قول علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام حين مات ابنه فلم ير منه جزع فسئل عن ذلك فقال « أمر كنا نتوقعه فلما وقع لم ننكره » وفي هذا زيادة

(١) تحوط كتحوط اسمان للسنة الجذبة ، والعائذ الناقة الحديثة النواج ، والربع ابنها في الربيع ، وعدم إرساله خلفها كناية عن نحره ضنا بلبنها (٢) الشمال ريج الشمال ، وعزها الرياح غلبتها إياها ، وهو كناية عن شدة البرد ، وكميع الفتاة ضجيعها ، وإمساؤه ملتفعا بردائه كناية عن شدة البرد أيضا والمراد بالكنايتين الجذب (٣) الهيدم المتهدم الفاني ، والعبام المبي والسقب ولد الناقة عقب الولادة والفرع بالتحريك جلد فصيل يسليخ ويلبسه آخر لتعطف عليه غير أمه . والمراد هنا سوء حال الشيوخ للضعف من الجذب (٤) يعني أنها خرجت عن تمنعها إلى التهام زاد أهلها كالسبع لشدة الجوع وخوف نفاد الطعام (٥) يقول وكما يبيكك هؤلاء من الشاربين ومن ذكر بعدهم تبيكك المرأة ذات الهدم أي الكساء الخلق الرث التي بدت نواشرها أي عروق ساعدها من الهزال والتي تسكت تولبها الجدع أي ابنها الصغير السيء الغذاء بالأيقاد على الماء لتوهمه أنها تصنع طعاما فيسكت انتظارا له (٦) التلع الذي يعلو التلاع (٧) البطان إحزام القتب وازدحام حلقته كناية عن الضيق والشدة

تنتظر وفضل تسليم لقضاء الله عز وجل ، والعرب تقول « الحذر أشد من الوقعة »
وقال رجل من الحكماء « إنما الجزع والاشفاق قبل وقوع الأمر فإذا وقع فالرضا
والتسليم » ، ومن هذا قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله « إذا استأثر الله بشيء
فاله عنه » ثم قال أبو العباس وهو محل الشاهد « ومن أقدم ما قيل في هذا المعنى
قول أوس بن حجر الأسدي من بني عمرو بن تميم يرثي فضالة بن كعدة أحد بني
أسد بن خزيمة .

أيها النفس أجلي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

ثم ساق من بعده سائر القصيدة . وشرحها جزاء الله خيرا :

٣ — حماسة وغرر وحكمته :

وهذه أغراض كان مدخلها إلى نفس أوس أشد من مدخل سوابقها من
هجاء ومدح ورثاء ، ذلك بأنه كان رب شجاعة وبطولة ، وترفع وسيادة ، وعقل
وفكر ، فأمد كل ينبوع من هذه الثلاثة زرعاً من تلك الزروع المتناوحة ،
أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ، وهذى نماذج
من كل فرع .

قال في الحماسة والاستبسال وما لهما في نفسه ونفس أبيه وعشيرته

فلا وإلهي ما غدرت بذمة وإن أبي قبلي لغير مذمم
يجود ويعطى المال من غير ضنة ويغظم أنف الأبلخ المتغشم (١)
نبيح حمى ذى العز حين نريده ونحصى حمانا بالوشيج المقوم (٢)
لعمرك إنا والأحاليف هؤلاء لفي حقبة أظفارها لم تقلم (٣)

إذا مكرم منا ذرا حد نابه
وتحط منا ناب آخر مكرم (١)
ومستعجب مما يرى من أناتنا
ولو زبنته الحرب لم يترمم
فانا وجدنا العرض أحوج ساعة
الى الصون من ريط يمان مسهم
أرى حرب أقوام تدق وخرينا
تجل فنعرورى بها كل معظم (٢)
ترى الأرض منا بالفضاء مريضة
معضلة منا بجمع عرمرم (٣)
وقال فاخرا بأحدى مكرماتهم

فان يعط منا القوم نصبر وننتظر
منى عقب كأنها ظمء مورد (٤)
وإن نعط لا نجعل ولا ننطق الحنا
ونجز القروض أهلها ثم تقصد
وقال يستنهض قومه الى التشبه بآبائهم محافظة على أحسابهم

ورثنا المجد عن آباء صدق
أسأنا فى ديارهم الصنيعا
إذا الحسب الرفيع تواكلته
بناة السوء أوشك أن يضيعا

وقال يفخر بمكارمه فى ثوب من الحكمة والعظة

ولا أعتب ابن العم إن كان ظالما
وأغفر منه الجهل إن كان أجهلا
وإن قال لى ماذا ترى يستشيرني
يجدني ابن عمى مخلط الأمر مزىلا (٥)
أقيم بدار الحزم مادام حزمها
وأحر اذا حالت بأن أتحولا
وأستبدل الأمر القوى بغيره
اذا عقد مأفون الرجال تحللا (٦)

الى أن قال خالصا للحكمة يزجها وللنصيحة يهديها

فانى رأيت الناس الا أقلهم
خفاف العهود يكثرون التنقلا
بنى أم ذى المال الكثير يرونه
وان كان عبدا سيد الأمر جحفلا (٧)

(١) ذرا حد نابه سقط ، ونحط اشتد وقوى (٢) نعرورى فعلو وأصله الركوب على عرى (٣) البيت كناية عن أنهم يخربون ما على الأرضين بجيشهم (٤) المنى التوفيق والعقب الولد ، والضمير فى كأنها لحالة الانتظار التى تشبه فى شدتها عليهم ظمء المورد (٥) يقال هو مخلط مزيل بمعنى هو راتق فاتق (٦) المأفون الضعيف الرأى والعقل (٧) سيدا مفعول يرونه

وهم لقليل المال أولاد علة وإن كان محضا في العمومة مخلولا (١)
وليس أخوك الدائم العهد بالذي يذمك إن ولي ويرضيك مقبلا
ولكنه النأي إذا كنت آمنا وصاحبك الأدنى إذ الأمر أعضلا
ورب من يتخذ اعتذاره من فراره أمام جموع عبس وغيرها ممن عددهم ، طعنا في
شجاعته وإقدامه حيث يقول

أجاعة أم الحصين خزية على فرارى أن لقيت بنى عبس
ورھط أبى شهم وعمرو بن عامر وبكرا فجاشت من لقاءهم نفسى (٢)
مطاعين في الهيجا مطاعيم للقرى اذا اغبر آفاق السماء من القرس (٣)
كأن جلود النمر جيبت عليهم اذا جمعجعوا بين الافاضة والحبس (٤)
فضموا علينا حجرتنا بصادق من الرأى حش النار في الخطب اليبس (٥)
وليس الفرار اليوم عارا على الفقى اذا جربت منه الشجاعة بالأمس (٦)

ولكننا مع إمكاننا نفى هذه الآيات عنه الى عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، كما روى
صاحب العقد مع بعض تغيير ؛ لا نأخذ طريق هذا النفى ؛ بل نعمل على إثباتها له
ونتخذها فيه دليلا على شجاعة متأصلة وحماسة متأججة ، جعلته يعتبر هذا الفرار أمام
جموع يعد التعرض لها تهورا وطيشا ومذمة وشيئا فيتعذر عنهما ويظيل ، ولو كان
على غير ما ذكرنا من شجاعة وحماسة ما دفعته نفسه إلى الاعتذار ولسكت سكوتا

(١) العلة الفرة (٢) جاشت اضطربت من فزع أو حزن كجاشت وجشأت
(٣) القرس شدة البرد (٤) جيبت عليهم قطعت دروعا ، وجمعجعوا صوتوا ، والافاضة
والحبس التقدم والتوقف (٥) الحجرتان الجانبان يقصد ضموا المينة والميسرة على القلب ،
والحش التوقد وهو سريع في الخطب اليابس ، ويصفهم بأنهم في الحرب ذوو رأى مع الشجاعة
التي لا تغنى بدونه (٦) من هذه الآيات أخذ الحارث بن هشام قوله ، وهو من أحسن
ما اعتذر به شاعر من الفرار قال .

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا فرسى بأشقر مزبد
وشممت ريح الموت من تلقائهم في مأزق والحيل لم تبدد
وعلمت أنى إن أقاتل واحدا أقتل ولا يضرر عدوى مشهدى
فصدفت عنهم والأحبة فيهم طمعا لهم بعقاب يوم مرصد

ماله من قرار ، على أن ما عدد في آياته من رغبات لهذا التنحي أخذنا بأمر الحزم
القاضى فى بعض المواطن بالابتعاد ، أباح نسبتها الى الفارس السكى المغوار عمرو
ابن معد يكرب كما فعل صاحب العقد الفريد ، دون أن يخشى فى ذلك على عمرو
نقصا أو يتوقع فى صفه له من ورائها عيباً .

٣ — وصفه :

أما استعدادده للوصف فكان مختلطاً منه بالدم واللحم ، بحيث لو أردنا أن نقصر أوسا
على فن واحد لما تجاوزنا أنه شاعر وصاف ، وقد تجلت منه هذه المقدرة فى وصف
أسلحة الحرب وعدد القتال ، وفى وصف الوحش من حمر وثيران ، ثم ما يتعلق به
من محاولة الصيد برمى سهام أو إرسال كلاب ، وشعره فى كلتا الحالتين آيات
بينات .

قال من قصيدة جامعة يصف عدته للحرب .

وإني امرؤ أعددت للحرب بعدما رأيت لها نابا من الشر أعصلا (١)
أصم ردينيا كأن كعبه نوى القسيب عراضا مزجا منصلا (٢)
عليه كمصباح العزيز يشبه لفصح ويخشوه الدبال المقتلا (٣)

هذا وصف الرمح ، ثم قال منها فى الدرع

وأملس حوليا كنهى قراره أحسن بقاع نفخ ريح فأجفلا (٤)
كأن قرون الشمس عند ارتفاعها وقد صادفت طالعاً من النجم أعزلا (٥)
تردد فيه ضوءها وشعاعها فأحصن وأزين لامرى إن تسربلا (٦)

(١) أعصل ملتو (٢) القسيب النوى اليابس والعرا من اللون والمزج ذوالرج والمتصل ذو
النصل ، والثلاثة من صفات رمحه الذى عبر عنه بقوله أحمر ردينيا (٣) العزيز هنا الراهب
والفصح من أعياد النصارى (٤) الأملس الحولى هو الدرع والنهى الغدير ومن شأنه إذا
أحسن من قاعه نفخ الريح أجفل مأوّه واضطرب ، فغلت سطحه حلقات لادعة هى التى يشبه بها
الدرع (٥) طلعا من النجم طالعا من النبات ، وأعزل وحيدا منفردا (٦) تسربل
لبس السربال وهو القميص .

ومنها في وصف السيف

- وأبيض هنديا كأن غراره تلالؤ برق في حي تكلا (١)
إذا سل من غمد تأ كل أثره على مثل مصحاة اللجين تأ كلا (٢)
كأن مدب النمل يتبع الربا ومدرج ذر خاف بردا فأههلا (٣)
على صفحتيه من متون جلالة كفى بالذى أبلى وأنعت منصلا (٤)

ومنها في وصف القوس وقد أطل فيه أيما إطالة وأبدع أيما إبداع

- ومبضوعة من رأس فرع شظية بطود تراه بالسحاب مجلا (٥)
على ظهر صفوان كان متونه عللن بدهن يزلق المتنزلا (٦)
يطيف بها راع يحشم نفسه ليكلأ فيها طرفه متأملا (٧)
فلاقى امرأ من ميدعان فأشمحت قروته باليأس منها وعجلا (٨)
فقال له هل تذكرن مخبرا يدل على غم ويقصر معملا (٩)
على خير ما أبصرتها من بضاعة للمتمس يبعأ لها وتبكلا (١٠)
فويق جبيل شامخ الرأس لم يكن ليبلغه حتى يكل ويعملا
فأبصر ألهاها من الطود دونها يرى بين رأس كل نيقين مهلا (١١)
فأشروط فيها رأسه وهو معصم وألقى بأسباب له وتوكلا (١٢)
وقد أكلت أظفاره الصخر كلما تعيا عليه طول مرقى تسهلا (١٣)

- (١) الفرار الحد والحبي السحاب وتكلل تبسم عن البرق (٢) أثر السيف بالضم والفتح فرنده ووروقه، والمصحاة الطاس أو لجام، وتأ كل اشتد بريقه (٣) الذر صفار النمل (٤) المتون السطور (٥) المبضوعة المقطوعة والشظية الفلقة من الشيء (٦) المتون هنا الظهور وعللن سقين المرة الثانية (٧) يكلأ يتمتع (٨) ميدعان مكان بعينه، والقرونة النفس (٩) المعمل المجد (١٠) التبكّل الغم (١١) الألهاب جمع لهب بالكسر وهو الصدع في جانب الجبل، والنيق بالكسر المكان المرتفع والمهبل بكسر الباء الملهوى من رأس الجبل (١٢) أشروط نفسه أدخلها وألزمها والمعصم للتهنيء (١٣) تعيا عليه أعياه

فما زال حتى نالها وهو مشفق على موطن لو زل عنه تفصلا (١)
 فأقبل لا يرجو الذي سعدت به ولا نفسه الا رجاء مؤملا (٢)
 فلما قضي مما يريد قضاءه وحل بها حرصا عليه فأطولا
 أمر عليها ذات حد غرابها رفيق بأخذ بالمداس صيقل (٣)
 على فخذه من براية عودها شبيه سفا البهي اذا ماتفتلا (٤)
 فجردها صفراء لا الطول عابها ولا قصر أزرى بها فتعطلا
 كتوم طلاع الكف لا دون ملثها

ولا عجبها من موضع الكف أفضل (٥)

اذا ما تعاطوها سمعت لصوتها اذا أنبضوا عنها نثيما وأزملا (٦)
 وإن شد فيها النزغ أدبر سهمها الى منتهى من عجبها ثم أقبلا (٧)

ثم ختم بالكنانة والسهام حيث يقول .

وحشو جفير من فروع غرائب تنطع فيها صانع وتنبلا (٨)
 تخير أنضاء وركبن أنصلا كجمر الغضى في يوم ريح تزيلا (٩)
 فلما قضي في الصنع منهم همه فلم يبق الا أن تسن وتصللا
 كساهن من ريش يمان ظواهرها سخاما لوأما لين المس أطحلا (١٠)

وأنهى ما أراد بهذا البيت العام كما بدأ بيت عام

فذاك عتادي في الحروب إذا التظت وأردف بأس من حروب وأعجلا
 وقال من أخرى يصف العير الوحشى ومخاتلة القانص له وإخفاقه في صيده ،
 متخلصا اليه من وصف الناقة ومجيدا كل الاجادة .

(١) تفصل تقطع (٢) الذى سعدت به كناية عن رجله (٣) ذات الحد الفأس وغرابها
 حدها والمداس جمع مدوس كمنبر آلة الصقل (٤) البراية ما يرى والبهي نبت وسفاها
 شوكةا وتقتل سقط (٥) كتوم مصمتة وطلاع الكف ملؤها والعجس المقبض
 (٦) أنبضوا حركوا وترها ، والنثيم صوت القوس والأزمل رنينها (٧) إقبال
 القوس وإدبارها كناية عن أنها لبنة الحركة في صلابة عود (٨) الجفير الكنانة
 وتنطع تأنق وتنبل تخير (٩) الأنضاء المهازيل وتزيل تفرق وتطير (١٠) سخاما
 ريشا متطيرا . ولوأما متلاثما . وأطحل من الطحلة وهي القبرة تضرب الى السواد في يباض
 قليل .

- كأنى كسوت الرجل جأبا مكدما له بجنوب الشيطان مساوف (١)
 يصرف حقباء العجيزة سمحجا بها ندب من زره ومناسف (٢)
 وحلاها حتى إذا هي أحنقت وأشرف فوق الحالبين الشراسف (٣)
 فأضحى بقارات الستار كأنه ربيعة جيش فهو ظمآن خائف (٤)
 يقول له الرءاون هذالك أراكب يؤبن شخصا فوق علياء واقف (٥)
 إذا استقبلته الشمس صدبوجهه كما صد عن نار المهول حالف (٦)
 تذكر عينا من غمازة ماؤها له حجب تستن فيه الزخارف (٧)
 فأوردها التقريب والشد منها قطاه معيد كرة الورد عاطف (٨)
 فلاقى عليه من صباح مدمرا لنا موسه من الصفيح سقائف (٩)
 صد غائر العينين شقق لحمه سهايم قيظ فهو أسود شاسف (١٠)
 أذب ظهور الساعدين عظامه على قدر شثن البنان جنادف (١١)
 أخو قترات قد تيقن أنه إذا لم يصب اللحم من الوحش خاسف (١٢)
 معاود تأكال القنيص شواؤه من اللحم قصرى رخصة وطفاطف (١٣)
 قصي مبيت الليل للصيد مطعم لأسهمه غار وبار وراصف (١٤)
 فيسر سهما راشه بمنالك ظهار لؤام فهو أعجف شارف (١٥)

(١) الجأب الغليظ من جمر الوحش، والمكدم المعضض والشيطان، وضع، والمساوف المشام
 مواضع أبوال الحر (٢) حقباء بيضاء والسمحج الطويلة . والندب أثر الجروح. والز
 الضرب والمناسف جمع منسف مواضع العش (٣) حلاها تنبعها . وأحنقت يبست ،
 والشراسف الأضلاع (٤) الستار مكان ، وقاراته جباله (٥) أى يقول الرءاون عنه
 (٦) الحالف موقد نار الحلف والمهول الملقى فيها بالملح (٧) غمازة بقعة باليمن كثيرة
 عبون الماء والزخارف هنا طرائق الماء ومناظره (٨) القطا العجز أو ما بين الوركين
 (٩) صباح قبيلة . والمدمر القانص . والصفيح الحجارة العريضة الرقاق
 (١٠) شاسف يابس ضامر (١١) الأذب الكثير الشعر ، وشثن البنان جمعدها
 والجنادف القصير (١٢) القترات جمع قتره وهى السترة ، والحاسف الهالك
 (١٣) القصرى إحدى ضلعين يليان الترقوه ، والرخصة اللينة ، والطفاطف جمع طفطفة
 وهى أطراف الجنب المتصلة بالأضلاع (١٤) غارطال بالفراء ، وبارمن البرى ، وراصف
 ناظم (١٥) المناكب خوافى الريش بلا واحد ، وشبه بها السهم ، وظهار لؤام ظاهره
 متلألئة ، وشارف عتيق قديم

فأمهله حتى إذا ما كانه معاطى يد في لجة الماء غارف
وأرسله مستيقن الظن أنه مخالط ماتحت الشراسف جائف (١)
فمر النضي للذراع ونحره ولموت أحيانا عن النفس صارف (٢)
فعض بأبهام الخمين ندامة ولهف سرا أمه وهو لاهف

وقال من ثالثة يذكر ثور الوحش تتبعه الكلاب فيظفر بها ولا تنال منه .

فقلتهن وأزمعن اللحاق به كأنهن بجنييه الزناير
حتى إذا قلت نالته أوائها ولو يشاء لنجته المثار (٣)
كر عليها ولم يفتأ يمارسها كأنه بتوالين مسرور
يشلها بذليق حده سلب كأنه حين يعلو هن موتور (٤)
ثم استمر يبارى ظله جذلا كأنه مرزبان فاز محبور (٥)

فهذه صور حسية أبرزها رائعة كاملة في هذين النوعين من الأوصاف ، فاقتدى به
غيره فيها من الشعراء ، الذين عنوا بهذه الناحية عنايته ، وأولوها من نفوسهم ما أولاهها
من نفسه ، فهي واسطه شعره ، أما مجنبتاه فما قدمنا من هجاء ورثاء ومدح وماتبع
ذلك من حماسة وحكمة وفخر .

على أن هذا الذي جرينا عليه من حد فنونه بهذه الدائرة ذات الشعب الثلاث ،
وحد كل شعبة بما ذكرنا لها من فروع ، إنما كان مأخوذا بما وصل إلينا من شعره
وتعرفناه من خبره ، لا منتزعا من الواقع الذي نجمله ، والذي لا يبعد أن يكون
أوسع مما ذكرنا فانا ، لا نزال نلمح عنه في ثنايا الكلام أقباسا ، ولكن ما أثر يقصر
دون مدنا بالشواهد عليها ، ويقفنا أمامها بعيدين أن نستدفيء بحرها أو نستضيء
بنورها

ففي القصة الماضية يبتدىء أبو عبيدة والأصمعي بقولهما « كان أوس بن حجر
غزلا مغرما بالنساء » وإذا ما تلمسنا آيات هذا الغزل والغرام فيما لدينا من شعره ،

(١) جائف غائر إلى الجوف (٢) النضي السهم .
(٣) المثار المفصل جمع مثار (٤) الذليق القرن المحدد (٥) المرزبان عظيم الفرس

لا نجدها إلا مطالع غير متجاوزة ما كان لعامة العرب من تشبيب ، كالذى يقول من فائتته المختار بعضها آتفا والتى مطلعها .

تكرر بعدى من أميمة صائف فبرك فأعلى تولب فالخالف (١)

بعد أبيات فى تنكر المعاهد وبلى الرسوم ، ما يشير إلى شىء من لدات صباه فى إيجاز وهو :

وقد أنتحى للجهل يوما وتنتحى طعائن لهُو ودهن مساعف
نواعم ما يضحكن إلا تبسما إلى اللهو قد مالت بهن السوائف
وكان يقول فى مطلع الميمية التى أخذنا بعض أبياتها فى حيثه ليس مختزلا
لاسماها تدليلا :

تكرت منا بعد معرفة لمى وبعد التصانى والشباب المنعم
وكان يقول فى مطلع اللامية المذكور كثير من أبياتها آتفا :

صحا قلبه عن سكرة وتأملا وكان بذكرى أم عمرو موكلا
وكان له الحين المتاح حملها وكل امرئ رهن بما قد تحملا
فاذا أردنا أن تتخذ هذا دليلا على غزله ، لم يسعفنا لقلته ولأنه كان لا يقصد
إليه قصدا ، وسرعان ما كان ينصرف عنه إلى غيره انصرافا ، فهو يقول بعد ذلك
من هذه القصيدة :

ولو كنت فى ريمان تحرس بابهُ أراجيل أحبوش وأغضف آلف (١)
إذن لأتنى حيث كنت منيقى يخب بها حاد لأثرى قائف (٢)
فان يهو أقوام رداى فائقى يقينى الآله ما وقى وأصادف

(١) أميمة محبوبته والأسماء الأربعة بعدها لأنها كنهن .

(٢) ريمان حصن منيع ذو باب واحد ، والأراجيل جمع من الرجال ، وأحبوش مختلف الأجناس ، والأغضف السكب المسترخى الأذن ، وهو نوع من السكاب والآلف الملازم
(٣) قائف مقبم ، من القيافة

وهناك أبواب في الوصف يذكرها الرواة له ، فابن الأعرابي يقول عنه في ذكر مزايا بعض الشعراء « لم يصف أحد الخيل إلا احتساج إلى أبي دواد ، ولا وصف الخمر إلا احتساج إلى أوس بن حجر » إلى آخر ما ذكر ، وهو شيء لا نجد في المأثور من شعره ، اللهم إلا تابعا غير مقصود كقوله في وصف الريقة محسنا .

كأن ريقها بعد السكرى اغتبت من ماء أدكن في الحانوت نضاح (١)

أو من معتقة ورهاء نشوتها أو من أنابيب رمان وتفاح (٢)

علي أن أهل السكوفة يروون هذين البيتين لعبيدين الابرص الذي ينازعه هذه القصيدة الحائية في وصف السحاب والمطر والبرق ، ومعظم الرواة يغلب عبيدا فيها كما فعل الكوفيون ، وكما فعل هبة الله العلوى في مختاراته ، فقد أثبت هذه القصيدة لعبيد وإن لم يأت فيها بالبيتين المذكورين في الريقة . وبذلك ترجح أن وصف السحاب والمطر في الأبيات التي مطلعها .

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه في عارض كياض الصبح لملاح (٣)

وهو وصف حافل متسع لعبيد لاله ، ويزيد هذا الترجيح تأييدا وجود نظائر له

(١) الأدكن الزق العتيق من الخمر (٢) الورهاء الشديدة الرائحة

(٣) تنمة هذه الأبيات بعد البيت المذكور كما رويت لأوس هي : —

دان مسف فوق الأرض هيدبه	يكاد يدفعه من قام بالراح
فن بنجوته كمن بمحفله	والمستكن كن يمشى بقرواح
كأن ريقه لما علا شطبا	أقرب أبلق ينق الخيل رماح
فالتج أعلاه ثم ارتج أسفله	وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح
ينق الحصاعن جديد الأرض مبتكا	كأنه فاحص أولاعب داح
كأنما بين أعلاه وأسفله	ريط منشرة أوضوء مصباح
كان فيه عشاراجلة شرفا	شعثها ميم قدهمت بأرشاح
بحاينا جبرها هدى لا مشافرها	تسيم أولادها في قرقر ضاح
هبت جنوب بأولاه ومال به	أعجاز وزن يسح الماء دلاح
فأصبح الأرض والقيعان مترعة	من بين مرتفق بمنا ومنطاح

في شعر الأول دون الثاني ، ومع ذلك لو أردنا أن ندعى هذا الوصف لأوس على أن له نظائر وأشباها قد ضاعت ، وأن ندعى له كذلك أوصافا في النساء والخمر ، لما كنا في ذلك مخطئين ، ولكن أين المأثور المثبت والشاهد المحقق ، فلنقف منه عند الفنون التي ذكرنا ، تاركين ما قفينا به بين الشك واليقين ، وحسبه قوة شاعرية ما أسلفناه

٣ — مكانته

— أن أن نذكر بعض آراء المتقدمين في أوس —

عده أبو عبيدة من الطبقة الثالثة وقرئته بالخطيئة ونابعة بنى جعدة ثم قال « كان أوس شاعر مضر حتى أسقطه النابغة وزهير فهو شاعر تميم في الجاهلية غير مدافع » . وقال أبو عمرو بن العلاء « كان أوس فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأحمله » فاتفق في ذلك مع أبي عبيدة فيما قال .

وجعله هشام الكلب من طبقة ليبد بن ربيعة والشمخ بن ضرار ، وذكر أن تميم مجمعة على تقديمه غير آبه برأي بعضهم في تقديم عدى بن زيد عليه .

ويظهر أن ابن سلام يعدة في الطبقة الثانية لأن جميع شعراء الطبقات دونها المذكورون ، وليس فيها هي إلا اثنان كعب بن زهير والخطيئة والاثنان الآخران ساقطان فيترجح أنه أحدهما ، إذ لا يعقل إغفال ابن سلام له في الطبقات .

وقال ابن قتيبة عنه في كتابه الشعر والشعراء « كان أوس عاقلا في شعره ، كثير الوصف لمكارم الأخلاق ، وهو من أوصاف الشعراء للخمر والسلاح ولا سيما القوس ، وله سبق إلى دقيق المعاني وكثير الأمثال » ثم ذكر بعض الشواهد على ما أراد ويغني عنه ما قدمنا فلا داعي إليه الآن .

وجملة القول أن أوسا كان شاعرا خلا ، شريف المعاني دقيقها ، حسن الأساليب قويها ، لم يك له في أوليته من قرين ، ولكن النابغة وزهير استفادا من شعره وفاقاه في غير الأوصاف . أما الشعراء الوصفون فقد استعانوا به فيما قال ، ولكنهم لم يدركوه ، فله على الأولين فضل وعلى الآخرين فضلان ؟

أمية بن أبي الصلت

١ - نسبه وحياته

هو أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي ، وأمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف ، فهو يضرب في نسبه من الجهتين إلى أرومتين عظيمتين .

نشأ أمية مفطوراً على الدين فكان كلما ذهب إلى الشام للتجارة اتصل برجال الدين وأكثر الاختلاط بهم ، حتى حمله ذلك على الزهد في الدنيا فزهد فيها وليس المسوح وتعبه ، وتولد في نفسه حب الاطلاع على الكتب القديمة ولا سيما التوراة والانجيل ، فعرف كثيراً من التعاليم الدينية والصفات الالهية والأخبار الغيبية والقصص التاريخية ، وشك في الاوثان وحرم الحمر ، وحن إلى حنيفة إبراهيم وإسماعيل ملة العرب السمحة ، وإن كان لم يقلع عن التردد على الديور يجالس الرهبان ، والاختلاف إلى الكنائس يسأل القسوس ، وكأنه عرف من هؤلاء اقتراب نبوة تظهر في العرب على رجل منهم — أيهم ، فكان يرجو أن يكون إياه ، فلما ظهرت في النبي ﷺ سقط في يده وقال « إنما كنت أرجو أن أكونه » وامتلأ عليه حقدًا وغيظاً ، ولم يطق أن يقيم على مقربة منه ، فسار بأهله إلى أقصى اليمن ، ولكنه عاد إلى الطائف ثانياً بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وبقي بها إلى أن توفي في السنة التاسعة في الهجرة .

ويروون أنه لما مرض مرضته التي مات فيها جعل يقول « قد دنا أحلى وهذه المرضة مني ، وأنا أعلم أن الحنيفة حق ، ولكن الشك بداخلي في محمد » وأن وفاته لما دنت أغمى عليه قليلاً ثم أفاق وهو يقول :

ليكما ليكما هأنذا إليكما

لا مال يفديني ولا عشيرة تنجيني ، وأغمي عليه ثانية ثم أفاق وهو يقول :

ليكما ليكما هأنذا إليكما

لا برىء فأعتذر ولا قوى فأنتصر ، وأغمي عليه ثالثة ثم أفاق وهو يقول :

ليكما ليكما هأنذا إليكما

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما

ثم أقبل على القوم فقال ، قد جاء وقتي فكونوا في أهبي ، واستمر يحدثهم حتى كان آخر قوله هذه الأبيات :

كل عيش وإن تطاول دهرًا منتهى أمره إلى أن يزولا

ليتنى كنت قبل ما قد بدالى فى رءوس الجبال أرعى الوعولا

فاجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا

وسواء صح هذا أم لم يصح ، فقد أقام أمية ما أقام على غير الإسلام ومات

كذلك ، وليس يشفع له ما يقول ، مادام قد أبى النطق بالشهادتين ، واستمر

يعادى رسول الله ﷺ حتى تغيرت بذلك نظرته اليه بعد الاسلام عنها قبله .

٢ - شعره ومذهبه

لايسع الباحث فى شعر أمية يعرف به ويبين فنونه ، إلا أن يشطره شطرين

يبين كلاهما الآخر مبينة واضحة ، فى الأغراض والمعانى وفى الألفاظ والأساليب ،

مأخذهما شعره فى غير الدين ، والثانى شعره الدينى ، وهذا رأينا فى كل :

١ — شعره في غير الدين

نحا أمية في هذا النوع من الشعر منحى الشعراء من حيث اتحاد الأغراض والتقارب في المعاني والألفاظ ، وإنما لم نسحب كلمة الاتحاد من الأغراض إلى ما بعدها من المعاني والألفاظ ، ووضعنا كلمة التقارب دونها ، لأن أمية كان يخالفهم فيها بعض المخالفة ، إذ كانت ألفاظه سهلة في رصانة ، ومعانيه دقيقة في وضوح .

وتكاد تنحصر أغراضه هنا في المديح والثناء والفخر والوصف .

١ — المديح والثناء — انقطع أمية في جاهليته إلى رجل من قريش سيد عظيم جواد كريم ، هو عبد الله بن جدعان التيمي ، لا يزال يمدحه وينال السني من هباته ، وهذه قصة مما كان بينهما من صلات جعلت عطاء ابن جدعان ثمينا حافلا ، ومديح أمية كفيئا معادلا ،

ذكروا أن أمية دخل عليه وعنده قينته تغنيانه ، فقال له عبد الله ، أمر ما أتى بك ، قال كلاب غرماء نبحتني ونهشتني ، فقال قدمت على وأنا عليل من حقوق لزمتني ونهشتني فأنظرنى قليلا وقد ضمنتك قضاء دينك ولا أسأل عن مبلغه ، فأقام أمية أياما ثم أتى فأنشده :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني	حياؤك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحق — وق وأنت فرع	لك الحسب المهذب والثناء
خليل لا يغيره صباح	عن الخلق الجميل ولا مساء
وأرضك كل مكرمة بنتها	بنو تيم وأنت لها سماء
إذا أثني عليك المرء يوما	كفاه من تعرضه الثناء
تبارى الريح مكرمة ومجدا	إذا ما السكب أججره الشتاء (١)
إذا خلفت عبد الله فاعلم	بأن القوم ليس لهم جزاء
فأبرز فضله حقا عليهم	كما برزت لناظرها السماء

(١) أججره أدخله ججره من شدة البرد ، كناية عن الجذب .

فهل تخفى السماء على بصير وهل بالشمس طالعة خفاء

فلما سمع عبد الله ذلك أشار الى القينتين وقال له خذ أيتهما شئت فأخذ إحداهما وانصرف ، فلامت قریش أمية وشدت عليه أن يردھا ، فلما عاد بها أبى عبد الله أخذھا وقال أمية :

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته يبدل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

فقال عبد الله ، خذ الأخرى فأخذهما جميعا وخرج بهما إلى الدين لاموه وهو يقول

ذكر ابن جدعان بخير كلما ذكر الكرام
من لا يخون ولا يعق ولا تغيره اللثام
نجب النجبة والنجيب له الرحالة والزمام (١)

ومن خيرة مدائحہ له قوله وقد صنع الفالوذ ووضع موائده بالأبطح إلى باب المسجد ، ونادى الناس فحضروا ، وكان هذا أول أكلهم له ، وجاء أمية فقال :

ومالى لا أحبيه وعندى مواهب يطلعن من النجاد
إلى وإنه للناس نهى ولا يعتل بالكلم الصوادى (٢)
لأبيض من بنى تيم بن كعب وهم كالشرفيات الحداد
لكل قبيلة هاد ورأس وأنت الرأس تقدم كل هاد
له بالحيف قد علمت معد وإن البيت يرفع بالعماد (٣)
له داع بمكة مشعل وآخر فوق دارته ينسادى (٤)
إلى ردم من الشيزى ملاء لباب البر يلبك بالشهاد (٥)

ومنها وقد دخل عليه وهو يجود بنفسه فقال له كيف تجددك أبا زهير قال إني لمداير ، أى ذاهب فقال وكأنه يرثيه فى احتضاره ،

(١) نجب النجبة أى نجيب ابن نجبية والنجيب الكريم الحبيب (٢) النهى بفتح أو كسر الغدير والكلم الصوادى الجافة (٣) الحيف موضع بمعى (٤) مشعل مشرف (٥) الردم جمع ردام وهى الجفنة العظيمة ، والشيزى الأبنوس .

علم ابن جدعان بن عمرو أنه يوما مدابر (١)
ومسافر سفرا بعيدا لا يؤوب به المسافر
فقدوره بفنائه للضيف مترعة زواجر
تبدو الكسور من انضرا ج الغلي فيها والكر (٢)
فكأنهن بما حمين وما شحن بها ضرائر (٣)
زبد وقرقرة كقر قرة الفحول اذا تخاطر
بذ المعاشر كلها بالفضل قد علم المعاشر
وعلا علو الشمس حتى م ما ينفـاخره مفاخر
دانت له أبناء فهر من بنى كعب وعامر
أنت الجواد ابن الجواد بكم ينافر من ينافر
وقال يرثي زمعة بن الأسود وأخاه عقيل من بني أسد .

عين بكى بالمسيلات أبا الحارث لا تذخرى على زمعه
وعقيل بن أسود أسد البأس ليوم الهياج والدقعة (٤)
فعلى مثل هلكهم خوت الجوارى لا خانة ولا خدعه
وهم الأسرة الوسيطة من كعب وفيهم كذروة القمعه (٥)
أنتوا من معاشر شعر الرأس وهم ألحقوهم المنعه
فبنو عمهم إذا حضر البأس عليهم أكبادهم وجعه
وهم المطعمون إذا أفضط القطر وحالت فلا ترى قزعه (٦)

(١) مدابر ذاهب

(٢) يقال جفنة أكسار إذا كانت واسعة وموصلة لذلك، وانضراج الغلي انساعه والكر الكرا
جمع كركرة وهي صدر كل ذى خف أو رحي زور البعير

(٣) حمين غلين وشحن اجتمعن

(٤) الدقعة التراب ويعنى به غبار الحرب

(٥) القمعة السنام

(٦) القزعة السحابة

ومن حائيته التي رثى بها قتلى بدر وفيهم عتبة وشيبة ابنا خاله قوله

ألا بكيت على الكرام بنى الكوام أولى المادح (١)
كبكا للحمام على فرو ع الأيك في الغصن الجوانح (٢)
يبكين حرى مستكيت ناتيرحن مع الروائح
أمثالهن الباكيات المعولات من النوايح
من يبكهن يبكى على حزن ويصدق كل مادح
من ذا يبدد القنفذ قتل من مرازمة ججاجح (٣)
مدافع البرقين فالحنام من طرف الأواشح (٤)
شمط وشبان بها ليل مغاوير دحاح (٥)
أو لا ترون لما أرى ولقد أبان لكل لامح
أن قد تغير بطن مكة فهى موحشة الأباطح
من كل بطريق لبط ريق نقي اللون واضح
دعموص أبواب الملو نوجائب للخرق فاتح (٦)
ومن السراطمة الجلا حمة الملاوثة المناسح (٧)
القائلين الفاعل ين الأمرين بكل صالح
المطعمين الشحم فو ق الحبز شحما كالأنافح (٨)
نقل الجفان مع الجفان إلى جفان كالمناسح (٩)
ليست بأصغار لمن يقفوا ولا رح رحارح (١٠)

(١) ألا هنا بمعنى هلا (٢) الغصن هنا اسم جنس واحدته غصنة والجوانح الموائل (٣) العنققل موضع قرب بدر ، والمرازبة عظام الفرس . والججاجح السادة (٤) مدافع البرقين موضع والحنام والأواشح أسماء مواضع (٥) الدحاح القصار (٦) الدموص الدخال الزوار للملوك (٧) السرطم البين القول في الكلام والجلحم الصراع . والملوث الشريف . والمناسح جمع منجج (٨) جمع إنفحة وهى شئ يستخرج من بطن الجدى الرضيع أصفر فيعصر في صوفة فيغلظ كالجبين وهو المنفحة والبنفحة أيضا .

(٩) جمع منضحة وهى الزرافة

(١٠) جمعها رحاء ورحارح وهى القرية القاع من الجفان

وهب المئين من المئين الى المئين من اللوامح
سوق المؤبل للمؤبل صادرات عن بلادح (١)
لكرامهم فوق الكرا م مزية وزن الرواجح
كشاكل الأبطال بالقس طاس في الأيدى النوافح
خذلتهم فئة وهم يحمون عورات الفضائح
الضاربين التقديم ة بالمهنة الصفائح (٢)
ولقد عناني صوتهم من بين مستسق وصائح
لله در بنى علي م أيم منهم ونا كح
إن لم تغـيروا غارة شعواء تجحر كل نابح (٣)
بالمقربات المبعديات الطامحات مع الطوامح
مردا على جرد الى أسد مكالبة كوالح (٤)
ويلاق قرن قرنه مشى المصافح للمصافح
بزهاء ألف شمأ ف بين ذى بدن ورامح (٥)

٢ — الفخر — كانت مادة الفخر أمام أمية كثيرة دسمة في بيت أبيه من ثقيف
وبيت أمه من عبد شمس ، وكان قوله فيه فائقا بالغا وإن كان مقلا ، ولعل إقلاله
في هذا الباب ناشئ من ميله إلى الناحية الدينية التي تزهد الأنسان في مفاخر هذه
الحياة ، ولذا يغلب عندنا أن تكون مجمرته في الفخر قد قيلت قبل أن يتوغل في
الورع والتدين ، وهي حافلة بما له ولقومه من مكانة وعلاء ، وقد جاءت متفقة مع
معلقة ابن كلثوم وزنا ورويا ومتحدة معها في كثير من المعاني والأساليب ، لما في طبع
أمية من ميل إلى السهل النازع اليه عمرو دون غيره من رجال المعلقات ،
ومنها بعد المطلع وسائر أبيات التشبيب .

(١) بلدح واد قبل مكة وجميعه باعتبار أجزائه والمؤبل الكثير الأبل (٢) التقديمية الجماعة
المتقدمة في الحرب (٣) تجحره . تدخله جحره (٤) مكالية شديدة الوطأة . وكوالح
كواشر (٥) البدن بالتحريك الدرع ، والرامح ذو الرمح .

فاما تسألني عني لبيني وعن نسي أخبرك اليقيننا
 ثقي أنني النبيه أبا وأما وأجدادا سموا في الأقدمينا
 ورثنا المجد عن كبرا تزار فأورثنا ما أثرنا البنينا
 وأرصدنا لريب الدهر جردا تكون متونها حصنا حصينا
 وخطيا كأشطان الركيا وأسيفا يقمن وينحنيا (١)
 وفتيانا يرون القتل مجدا وشيئا في الحروب مجر بينا
 تخبرك القبائل من معد إذا عدوا سعاية أولينا
 بأننا النازلون بكل ثغر وأنا الضاربون إذا لقينا
 وأنا المانعون إذا أردنا وأنا المقبلون إذا دعينا
 وأنا الحاملون إذا أناخت وأنا الرافعون على معد
 نشرد بالمخافة من أتاننا ويعطينا المقادة من يلينا
 إذا ما الموت غلس بالمنايا وذبلت المهتدة الجفونا (٢)
 وألقينا الرماح وكان ضرب يكب على الوجوه الدراعينا
 نسير بمعشر قوما لقوم وندخل دار قوم آخرينا

٣ — الوصف — لم يجز أمية على سنن الشعراء في التعرض للأوصاف الحسية
 المتناثرة على أرض الجزيرة وفي أجوائها ، إلا ما كان يسوقه من مظاهر الكون الدالة
 على عظمة الله وتفرد به بتدبير الوجود كما سيأتي في شعره الديني . إنما كان إذا تعرض
 للأوصاف انحاز إلى جانب المعاني فصور ببيانته الدقيق ما يريد أن يكشف عنه أتم
 تصوير ، ومن ذلك ما قاله يصف فيه عقوق ابنه له وآيات هذا العقوق منه ، موازنا
 بينها وبين عواطف الأبوة التي عدد منها آيات كانت تتطلب حسن الجزاء فعدمه كما
 عدم معه الرفق في العقوق ، قال

غدوتك مولودا وعلتك يافعا تعل بما أحنو عليك وتنهل

(١) أشطان الركيا جبال الآبار واحدها شطن وركية .

(٢) غلس بالمنايا سار بها غلسا أي ظلما

إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت لشكواك إلا ساهرا أتململ
 كأني أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني فعيناي تهمل
 تخاف الردى نفسى عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل
 فلما بلغت السن والغاية التي إليها مدى ما كنت فيك أوئل
 جعلت جزأى غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
 وسميتنى باسم المفند رأيه وفي رأيك التنفيذ لو كنت تعقل (١)
 فليتك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المجاور يفعل

على أنه كان إذا تعرض لوصف حسي في غير مانوهنا عنه من آيات هذا الوجود
 قال وأجاد ، وهذا وصفه لسنة مجدبة — تراءى للناس بمطرها وتكذبهم فيسوقون
 البقر إلى الأطواد وفيها النيران استمطارا على ما يعتقدون فلا تعظمهم — يقول فيه :

سنة أزمة تخيل بالناس س ترى للعضاء فيها صريرا (١)
 لا على كوكب بنوء ولا رية ح جنوب ولا ترى طخرورا (٢)
 ويسوقون باقر السهل للطو د مهازيل خشية أن تبورا (٣)
 عاقدين النيران في ثكن الأذ ناب منها لكي تهيج النحورا (٤)
 سلع ما ومثله عشر ما عائل ما وعالت البيقورا (٥)

فهذه فنون ثلاثة شارك فيها أمية الشعراء وكانت الغالبة عليه قبل أن يستنفذ
 فكره النظر في الكون والدين ، فلننتقل إلى الناحية التي تفرد فيها وكان بها امتياز
 وهي الناحية الدينية

(١) المفتد رأيه المخطأ كالمفيل (٢) العضاء شجر وصريره صوته من شدة الريح سنة الجذب .
 (٣) النوء النجم يكون مع طلوعه ظهور المطر والطرور السحاب (٤) الباقر البقر
 كالبيقور (٥) ثكن الأذ ناب خصل شعرها ، والنحور البرق يؤذن بالمطر (٦) السلع
 والعشر والعائل شجر سريع الالتهاب كانوا يعقدونها في أذ ناب البقر . وهات غلبت .

ب - شعره الديني

جاء شعر أمية الديني ذا فنين متراجحين ، أحدهما القصص يسوقه للظة والعبرة ، والثاني التوحيد يستنبطه من آيات هذا الوجود ، وهو في كليهما يستمد الأصل الذي يبنى عليه من الكتب السماوية والأساطير القديمة ، وهانحن أولاء نذكر من كل طرفا .
١ - القصص - قال في سفينة نوح وخرافة تطويق الحمامة إذ دلت من فيها

على اليابسة

وأرسلت الحمامة بعد سبع	تزل على المهالك لاتهاب
فجاءت بعد ماركدت بقطف	عليه الثأط والطين الكتاب (١)
فلما فتشوا الآيات صاغوا	لها طوقا كما عقد السخاب (٢)
إذا ماتت تورثه بنيتها	وإن تقتل فليس له استلاب
جزى الله الأجل المرء نوحا	جزاء البر ليس له كذاب
بما حملت سفينته وأنجت	خداة أتاها الموت القلاب (٣)
وفيه من أرومته عيال	لديه لا الظماء ولا السخاب

وترى أنه لم يستعن في هذه بالقرآن ، ويغلب أنه صاغها قبل الاسلام ، وأنها ليست

بذات ضعف

وعلي هذا النحو من تطويق الحمامة قال في قنزة الهدهد وأنها مكان حملة أمه في قفاه : -

غيم وظماء وغيث سحابة	أيام كفن واستراد الهدهد
يبغى الفرار يأمه ليجنها	فبنى عليها في قفاه يمهده
مهذا وطيا فاستقل بحمله	في الطير يحملها ولا يتأود
فتراه يدلج ماشيا بجنازة	منها وما اختلف الجديد المسند

(١) الثأط الحما والكتاب الأسود (٢) السخاب ككتاب عقد من قرنفل أو محلب أو غيرهما لاجوهر فيه (٣) الموت القلاب الناشئ من داء في القلب

وهي كسابقتها لا استعانة فيها بالقرآن ولا ضعف .

وقال في نذر ابراهيم ذبح ولده وإرسال الله له بالفداء حين هم بالذبح واستسلم

الذبيح .

ولابراهيم الموفى بالنسب راحتسايًا وحامل الأجزاء
بكره لم يكن ليصبر عنه أو يراه في معشر أقتال
أبني إني نذرتك لله م شخيطة فاصبر فدا لك خالي (١)
فأجاب الغلام أن قال فيه كل شيء لله غير انتحال
أبني إني جزيتك يا لله م تقيا به على كل حال
فاقض ما قد نذرتك واكفف عن دمي أن يمسه سربالي
واشدد الصفدان أحميد عن السكين حيد الأسير ذي الأغلال (٢)
وله مدية تخايل في اللحم حذام حنية كالهلال (٣)
بينما يخلع السراويل عنه فكه ربه بكبش جلال (٤)
قال خذه وأرسل ابنك إني للذي قد فعلت ما غير قالي
والد يتقى وآخر مولود فطارا منه بسمع فعال
ربما تجزع النفوس من الأم ر له فرجة كحل العقال

وهذه على عكس سابقتها في كل ما ذكرنا ، وليست في حاجة الى بيان ما فيها

من حشو وتفكك وابتدال

وقال في خراب سدوم مدينة قوم لوط

ثم لوط أخو سدوم أتاها إذ أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا قد نهيناك أن تقيم قراها
عرض الشيخ عند ذاك بنات كظباء بأجرع رعاها (٥)
غضب القوم عند ذاك وقالوا أيها الشيخ خطبة نأباها

(١) الشحيطة الذبيح (٢) الصفد القيد (٣) حذام قاطعة وتخايل تنباري وتسابق

(٤) جلال عظيم (٥) الأجرع الكتيب من الرمل

أجمع القوم أمرهم وعجوز خيب الله سعيها ورجاها
أرسل الله عند ذاك عذابا جعل الأرض سفلها أعلاها
ورماها بحاصب ثم طين ذى حروف مسوم إذ رماها
وهذه وسط لا تتبين فيها كلفة المحاكاة للقرآن
وقال فى قصة مريم

وفى دينكم من رب مريم آية منبئة والعبد عيسى بن مريم
تدلى عليها بعد ما نام أهلها رسول فلم يحصر ولم يترمرم (١)
فقال ألا لا تجزعى وتكذبى ملائكة من رب عاد وجهرم
أنبى وأعطى ما سئلت فأنبى رسول من الرحمن يأتيك بابنم
فقال له أنى يكون ولم أكن بغيا ولا حبلى ولا ذات قيم (٢)
أأخرج بالرحمن إن كنت مسلما كلامى فاقعد ما بذاك أو قسم
فسبح ثم اغترها فالتقت به غلاما سوى الخلق ليس بتوأم (٣)
فقال لها إنى من الله آية وعلمنى والله خير معلم (٤)
وأرسلت لم أرسل غويا ولم أكن شقياً ولم أبعث بفحش ومائم

والمحاكاة بينة وفيها بعض حشو ، وفيما تركنا منها آيات يظهر فيها الفضول الكثير .
وقال فى حادثة القيل وأن الدين الحق هو حنيفة إبراهيم بعد ذكر شئ من
آيات الله :

إن آيات ربنا باقيات ما يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل مستبين حسابه مقدور
ثم يحلو النهار رب كريم بمهابة شعاعها منشور (٥)
حبس القيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور (٦)

(١) لم يترمرم لم يشوق (٢) القيم الزوج (٣) اغترها أتاه على غرة (٤) قاعل
قال يعود على الغلام وهو عيسى (٥) المهابة الشمس (٦) المغمس مكان

لازما حلقة الجران كما قط ر من صخر ككبك محذور (١)
 حوله من ملوك كندة أبطا ل ملاويث في الحروب صقور (٢)
 خلفوه ثم ابذعروا جميعاً كلهم عظم ساقه مكسور (٣)
 كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور
 وقد خلت هذه من آثار المحاكاة ويرجح أنها قيلت قبل الاسلام
 وقال في إرسال الله إلى فرعون ، موسى وهارون

وأنت الذي من فضل من ورحة بعثت إلى موسى رسولا مناديا
 فقلت له يا اذهب وهارون فادعوا إلى الله فرعون الذي كان طاغيا
 وقولا له آأنت سويت هذه بلا وتد حتى اطعمأت كما هيا
 وقولا له آأنت رفعت هذه بلا عمد أرفق إذن بك بانيا
 وقولا له آأنت سويت وسطها منيرا إذا ماجته الليل هاديا
 وقولا له من يرسل الشمس غدوة فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
 وقولا له من ينبت الحب في الثرى فيصبح منه البقل يهتز رايا
 ويخرج منه حبه في رؤوسه وفي ذاك آيات لمن كان راعيا

ولا بد أن يكون قد نقل هذا الحوار من غير القرآن ، على أنه لم يرد في غيره
 من الكتب السماوية بهذه الصورة أيضا
 إلى غير ذلك من قصصه وأساطيره

٢ — التوحيد — قال في تمنى نبوة في العرب تخبره ما بعد الموت وكان النبي
 ﷺ إذا سمعها يقول « كاد أمية يسلم » ولكنه بعد أن عادى الدين والنبي ﷺ
 كان إذا أنشد شعره يقول « آ من لسانه وكفر قلبه » قال

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا
 رب الحنيفة لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الآفاق سلطانا

(١) الجران مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منجره . وككبك جبل وقطر هوى
 (٢) جمع ملوث وهو السيد الشريف (٣) ابذعروا تفرقوا (٤)

ألا نبى لنا منا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس محيانا
 بينا يربينا آباؤنا هلكوا وبينما تقتنى الأولاد أفنانا
 وقد علمنا لو ان العلم ينفعنا أن سوف يلحق أحرانا بأولانا
 وهى بما لم يستعن فيه بالقرآن فهى من قداماه وليس فيها ابتدال .
 وقال فى خلق الكون وفناء الخلق وعاقبة الناس مجرمين ومتقين .
 إله العالمين وكل أرض ورب الراسيات من الجبال
 بناها وابتنى سبعا شدادا بلا عمد يرين ولا رجال
 وسواها وزينها بنور من الشمس المضيئة والهلل
 ومن شهب تلالاً فى دجاها مراميهما أشد من النصال
 وشق الأرض فانبجست عيوننا وأنهارا من العذب الزلال
 وبارك فى نواحيها وزكى بها ما كان من حرث ومال
 فكل معمر لا بد يوماً وذى دنيا يصير إلى زوال
 ويفنى بعد جدته ويبنى سوى الباقي المقدس ذى الجلال
 وسيق المجرمون وهم عراة إلى ذات المقامع والنكال
 فنادوا ويلنا ويلا طويلا وعجوا فى سلاسلها الطوال
 فليسوا ميتين فيستريحوا وكلهم بحر النار صالى
 وحل المتقون بدار صدق وعيش ناعم تحت الظلال
 لهم ما يشتهون وما تمنوا من الأفراح فيها والكمال

والاستعانة فيها بادية جدا ولا تخلو من بعض فضول

وله قصيدة طويلة فى كثير من صفات الله سبحانه وتعالى وخضوع المخلوقات له ،
 ومنها فى وصف الملائكة وهو خيرها
 ملائكة لا يفترون عبادة كروية منهم ركوع وسجد (١)

فساجدهم لا يرفع الدهر رأسه يعظم ربا فوقه ويمجد
ورا كهم يحنوله الدهر خاشعا يردد آلاء الاله ويحمد
ومنهم ملف في الجناحين رأسه يكاد لذكرى ربه يتفقد
من الخوف لاذوسامة بعبادة ولا هو من طول التعبد يجهد
ودون كفيف الماء في غامض الهوا

ملائكة تنحط فيه وتصعد
وبين طباق الأرض تحت بطونها
ملائكة بالأمر فيها تردد
فسبحان من لا يعرف الخلق قدره

ومن هو فوق العرش فرد موحد
ومن لم تنازعه الخلائق ملكه وان لم تفرده العباد فمفرد
ومن خيرة توسلاته قوله

إلى الله أهدى مدحى وثنائنا وقولا رضا لا ينى الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه إله ولا رب يكون مدانيا
حنانيك إن الجن كنت رجاءهم وأنت إلهى ربنا ورجائنا
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى أدين إلهما غيرك الله ثانيانا
وإنى ولو سبحت باسمك ربنا لأكثر إلا ما غفرت خطائنا
فرب العباد ألق سييا ورحمة على وبارك فى بنى وماليا

إلى غير ذلك مما هو كثير ولكن لا يخرج عن هذه المعانى فلنستغن عنه بما
ذكرنا .

٣ - طبقه ومنزلته

قال أبو عبيدة « اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ثم عبد القيس

« يريد أهل البحرين » ثم ثقيف « يريد أهل الطائف » وأن أشعر ثقيف أمية بن أبي الصلت »

وقال ابن سلام « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف ، ومع ذلك كان فيهم أبو الصلت بن أبي ربيعة وابنه أمية بن أبي الصلت وهو أشعرهم » . فلم يقف به عند أنه شاعر الطائف فحسب ، بل جعله شاعر مكة والبحرين معها ، ولم يخرج من المدين الحس التي عدد شعراءها سوى المدينة واليمامة ثم قال عنه « كان كثير العجائب يذكروا في شعره خلق السموات والأرض ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء وكان قد شام أهل الكتاب » .

وعلى ذكر هذه العجائب التي ذكرها ابن سلام كان السكيت يقول « أمية أشعر الناس ، قال كما قلنا ولم تقل كما قال » ولكن في هذا القول إسراف غير مقبول .

وكان الأصمعي على ما ذكر الأغاني يقول « ذهب أمية بعامة ذكر الآخرة ، وذهب عنتره بعامة ذكر الحرب ، وذهب عمر بعامة ذكر الشباب » وفي هذا قصد واعتدال . وابن قتيبة لم يذكر شيئاً عن منزلته الشعرية وكل ما عني به . قوله عنه « إنه كان يأتي بألفاظ كثيرة لاتعرفها العرب كقوله « قمر وساهور يسلم ويغمد » يزعم أن الساهور غلاف القمر ، وكتسميته السموات صاقورة وحاقورة والشعر والتغرور ، ومن ذلك تسميته الله السلطيط والتغرور في قوله « والسلطيط فوق الأرض مقتدر » وفي قوله « وأيده التغرور » ، وكذا ذكره شيئاً عن ذلك في المعاني أيضاً كقوله في الشمس .

ليست بطالعة لهم في رسلها
ولا معذبة ولا تجلده
وكقوله عن خيانة الغراب للديك
بآية قام ينطق كل شيء
وخان أمانة الديك الغراب

وكقوله في تكفين الهدهد أمه وحملها «أيام كفن واستراد الهدهد» ثم قال بعد ذلك كله «وعلمناؤنا لا يرون شعره حجة» يعنى لما تقدم من هذه الخطوات الجريئة في الألفاظ والمعاني .

وقد بالغ صاحب شعراء النصرانية فجعله من شعراء الطبقة الثانية ثم أغرق في المبالغة فقال «وقيل من الطبقة الأولى» ولكننا لا ندرى على أى سند بنى هذا الذى رآه ، وعمن نقل هذا الذى رواه ، ولم يسلكه أحد من رواة الأدب في طبقة من الطبقات على ما شرحنا ، حتى كان أبو عبيدة والأصمعي يقولان «عدى في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم ، يعارضها ولا يجرى معها وكذلك أمية بن أبي الصلت»

والذي نراه أن أمية في شعره غير الدينى يتجاوز المرتبة الوسطى من شعراء القري بمقدار ، فانه يفضل معظمهم ولكن لا يبعد في الفضل كثيراً ، وقليلهم يعلوه كحسان علوا كبيرا ، وله في هذا الضرب من شعره سهولة ألفاظ في غير ابتذال ورقة معان من غير تعقيد . أما شعره الدينى فقد جاء فيه من حيث المعانى طبقة وحده ، وجاء فيه من حيث اللفظ هابط المنزلة ضعيف الأداء . وبخاصة اذا وضع القرآن أمامه في قصصه أو توحيده يستقى منه ويباريه ، فان ضعفه حينئذ يكون أبدي للعيان شبه ملموس لمن يحاول لمسه بالبنان ، ولهذا يعد من سقط القول وظلم المعانى ، أن تعقد الموازنات بين شعره هذا وبين القرآن ، كما فعل بعض سخفاء المستشرقين البعيدين عن تذوق روح الأدب وإدراك كنهه البيان .

وقد حذا في ذلك حذوهم من الشرقيين فريقان ، فريق مسيحي شايهم مشايعة دفع اليها الاشتراك في الدين والتعصب للاعتقاد ، وآخر مسلم أغرم بمحاكاة المستشرقين والهيام وراءهم في كل واد ، والأول قد ضل ضلالا بعيداً والثاني شاركه في هذا الضلال وزاد ، وإنه ليكفى في الرد على هؤلاء وهؤلاء ، أن يوضع ما ذكرنا من شعره في القصص إزاء ما جاء منه في القرآن ويتلى على المسامع هذا وذاك ، فاذا القرآن حيث هو في سماء الفصاحة والبلاغة ، وإذا هذا الشعر لا يعدوا ما ينظمه بعض الشعراء من الحكمة على سبيل الوعظ والارشاد ، وكذلك يكون شعره إذا ووزن ما قاله في التوحيد والكونيات .

هذا وإنه لأخراج للجرأة عن مسماها وتجريد للحقيقة من معناها ، دعوى أولئك
المتوقفين على رسول الله ﷺ أنه كان قارئاً كاتباً ، وأنه استقى القرآن من المنابع
التي استقى منها أمية الأشعار ، وهأتهم قد علمتم فيما ذكرنا أن مرجع أمية في معظم
ما قال كان القرآن ، وأنه فيما عداه كان أميل إلى الخرافات والأساطير ، فكيف يستقيم
القول على هذا فضلا عن تجريد الرسول الكريم من أمية تواتر فيها الخبر وسارت
بذكرها الركبان ، ألا إن ذلك لأحق أن يرد عليه أو يوضع موضع المحاسبة والنقاش ،
فليترك شعر أمية مغمورا مقبورا حيث مات قليل الاشيع والأنصار ، وليبق الذكور
الحكيم مرفوعا محفوظا كما أنزله الله تحوطه بالجمالة الأفتدة وترمقه بالتجلة الابصار .

الفرس

الموضوع	الصفحة
<u>الأدب العربي</u>	١٣ - ٣
ما هو وما تاريخه ؟	٦ - ٣
كيف دونا ؟	١٣ - ٧
العرب	٤٥ - ١٤
أولاً — موطنها	٢٠ - ١٤
ثانياً — أصلها وأقسامها ومشهورات قبائلها	٢٥ - ٢٠
ثالثاً — أيامها الكبرى	٤١ - ٢٥
رابعاً — أثر الأيام في اللغة والأدب	٤٥ - ٤٢
<u>اللغة</u>	٦٤ - ٤٦
أولاً — نشأة اللغات وتعددتها	٤٨ - ٤٦
ثانياً — اللغات السامية وأصل العربية	٥٠ - ٤٨
ثالثاً — طرق نمو اللغة العربية وخصائصها	٥٦ - ٥٠
رابعاً — عوامل تهذيبها واختلاف لهجاتها	٦٤ - ٥٧
معارف العرب في الجاهلية ومعتقداتهم	٧٧ - ٦٤
تمهيد	٦٥ - ٦٤
أولاً — المعارف وتحتها	
١ — السماء وكائنات الجو	٦٦ - ٦٥
٢ — البيطرة والطب	٦٧ - ٦٦
٣ — التاريخ والأنساب	٦٧ - ٦٧
٤ — القيافة والعيافة	٧٠ - ٦٨

الموضوع	الصفحة
٥ - العرافة والكهانة	٧١ - ٧٣
٦ - الخط العربي	٧٣ - ٧٣
ثانيا - المعتقدات وتحتها	
١ - الأديان	٧٤ - ٧٥
٢ - الأوابد	٧٥ - ٧٧
<u>الأدب الجاهلي</u>	٧٨ - ٨٨
١ - ألنا أن نطمئن اليه ندرسه ونرويه ؟	٧٨ - ٨٣
٢ - المنثور والمنظوم - أيها أسبق إلى الوجود ؟	٨٤ - ٨٨
<u>النثر الجاهلي</u>	٨٩ - ١٠٣
أقسامه من مرسل ومزدوج ومسجوع	٨٩ - ٨٩
أنواعه من :	
١ - الحكم والأمثال	٨٩ - ٩٤
٢ - المفاخرات والمنافرات	٩٤ - ٩٧
٣ - الخطب والوصايا	٩٧ - ١٠٣
<u>الشعر الجاهلي</u>	١٠٤ - ١٨٣
١ - أولية الشعر عامة ولدى العرب خاصة	١٠٤ - ١٠٨
٢ - طبيعة الشعر الجاهلي وفنونه	١٠٨ - ١٣٢
طبيعته	١٠٨ - ١١٠

فنونه وهى :-

١ — النسيب	١١٠ - ١١٣
٢ — الفخر	١١٣ - ١١٦
٣ — الرثاء	١١٦ - ١٢٠
٤ — المدح	١٢٠ - ١٢٣
٥ — الهجاء	١٢٣ - ١٢٦
٦ — الوصف	١٢٦ - ١٣١
٧ — الحكمة	١٣١ - ١٣٢

٣ — تسجيله كثيرا من أحوال العرب ١٣٢ - ١٤٢

ظهر ذلك فى الفنون السابقة ، ويظهر فى الاوابد ، من الاستقسام بالازلام ، والافتخار بالاياسام ، والعقر على القبور والحبس عليها ، وضرب الثور لتشرب البقر ، وكى السليم ليبرأ الاجرب ، وتعليق الحلى على اللديغ ليسلم ، وزوال حلى الشفة بتعليق المنخل على الرأس ، وتعليق سن الثعلب ونحوها عوذة للصبي ، ورمى الأسنان فى عين الشمس لحسن الاثغار ، ونداء الهامة للاخذ بالثأر ، وتخطى المقاليت دم الشريف لتعيش أولادهن ، والاستشفاء بدم الاشراف ، وشق البرقع والأردية لدوام الحب ، وإذهاب خدر الرجل بذكر المحبوب ، وإيقاد النيران لكثير من الأسباب ، ومخالطة الغيلان والتزوج منهن ، وشياطين الشعراء .

٤ — تأثيره ومنزلة رجاله ١٤٣ - ١٥٢

وفيه ثبات معاوية بأبيات ابن الاطنابة ،

وكف الفرزدق عن هجاء زياد الأعجم ، وكفه هو وجريز عن
 نصره النعمان بن بشير علي الأحوص ، ومعاتبة جرير قومه مدلا
 عليهم ، ورفع السهميين عبد الله بن الزبير إلى بني قصي حين
 هجاءهم خوفا من هجاء الزبير بن عبد المطلب ، وكذا حمل بني
 حرام لهاجى الفرزدق منهم إليه ، وتبرم آل الزبرقان من مغادرة
 الخطيئة إياهم إلى بني عمهم آل لأمي ، وصنيع أوس بن حارثة مع
 بشر بن أبي خازم حين هجاءه ، وقولا حسان بن ثابت في بني
 عبد المدان ، وقضاء لبيد على الربيع بن زياد حين هجاءه في مجلس
 النعمان ، ورفع الأعشى من شأن الملق الكلابي ، وإسقاط قبيلة أو
 رفعها ببيت ، وتنفير عامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة بأبيات
 الأعشى — إلى غير ذلك .

١٥٣ — ١٥٦ ٥ — طبقات الشعراء ، ومنزلة أصحاب المعلقات فيهم ، وسبب
 تسميتها بهذا الاسم .

١٥٦ — ١٨٣ ٦ — منزلة المعلقات من الشعر الجاهلي وتحليل كل معلقة .

١٥٧ — ١٦٠ ١ — معلقة امرئ القيس

١٦٠ — ١٦٥ ٢ — معلقة طرفة

١٦٥ — ١٦٨ ٣ — معلقة زهير

١٦٨ — ١٧٣ ٤ — معلقة لبيد

١٧٣ — ١٧٦ ٥ — معلقة عنتره

١٧٦ — ١٧٩ ٦ — معلقة عمرو بن كلثوم

١٨٠ — ١٨٣ ٧ — معلقة الحارث بن حنظل

١٨٤ — ١٨٨ مميزات الادب الجاهلي

١٨٤ — ١٨٦ أولا — المميزات العامة في النثر والشعر من حيث العبارات ثم المعاني

ثم الغرض العام

الموضوع	الصفحة
ثانياً — المميزات الخاصة	١٨٨ — ١٨٦
أ — في النثر	١٨٧ — ١٨٦
ب — في الشعر	١٨٨ — ١٨٧
النقد الأدبي في هذا العصر	١٩٥ — ١٨٩
تمهيد	١٨٩ — ١٨٩
النقد الجاهلي، وفيه نقد طرفة لامتس . ونقد الحجازيين للنابعة .	١٩٥ — ١٩٠
ونقد قيس بن معديكرب للاعشى، ونقد العرب لمهل ، ثم تحير العرب قصائد بأعيانها تفضيلاً لها . وعرض العرب أشعارها علي قريش .	
وقيام حكام للشعر في الأسواق ، وتحاكم حسان والاعشى والخنساء الى النابعة ، وتحاكم امرئ القيس وعلقمة إلى أم جندب ، ثم	
اختلاق بعض النقاد حوادث نقد على الجاهليين لا تتفق وحالهم .	

تراجم جاهلية

امرؤ القيس السكندی

٢٧١ — ١٩٨

« ترجمة مطولة »

أ — نسبه وبيته

٢٠٠ — ١٩٨

وفيه ذكر أولية كندة واتصالها بالمناذرة والربعين ، وتمليك حجر والدجد امرئ القيس على وائل ، ثم جده الحارث من بعده حتى قتل بأرض كلب بعد هربه من المنذر الذي أسر ثمانية وأربعين من بيته فقتلهم بديار بني مرينا ، وتفرق ملكه على أبنائه الذين منهم حجر والد امرئ القيس وكان ملكه على بني أسد وغطفان حتى استبد بهم فقتله بنو أسد ، ثم انتقام امرئ القيس من بني أسد مع ذكر رثاء امرئ القيس لقتلى ديار بني مرينا وإن كان لم يحضرهم ، وكذا رثاء عبيد بن الأبرص لقتلى بني أسد في ذلك الانتقام ،

٣ — نشأته وحياته

٢١١ - ٢٠٠

وفيها هو امرئ القيس أيام أبيه ، واشتغاله بشأره بعد مقتله ، ووفادة بني أسد اليه في ذلك وعدم استجابته لهم إلا في الحرب ، واستعائته بيكر وتغلب ثم بأزدشنوآه ، وبعدهم بمرثد الخير الحميري ، وطلب المنذر بن ماء السماء له واستجاراته بالكثير لهذا الطلب ، وأخيرا التجأؤه إلى قيصر الروم تاركا سلاحه لدى السموأل بن عاديا بتيماء ، وقتل المنذر لابن السموأل في ذلك ، وأخيرا عودته خائبا من لدن قيصر وموته في طريق عودته بأنقره ، مع ذكر أشعاره في كل ذلك .

٣ — شعره وفنه

٢٤٩ - ٢١١

ويشمل ما يأتي :—

١ — شوبه فياض الشعر غزير القافية ، ومماتته التوأم اليشكري في وصف سحاب ، وعبيد بن الأبرص في الأوابد . ثم مناظرته علقمة بن عبدة

٢١١ - ٢١٦

ب — شعره قبل مقتل أبيه . وفنونه هي : —

٢١٦ - ٢٣٨

١ — النساء والديب ، مسبوقاته بابتداعاته في المطالع

٢١٦ - ٢٢٤

٢ — الخيل والصيد . من حيث وصفها في جسمها وعدوها للصيد والحرب ، مع التفرقة في ذلك بين ذكورها وإناثها . ومن حيث النهوض للصيد ثم النزول بعده للراحة والأكل .

٢٢٤ - ٢٣٤

٣ — السحاب والغيث . وذلك بوصفه شكلا ولونا . وبوصفه قوة

٢٣٤ - ٢٣٨

سح وشدة آثار ، مع إبداعه التشبيه في الحاليين . ومع إتباع ذلك بكلمة عامة عن مكانة الوصف في شعر امرئ القيس خاصية ومكانته في الشعر الجاهلي عامة .

- ج — شعره بعد مقتل أبيه وفنونه هي : — ٢٣٩ — ٢٤٩
- تمهيد ٢٣٩ — ٢٣٩
- ١ — الوعيد والتهديد والتحمس والتفاخر ، وفيه توعدده بنى أسد وقد هم بأخذ الثأر . وغرره وقد نال بعض شفاؤه منهم ، ولومه سبيع بن عوف حين لامه على التشدد في الثأر ٢٣٩ — ٢٤١
- ٢ — المدح والشكر والمعاتبة والهجو . وفيه هجوه بنى حنظلة . ومدحه بنى عوف . ومدائح في سعد بن الضباب والمعلل التيمي وبنى ثعل وابنى سلامان وطريف الطائي ٢٤١ — ٢٤٣
- ٣ — شكوى أيام جارت وتذكر عزة سلفت . وفيها ذكره ما يستقبله من موت . وتذكر أسلافه . ووصفه النهر ، وهمته . ووصفه النوق مع تشبيهها بحمر الوحش ، ثم حكمه وأمثاله ٢٤٣ — ٢٤٩
- ٤ — طبقة بين الشعراء ومكانته ٢٤٩ — ٢٧١
- ويشمل ما يأتي : —
- ١ — تقدمه شعراء الطبقة الأولى جميعا بأجاء الرواة والأدباء . ٢٤٩ — ٢٥٢
- ٢ — ميزات التي كان من شأنها ذلك التقديم وهذا الاجاء ، من فتح باب الغزل علي مصراعيه للشعراء بعدواستعانة ابن أبي ربيعة به . ومن تساميه إلى حيث لا يجارى في وصف الخيل والصيد مع موازنة ضافية بينه وبين علقمة في ذلك . ومن افتنانه في وصف السحاب والغيث مع موازنة بينه وبين عبيد بن الأبرص فيه . ثم أولياته في وصف الليل والظعن والأطلال والشوق والنكبة ومش الأيدي بأعراف الجياد . هذا إلى صلاحية شعره لأصوات الغناء وأخيراً ضعف ما وقع عليه من مآخذ . . ٢٥٢ — ٢٧١

أوس بن حجر

٢٧٢ - ٢٩٠

١ — نسبه وبيته

٢٧٢ - ٢٧٤

وفيه بيان اتصاله بعمر بن هند وبفضالة بن كعدة، مع ذكر بعض أشعاره في الحالين .

٢ — فنون شعره — وهي : —

٢٧٤ - ٢٩٠

١ — هجاؤه ومدحه ورثاؤه — وفيه بيان الدوافع العامة والخاصة له في ذلك . وذكر هجوه لبني حنيفة والحكم بن مروان . ومدحه فضالة بن كعدة . ورثاؤه إياه

٢٧٥ - ٢٨٠

٢ — حماسته وغرره وحكمته . وفيها غرره بنفسه وأبيه وعشيرته ذاكرًا الحماسة والجود ومكارم الأخلاق . مع ضرب المثل وسوق الحكمة . ثم أبياته في الاعتذار من الفرار .

٢٨٠ - ٢٨٣

٣ — وصفه — وفيه لاميته الجامعة في وصف عدته للحرب ، من الرمح والدرع والسيف والقوس والسهام . وفائيته في وصف العير الوحشي ومخاتلة القانص له ، ورائيته في وصف ثور الوحش تتبعه كلاب الصيد ، مع شفع ذلك بما يظن أنه كان من فنونه في الوصف وغيره ولكن ضاعت آثاره ثم منازعة الشعراء له في كثير من قصائده

٢٨٣ - ٢٩٠

٣ — مكانته بين الشعراء

٢٩٠ - ٢٩٠

وفيه رأى أبي عبيدة وعمر بن العلاء وهشام الكلبي وابن قتيبة فيه ، ثم إجمال النابغة وزهير له مع استعانتها هما وبعض الشعراء الوصافين بكثير من شعره في الوصف وغيره .

أمية بن أبي الصلت

٢٩١ - ٣٠٨

١ - نسبه وحياته

٢٩١ - ٢٩٢

وفيه نشأته الدينية وموته على غير الاسلام لحسده رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرسالة .

٢ - شعره ومذهبه

٢٩٢ - ٣٠٥

١ - في غير الدين ، وفنونه هي : —

٢٩٣ - ٣٠٠

١ — المديح والثناء وفيه مدائحه في عبدالله بن جدعان . وراثؤه زمعة بن الأسود . وراثؤه قتلى بدر من المشركين .

٢٩٢ - ٢٩٧

٢ — الفخر ، وفيه بعض نونيته التي عارض بها معلقة ابن كلثوم .

٢٩٧ - ٢٩٨

٣ — الوصف ، وفيه وصفه لعقوق ابنه . ووصفه لسنة مجدبة .

٢٩٨ - ٢٩٩

ب — شعره الديني . ومذاهبه هي : —

٣٠٠ - ٣٠٥

١ — القصص . عن سفينة نوح وخرافة تطويق الحمامة . وعن قنزعة

٣٠٠ - ٣٠٣

الهدهد وخرافة أنها مكان حمله أمه . وعن نذر إبراهيم ذبح ولده .

وعن خراب سدوم مدينة قوم لوط . وعن قصة مريم . وعن

حادثة الفيل . وأخيرا عن إرسال الله إلى فرعون موسى وهارون .

٢ — التوحيد وفيه قصيدة تمنيه نبوة في العرب . وقصيدة خلق

٣٠٣ - ٣٠٥

الكون وفناء الخلق والحساب والجزاء . ثم قصيدة صفات الله ووصف

الملائكة . وأخيرا آياته في التوسل إلى الله .

٣ — طبقته ومنزلته

٣٠٨ - ٣٠٥

وفيه آراء أبي عبيدة . وابن سلام والكميت والأصمعي وابن قتيبة،
ثم شدة تشيع الأب لويس شيخو اليسوعي صاحب كتاب شعراء
النصرانية له . وأخيرا القول الحق في مكانته مع بيان تخطيط المستشرقين
عن هوى أو جهل في تلك المكانة . ثم دفع فريتهم أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان قارئاً كاتباً ، وأنه استقى القرآن من المنابع
التي استقى منها أمية الأشعار .

٣٢٠ - ٣٠٩ الفهرس

DATE DUE

1. LIB

12 APR 1981

JAFET LIB

2 DEC 1982



1.2

892.709:B36tA:v.1:c.1

بيومي، السباعي

تاريخ الادب العربي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032905

A. U. B. LIBRARY

27. 8. 73 71-2432

23. 8. 73 //

16 SEP 75 F161

892.709

B36tA

v.1

